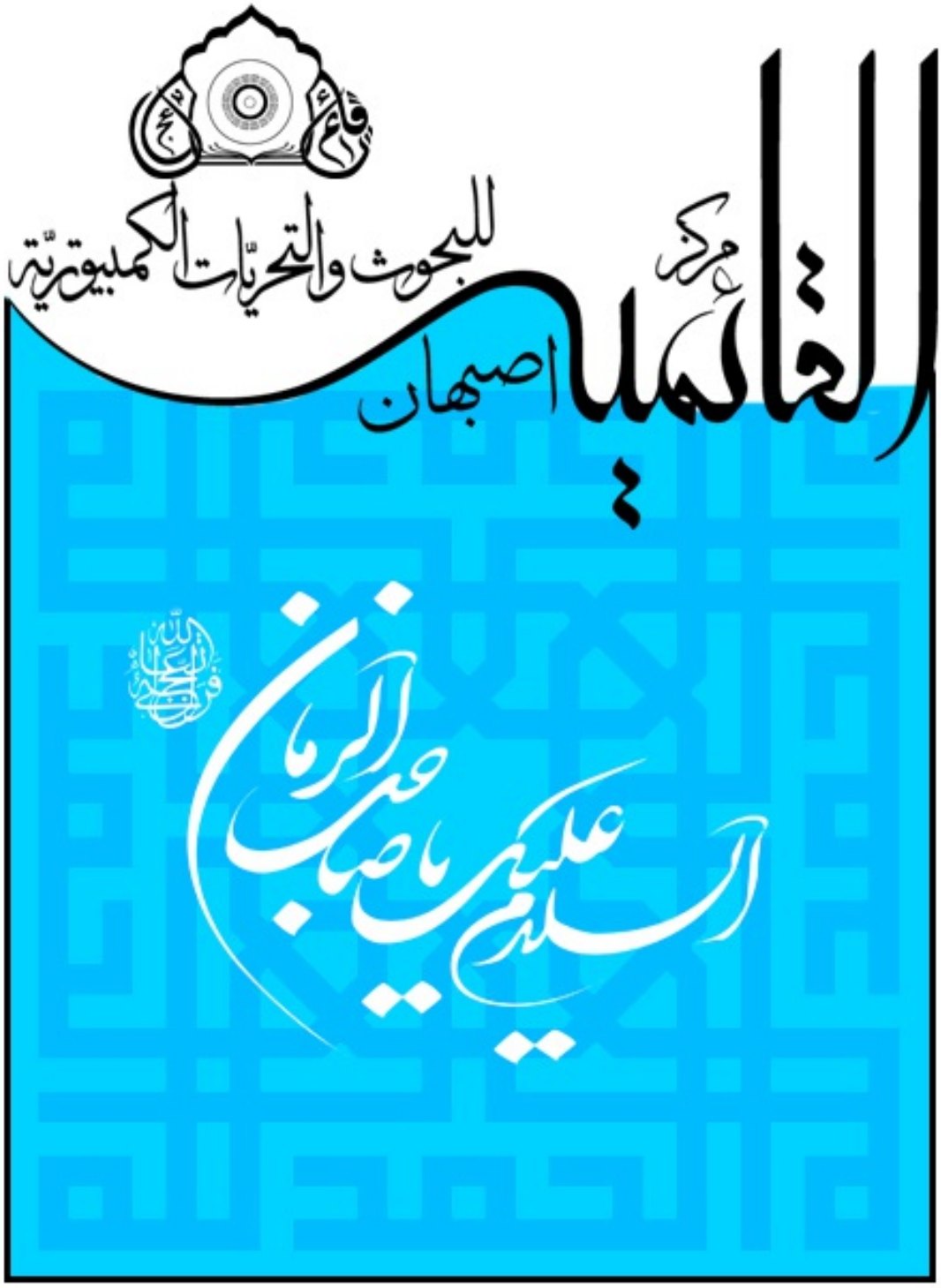

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

رحلة

المولدي الدكتور ليونمارت راوولف

إلى طرابلس ـ دمشق ـ حلب ـ الرقه ـ دير الزور

بغداد ـ عانه ـ الفلوجة ـ هيت ـ كركوك ـ أربيل

في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف

كاتب:

لئونارد راوولف

نشرت فى الطباعة:

الدار العربية للموسوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة الهولندی الدکتور لیونهارت راوولف ----- ۷
اشارة ----- ۷
کلمة الناشر ----- ۷
اشارة ----- ۷
أهداف الرحلة: ----- ۷
بدایة الرحلة: ----- ۸
التوت أو الفرصاد: ----- ۸
و الأشنان أو الأشنان: ----- ۹
بدایة رحلة الدکتور لیونهارت راوولف ----- ۱۹
اشارة ----- ۱۹
الفصل الأول مدینة طرابلس ----- ۱۹
الفصل الثانی ظأفراد الطبقة العلیا من رجال الأتراک و نسائهم، أعمالهم و دوائرهم، عاداتهم و تقالیدهم و ملابسهم ----- ۲۶
الفصل الثالث من طرابلس إلی دمشق و حلب ----- ۳۱
الفصل الرابع مدینة حلب ----- ۳۳
الفصل الخامس المناصب الرفیعة و السلطات الواسعة التی یتمتع بها الباشوات فی حلب. ----- ۳۴
الفصل السادس المعاملات التجاریة فی مدینة حلب. ----- ۴۰
الفصل السابع مغادرة حلب إلی مدینة (بیر) الشهیرة و سفری من هناک فی نهر الفرات إلی بابل القدیمة ----- ۴۷
الفصل الثامن الطریق الذی سلکناه بالسفینة. التوجه نهرا إلی الرقة. مجیء نجل أمیر العرب إلی سفینتنا مطالبا بالإتاوة ----- ۵۳
الفصل التاسع مدینة الرقة ----- ۶۰
الفصل العاشر مدینة دیر الزور ----- ۶۴
الفصل الحادی عشر مدینة «عنة» ----- ۶۸
الفصل الثانی عشر الطریق الذی سلکناه من عنه إلی بابل القدیمة عبر المدن القدیمة المسماة حدیثة و جبة و هیت ----- ۷۲

الفصل الثالث عشر بابل القديمة هى عاصمة كلدة، و موقعها ، كيفية بقائها حتى اليوم ---------- ۷۵

الفصل الرابع عشر مدينة بغداد تدعى بالداهک موقعها، نباتاتها الغريبة، مواصلاتها القديمة ---------- ۷۷

الفصل الخامس عشر الطريق التى عدت بها من بغداد عبر أور فى أطراف فارس و إقليم الكرد إلى كركوک و أربيل ---------- ۸۵

الفصل السادس عشر الطريق الذى سلكناه عبر العراق- طريق نصيبين- أورفه إلى «بير». كيفية عبورنا نهر الفرات العظيم و وصولنا إلى مدينة حلب ۹۰

ملحق بأسماء النباتات التى صادفها الدكتور راوولف فى رحلته إلى الشرق ---------- ۹۶

فهرس المحتويات ---------- ۱۰۳

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---------- ۱۰۴

رحلة الهولندی الدکتور لیونهارت راوولف

اشارة

نام کتاب: رحلة الهولندی الدکتور لیونهارت راوولف / تعریب سلیم احمد خالد

نویسنده: راوولف، لئونارد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۵۹۶ م

موضوع: سفرنامه

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: الدار العربیة للموسوعات

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

کلمة الناشر

اشارة

منذ الحملات الصلیبیة علی الشرق العربی انتبه الأوروبیون إلی أهمیة الشرق عامة و الوطن العربی خاصة باعتبار هذه المناطق مفاتیح کنوز کبیرة معدنیة و غذائیة و بشریة و اقتصادیة و أسواق رائجة لبضائعها. لذا فقد وصل هذه البقاع العدید من الباحثین و المختصین یدرسون و یبحثون و ینقبون عمّا ضمته هذه الأقطار من ثروات هائلة. و من أقدم تلک الرحلات العلمیة الأوروبیة إلی الشرق بل و أهمها رحلة العالم و الطبیب الهولندی الدکتور لیونهارت راوولف إلی الشرق التی وقعت فی النصف الثانی من القرن السادس عشر المیلادی. و مع أن الغایة الأساسیة من هذه الرحلة کانت- کما هو معروف جمع النباتات و الأعشاب التی لها علاقة بالطبّ و العلاج و التی تنمو فی بلدان الشرق، و الشرق الأوسط بالذات فإن الجوهر الأصلی لها هو حثّ أوروبا علی استعمار هذه البقاع و امتصاص خیراتها بکل الطرق و الوسائل و هی بدایة السیطرة و الأطماع الأوروبیة للشرق بأکمله.

طبعت هذه الرحلة باللغة الألمانیة سنة ۱۵۸۱ م فی لیدن، ثم طبعت باللغة الإنکلیزیة سنة ۱۶۹۳ م فی لندن.

رحلة الهولندی الدکتور لیونهارت راوولف/ تعریب سلیم احمد خالد، ص: ۶

أهداف الرحلة:

الهدف المعلن لهذه الرحلة التی قام بها الدکتور راوولف الهولندی إلی هذه المنطقة من شرقنا العربی هو التعرّف و جمع أنواع کثیرة من النباتات و الأشجار التی تنبت فی أراضی هذه البلدان و التحقق من فوائدها الغذائیة و بالأخص الطبیّة.

و قد حفظت بشکل جید النباتات التی جمعها راوولف خلال رحلته فی أربعة مجلدات ضخمة حیث اعتبرت من أعظم الأشیاء النادرة الغالیة.

و أصبحت ملک جامعة لیدن الهولندیة.

و حاول راوولف أن يعود لبلده و معه نماذج كثيرة من نباتات و أعشاب بلاد المشرق التى جاءها، و ركز جلّ اهتمامه على فوائد هذه النباتات الطبية بصورة أساسية للاستفادة منها فى صناعة الأدوية. و فعلا تهيأت له بعض المقومات الناجحة لجمع العديد من نماذج نباتات الوطن العربى و اعتبرت مصدرا هامّا من مصادر دراسة النباتات العربية. و مع أن رحلة ليونهارت راوولف كانت علمية بحتة فإنها رحلة قيّمة تخللها الصدق و الأمانة فى أكثر الأحيان فى الوصف لكل شىء شاهده، و بذلك فإنها تشكّل أساسا لدراسة الأحوال الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الثقافية للأقطار التى حلّ فيها، و وصف ما شاهدته عيناه من أمور عجيبة و ما صادفه من معوقات و مشاكل محزنة أحيانا. و هى بحق رحلة جامعة و شاملة و مفيدة. و وثيقة موضوعية عن الوضع العام للبلدان العربية إبان حكم الدولة العثمانية. و من فوائد رحلة المشرق بشكل خاص وصفه لما حلّ ببغداد من كوارث و وباء الطاعون المميت و الجوع المرعب و الفيضان المدمر الذى أغرق هذه المدينة الجميلة بطغيانه.

بداية الرحلة:

عند ما خرج الرحالة راوولف فى الثامن عشر من أيار سنة ۱۵۷۳ م

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷

من مدينة او غسبرغ الهولندية كانت محطته الأولى فى الشرق العربى مدينة طرابلس فى لبنان. و من بين ما وصفه عن المصنوعات صناعة الحرير و أشار إلى توفر كميات كبيرة من الحرير فى مدينة دمشق و ذلك لكثرة أشجار التوت أو التكى. قال إن هناك «.. كثرة فائقة من أشجار التوت الضخمة الشامخة ذات الأوراق الكثيرة التى تتغذى عليها دودة القز. علما أن ثمار التوت هذه تكون بيضاء اللون و تنقل فى سلال و تباع للعامة».

التوت أو الفرصاد:

(الاسم العلمى Morus ، و الإنكليزى Mulberry -tree) أشجار برية و زراعية من فصيلة التوتيات، تنتشر فى المناطق الحارة و المعتدلة.

و أنواعها المعروفة أكثر من ثلاثين نوعا و أشهرها التوت الأبيض Morus alba الذى يربى على أوراقه دود القز و هو الذى وصفه راوولف فى رحلته. و فى العراق يسمى التكى و هذا النوع صينى الأصل و نقله العرب إلى أنحاء العالم الإسلامى خلال الفتوحات العربية الإسلامية.

و وصف أعشابا يستخرج منها مادة بوتاسية تستخدم فى صناعة الصابون سماها شوان(Shvan) و هى غير ذلك قال: «و يستخرج هذا البوتاس أو القلى من أعشاب يطلق عليها العرب اسم شنان، و هو على نوعين.

و أحد هذين النوعين لا يختلف عن نبات القلى المعروف إذ يتألف من نبتة سميكة كثيرة العقد ذات أغصان صغيرة تتفرع منها و لها فى رؤوسها عدة عقد و من تحتها أوراق مدببة.

أما النوع الثانى فتكون سيقانه كثيرة مليئة بالعقد و جذور ملونة.

و ينمو هذان النوعان من الأعشاب بكميات هائلة حيث يتم حرقها و تحويلها إلى رماد فوق الجبال. و عند حرقها تسيل مادة زيتية تلتصق بالرماد فتصبح صلبة أشبه بالحجارة بعد أن تفقد حرارتها و يجلب المسلمون هذا الرماد من الجبال على ظهور الإبل فيبيعونه لبعض التجار

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸

الذين يتاجرون به فيصدرون قسما منه إلى البلاد الأجنبية بينما يصنعون من القسم الآخر مادة الصابون».

و الأشنان أو الأشنان:

(الاسم العلمى Salicomia) و الإنكليزى(Saltwort) نبات عشبى من فصيلة السرمقيات له ثمانية أنواع مواطنها حوض البحر الأبيض المتوسط و المحيط الأطلسى سيقانها مفصلية دقيقة فروعها متقابلة، عديمة الورق أزهارها سنبلية التجميع. ثمارها خفية الشكل صغيرة يستخرج منها ملح القلى بعد الحرق.

و النوع الذى قصده راوولف هو اشنان القلى (أبو قابس، خريس(Salicomia herbacea .

و خلال وجوده فى منطقة حلب السورية وصف أهم نباتاتها و أشجارها الغذائية و الصناعية قائلا: «حلب محاطة بتلال صخرية و أوديتها ذات تربة طباشيرية و مع ذلك فلا تعوزها الحنطة و لا الشعير و غيرهما من الحبوب لأن أرضها خصبة، و يبدأ الحصاد فيها عادة فى شهرى نيسان و أيار. و لا يوجد فى هذه الأودية سوى القليل من أشجار البلوط، و الأعشاب الجافة، ذلك لأن الجفاف فيها شديد و أرضها رملية فى حين ترى التلال و عرة ملأى بالأدغال ليس فيها سوى القليل من العشب الجاف، و لذلك وجدنا السكان يعلفون مواشيهم الشعير و التبن الذى تدوسه أدوات الدراسة التى تجرها الثيران. و كذلك وجدنا الأودية مليئة بأشجار الزيتون و هذا هو الذى جعل الأهلين هنا ينتجون فى كل سنة مئات الألوف من أطنان زيت الزيتون الذى يستعمل فى صناعة الصابون.

و إلى جانب ذلك توجد بساتين كثيرة لأشجار اللوز و التين و السفرجل و التوت الأبيض و الفستق الذى يجمعه المسلمون فى فصل الربيع بكميات كبيرة فيملحونه و يقشرونه و يأكلونه مثلما نفعل نحن بنبات الجنجل، جنجل: أعشاب عارشة من فصيلة القراصيات لها نوعان: الجنجل الشائع

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹

و الجنجل اليابانى تصل إلى ارتفاع ۸ أمتار. و هى من النباتات الزراعية الصناعية اسمها العلمى(Humulus) و الإنكليزى-Hop .

و تكثر بساتين البرتقال و الليمون و الرمان و الخوخ و غيرها غير أن ثمار التفاح و الكمثرى تعد قليلة بالنسبة إلى الثمار الأخرى، و تكون صغيرة الحجم و غير ملونة بالشكل المعروف فى بلادنا. و يعقب ذلك وجود كثرة من حاصلات الرقى و البطيخ و الخيار و ما شاكلها فضلا عن وفرة أنواع الخضار. و لقد شاهدت ثلاثة أنواع من الباذنجان تختلف ألوانه بين الأسود و البنى، و الفاصولية و غيرها من الخضار التى تباع بكثرة فى الأسواق و تطبخ لتهيئة الطعام اليومى، كما أنهم كثيرا ما يتناولون بعض هذه الخضروات و هى فجة أى دون طبخ.

و هناك نوع من اللوبياء أو الكستناء تطبخ أو تحمص ثم تنزع قشورها و هم يتناولونها عند ما يجلسون فى المقاهى، كما يقدمونها على مائدة الطعام بعد انتهاء الوجبات عوضا عن الحلويات أو الفواكه مثل الزبيب و الجوز و غيرهما.

و يستمر راوولف فى وصف النباتات التى شاهدها قائلا: «و هناك عدة نباتات تستعمل طعاما بالطبخ منها العدس. و هذا ذكرنى بنبتة مماثلة يسميها العرب «ماش» و هى فى شكلها و أوراقها تشبه نبتة الفاصوليا عندنا. و لقد أشار «سيرابيو» إلى هذه النبتة باسم «مليس» فى الفصل ۱۱۶ من كتابه، كما أشار إليها ابن سينا أيضا باسم «ميس» فى الفصل ۴۸۸ من كتابه. غير أن العالم النباتى الشهير «كارلوسى كلوفيوس» سماها فى كتابه «موجز النباتات الهندية» باسم «مونغو» و قد وجدت الأتراك يحبون تناول الماش (اسمه العلمى P- «Phaseolus aureus .mungo ») و بالإنكليزية(Mung bean) كثيرا و لا سيما مع الرز. و الماش نبات عشبى زراعى حولى من فصيلة القرنيات الفراشية. تنتشر زراعة هذا النبات فى أنحاء أقطار الشرق. الساق فرعاء قائمة، أوراقه معنقة مركبة ثلاثية. و ريقاتها بيضية

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰

النصل. الأزهار صفر خضر المواج. الثمار قرون أسطوانية ضيقة مستطيلة، بزوره كروية الشكل سمراء اللون أو خضراء بالأسود. تحوى

البذور على العناصر الغذائية التالية ۸۰، ۲۳٪ من المواد الأزوتية، ۴۶، ۱٪ من المواد الدهنية، ۱۵، ۶۲٪ من المواد النشوية.

و بعد ذلك تناول راوولف فى وصف رحلته الشرقية هذه نباتا آخر يجلب من بلاد فارس (إيران) إلى مدينة حلب، قال: «و هم يجلبون من بلاد فارس فى أكياس من الجلد كميات كبيرة من (المن) يسمونه (طرنجبيل-(Trunschibill و يجمعونه من نبتة يسميها العرب «عاقول» و «الحاجى».- عاقول، حاج، زنجبيل العجم، اشترغار، الاسم العلمى(Alhagi mannifera ,Al -maurorum) و الإنكليزى(manna plant) Comel thom ,Hebrew نبات عشبى ليفى معشوشب معمر من فصيلة القرنيات، الساق شائكة فرعاء تصل إلى نحو ۱۰۰ سم، فروعه نحيلة الشوك، أوراقه بسيطة كاملة مستطيلة، و هو من النباتات التى تفرز المن و يقال إن منّ بنى اسرائيل كان من فرزه لأنه كثير الوجود فى صحراء سينا و هذا هو السبب الذى يجعله يمتزج مع أشواك صغيرة و قش أحمر اللون. و لهذا المن شىء من الحبوب أحيانا على غرار حبات (الكزبرة) عندنا. و لذلك فهو فى كل مظاهره يشبه (المن) الموجود فى بلادنا و الذى نجنيه من شجر «اللاركس» كما أن هذا المن يشبه المن الذى تناوله الإسرائيليون الذى وفره اللّه فكان على شكل معجزة خارقة للطبيعة. اللاركس-(Larix Deciduamill) و معنى اللاركس باللاتينى المتساقطة الأوراق أو المنفضة. و اللاركس شجرة مخروطية ارتفاعها بين ۲۵- ۳۰ مترا، سمراء القلف راتنجية. و بزوره بيضوية الشكل سمراء اللون. و موطن هذه الأشجار جبال الألب و وسط و جنوب أوروبا. و تعرف شجرة اللاركس بالاسم العربى (الأرزيّة) و هذا الاسم من وضع الأمير مصطفى الشهابى رحمه اللّه.

أما المن الذى يسقط على الأشواك فقد أكده كل من (سيرابيو)

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱

و (ابن سينا) فى الفصول التى تناولا فيها هذه المادة من مؤلفاتهم و كانوا يسمونها (تسريابين) و (طرنجبين). كذلك عرفه العالم النباتى الشهير (كارلوس كلوفيوس) و أكده فى كتابه (موجز النباتات الهندية) و لقد عثرت فى أطراف حلب على بعض هذه الشجيرات التى يبلغ ارتفاعها حوالى ذراع و تتفرع منها عدة سيقان مدورة تنقسم بدورها إلى عدة أقسام كالزهرة- و يستخدم الأهلون هذه الشجيرات للتنظيف و التعقيم، إذ إنهم يأخذون كمية منها يغلونها بالماء. طرنجبين- ترنجبين- منّ(manna) مادة من مزيج من السكر و المسنيت و الدكسترين تفرزه بعض النباتات أو بواسطة حز اللحاء أو بتأثير و خز بعض الحشرات كقرمزية المن و غيرها.

و الطرنجبين أنواع عديدة تختلف باختلاف مصادرها و طرق جمعها. و ما خلا ذلك فإن لديهم نوعا آخر من المن شبيه بالنوع السابق. و هذا النوع يرسل إلى بلادنا (كالبرية) عن طريق البندقية.

و قد جاء فى الدراسات العلمية الحديثة أن المن أنواع كثيرة منها:- المن الذى يعرف باسم (ترنجبين) و هو عسل الندى و هو عبارة عن مادة سكرية تفرزها بعض النباتات إفرازا طبيعيّا أو بتأثير حشرة قرمزية المن القشرية (الاسم العلمى-(manna Scale in Sect coccus manni ferus و من أهم هذه النباتات:

۱- الطرفاء النيلية (تكثر فى صحراء سيناء) الاسم العلمى Mannifera((Tamarix nilotica), Variety - من الفصيلة الطرفاوية.

۲- الشيح (الاسم العلمى-(Artemisia herba -alba)- من الفصيلة المركبة (الأنبوبية الزهر).

۳- الحاج (نوع من العاقول أو شوك الجمل)(alhagi) (تكثر فى أفغانستان و إيران) (الاسم العلمى-(Alhagi manniferum) من فصيلة القرنيات. و جاء ذكر هذا النبات فى النصوص البابلية و النصوص الآشورية (عثر على نص فى كركميش قرب حلب).

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲

۴- شجر الخلاف (الاسم العلمى-(Salix Viminalis الاسم الإنكليزى(Osier) (نوع من الصفصاف القصير الورق) و ينبت فى الأماكن الرطبة. و يقع عليه الشير خشك و هو نوع من المن.

۵- شجرة الميليز(Melissa) (حبق ترنجانى بادر نجوية) أو الترنجان (إغريقية) كما عرفه ابن البيطار، يتبع الفصيلة الشفوية و

المستعمل منه الأوراق له رائحة ليمونية و يسيل منه ما يسمى (بمن بربانسون).

۶- الحزاز (نوع من الطحالب) و هى الأشنة أو شيبة العجوز كما سماها ابن البيطار. و هذه الأشنات تؤكل و تحتوى نشا كثيرا و يسمى هذا النوع (المن السماوى أو المن الساقط من السماء و يكثر (فى إيران و حول جبال أرارات فى تركيا).

۷- الدردار (الاسم العلمى-(Fraxinus omus و هى أهم مصادر المن فى الوقت الحاضر. (تكثر فى جنوب أوروبا و بالأخص فى إيطاليا). و قد سمى ابن البيطار هذا النبات (لسان العصفور) و لهذه النباتات أنواع كثيرة لكن الذى يهمنا هنا النوع الذى يسمى (لسان العصفور المزهرة أو الدردار المزهرة) و هى الشجرة التى تنتج المن و تسمى (ديش) كذلك. و يعتبر المن الجيد الذى يجلب من منطقة (كالابريا- فى جزيرة صقلية الإيطالية) و هذا النوع نفسه الذى ذكره راوولف أنه شاهده فى حلب. و هذا يؤكد أن هذه الأشجار قد نقلت إلى أوروبا عن طريق صقلية و هذا المن يتصف باللون الأصفر الجاف إلى البياض و له طعم حلو تتخلله مرارة خفيفة.

و يشير الدكتور جابر الشكرى حول تكوّن المن بقوله: «و المن الذى يؤخذ من بعض أنواع أشجار الطرفاء أو الأثل أو غيرها يسيل من شقوق تحدثها بعض الحشرات التى تعيش على هذه الشجيرات و لا يستبعد أن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳

يكون لهذه الحشرات دخل فى تكوين المن. و هذا النوع من المن هو المأخوذ من طور سيناء، و ورد ذكره فى القرآن الكريم.

و يظن بعض العلماء أن المن الذى نزل على بنى اسرائيل هو نوع من الأشنات تنبت على الحجر أو الشجر، غنية بالنشا، حلو الطعم يؤكل، و ليس هذا المن الذى نعرفه الآن.

إن المن من نوع الراتنجات أو الصموغ التى تنضح من النباتات و يحصل عليه من إحداث شقوق فى لحاء الأشجار التى عمرها بحدود ثمانى سنوات، حيث يسيل النضح من هذه الشقوق، و يجمع فى أوعية خاصة أو يترك على اللحاء حيث يجف ثم يجمع». و أثناء وصفه مدينة حلب ذكر الدكتور راوولف أن هناك الكثير من نباتات التوابل تجلب لهذه المدينة من بلدان أخرى. قال: «و هم يجلبون إلى هنا كثيرا من الأفاويه من أمثال (الدار صينى) و الدار صينى قرفة سرنديب، قرفة سيلان، دارسين (العراق) الاسم العلمى(Cinnamomum Zeylanicum) و الإنكليزى(Cinnamon, Common Cinnamom tree .

شجرة زراعية من الأفاوية، موطنها سيلان و بعض مناطق الصين المتاخمة للهند. ساقها فرعاء تصل إلى عشرة أمتار فى الارتفاع أزهارها صغيرة الحجم غبراء اللون. ازهرارها عنقودى التجميع. الثمار عنبية جميع أعضاء الشجرة عطرية تستخرج منها الأدهان و الطيوب. و يستخرج من لحاء الساق و الفروع صنف جيد من الأفاويه المسماة بالدارسين عندنا فى العراق.

الفلفل و الفلفل- لهذا النبات حوالى ۶۰۰ نوع و لكن يبدو أن الذى ذكره راوولف فى رحلته هو الفلفل المسمى بالحلو أو فلفل إفرنجى اسمه العلمى(Pimenta) و الإنكليزى(pimento, Allspice و هى شجرة برية و زراعية من فصيلة الآسيات تكثر فى البلاد الحارة ثمارها بقدر حبة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴

الحمص، قرمزية اللون، عطرة، يستخرج منها عطر و يستعمل مسحوقها فى الأكل كتابل ممتاز.

الهيل و الهيل- يسمى أيضا هال، هيلبوا، قاقلة، شوشمة، شوشمير الاسم العلمى(Amomum) نباتات جذمورية طبية عطرية برية و زراعية من فصيلة الزنجبيليات من نباتات المناطق الحارة أنواعه عديدة، تنتشر فى الهند و الهند الصينية و جزيرة جاوة و الصين و سيلان. المستعمل منها بذورها المسماة (حب الهال أو الهيل). و هى بذورها ضمة و منبهة للقلب و للقوة الجنسية طاردة للرياح، مسكنة للمغص و مدرة للطمث و كذلك ادهانها. و اعتقد أن الهيل الذى ذكره راوولف هو النوع المستورد من سيلان.

جوز الطيب و جوز الطيب- جوزبوا، بسباسة، الطيب، الاسم العلمى(Myristica Fragrans) و الإنكليزى(Nutmeg tree) من نباتات البلاد الاستوائية المستعمل من هذا النبات ثمارها شبه الكروية الشكل، لحمية القشور أصفر اللون كالمشمش، قطرها ۵ سم

قشرة الثمرة تنفلق عند النضج عن جوزة خشبية الغلاف، سمراء اللون. و جوز الطيب من التوابل العطرية المستحبة دهنها منبه شديد الفاعلية و هاضم و طارد للرياح و هذه النباتات أشجار هرمية الشكل تعلو إلى حوالى ۱۰ أمتار. و قشر جوز الطيب و غيرها من الجذور الصينية التى يستعملها العرب بوفرة جذور ثمينة يسمونها «الراوند» و الراوند- الاسم العلمى(Rheum) و الإنكليزى(Rhubarb) . نباتات عشبية جذمورية طبية معمرة من فصيلة البطباطيات، أنواعه كثيرة، كبيرة الحجم. ضمية الأوراق أزهارها عثكولية الثمار عنبية.

و نتابع وصف الدكتور راوولف للنباتات من خلال رحلته المشرقية هذه فيقول:

«من بين المواد التى يجلبها التجار من الهند بعض القصب الطويل

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵

الصلب الممتلىء بمادة لزجة ذات لون أصفر. و يكون هذا القصب على نوعين قصير و طويل. فأما الطويل فهو أصلب و يستعمله الشيوخ و العرج بدلا من العكاكيز أما النوع الآخر فيصنعون منه القسى و السهام حيث تجد الأتراك يغلفونها بأغلفة حريرية مختلفة الألوان و يتباهون بها كثيرا.

كذلك توجد فى الحوانيت أنواع أخرى من القصب القصير المجوف الصقيل ذى الألوان البنية و الحمر. و هذه الأنواع يستعملها الأتراك و المسلمون و غيرهم من أبناء الأقطار الشرقية لغرض الكتابة بها، ذلك أنهم لا يستعملون ريش الإوز لهذا الغرض. و فضلا عن ذلك يوجد نوع من العصى يجلبها الحجاج معهم من «مكة» حين يذهبون لزيارة قبر نبيهم (محمد) صلى اللّه عليه و سلم. و أهل تلك البلاد و لا سيما العرب يحملونها معهم على ظهور الخيل بدلا من الرماح لأنها قوية و طويلة و خفيفة ...».

ربما قصد هنا الدكتور راوولف القصب الهندى(Canneguin ghan) الذى يصل طوله فى النمو إلى أربعة أمتار، فى داخل التجويف مادة سكرية صفراء اللون. و عنى بوصفه هذا القصب الصينى(dechine Canne) و هو أصفر اللون متوسط الارتفاع ينتشر فى الصين و الهند و الهند الصينية كان التجار العرب يجلبونه من الهند على متن السفن.

و هناك أنواع عديدة يجلبها التجار العرب المسلمون من الهند و الصين من القصب الذى كان يستعمل فعلا لأغراض الكتابة و كسهام و رؤوس للحراب المستعملة فى الحروب و من أشهر هذه الأنواع القصب الفارسى(Arundo isiaca) .

و يستغرب الدكتور راوولف من وجود شراب غريب عرفه بالقهوة كان فى وقته غير معروف فى أوروبا. و لنستمع لوصفه: من بين الأشربة التى يتعاطونها فى هذه البلاد، شراب حسن جدّا يسمونه «قهوة» أسود اللون كالجير تماما، و هو مفيد جدّا للمرض و لا سيما أمراض المعدة ... و هم يصبّونه فى أقداح صينية و هو جدّا ساخن فيرفعون القدح

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶

إلى شفاههم لكنهم لا يتناولون منه سوى شفة واحدة بين آونة و أخرى.

و تدار عليهم هذه الأقداح حين يجلسون و هم يصنعون فى هذا الماء ثمرة يدعونها (بنرو-(Bunru) ، هى فى حجمها و شكلها و لونها تشبه ثمرة التوت، و لها قشرتان رقيقتان تحيطان بها. و قد انبأونى عنها بأنهم يجلبونها من الهند».

القهوة أو البن التى ذكرها راوولف هى شجيرات برية و زراعية (الاسم العلمى(Coffea و الإنكليزى(Coffee tree) . موطنها الأصلى الحبشة و قد انتقلت بواسطة العرب إلى اليمن و الهند و أمريكا الجنوبية، و هى من نباتات المناطق الحارة الاستوائية. أوراقها دائمة الخضار.

و أزهارها بيض عطرية. المستعمل منها حبوبها المنبسطة أخدودية من الداخل، لونها أخضر باهت. و القهوة هى نقيع البن المحمص المسحوق المغلى فى الماء.

عندما وصل راوولف مدينة الفلوجة الحالية فى محافظة الأنبار عن طريق نهر الفرات قادما من حلب قال: «لم أر هنا أية نباتات تستحق الاهتمام سوى الخلجان الذى يسمى عندنا فى هولندا باسم (السذاب) و هو ينمو بكثرة فى الوديان الجافة. كما شاهدنا على مقربة من

الطريق أول نوع من شجرة نسميها نحن (سم الكلب) و هى بأوراقها و عذوقها تشبه (شجرة الخالندين) شبها كبيرا. كما شاهدنا مساحات شاسعة من الأراضى مزروعة بنوع من القمح التركى ندعوه «جلجان» بالإضافة إلى مساحات أخرى زرعت بالقطن و بأشجار (الأيسولا) المليئة بالحليب و هى تغطى مساحات واسعة من الأراضى الخالية التى يمكن زرعها بالقمح.

و لقد وجدنا هنا نبتة (السمقونيا) التى يؤتى بها إلى حلب و التى يمكن مزجها مع حبات الأيسولا. و على مقربة من المدينة كانت أشجار (الأكاسيا) تنمو بكميات و فيرة و هم يسمونها هنا باسم (الشوك) و الشاموك و ثماره أكبر حجما و أكثر وفرة مما رأيت من أمثاله فى أى مكان آخر».

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷

و الخالنجان أو الخولنجان (الاسم العلمى-(Alpinia galanga و الإنكليزى(galingale) عشب أملس ريزومى معمر طبى، له رائحة عطرية طعمه شديد الحرافة، و الجزء المستعمل طبيا هو الريزومات. و هو ليس السذاب كما أشار بذلك راوولف و أوراقه تشابه أوراق السذاب و بالإضافة إلى استعماله الطبى يعتبر قابلا حسنا ذا نكهة طيبة.

و كان العرب يشربونه مغليًا فى اللبن ضد السعال و البرد و كمقو للباه، و نقل العقار إلى أوروبا و ظل يستعمل كمنبه عطرى معوى إلى عهد قريب.

و نبات (سم الكلب أو قاتل الكلب) الذى ذكره راوولف يسمى أيضا (خوشان، خانق الكلب) اسمه العلمى(Apocynum) و الإنكليزى(Indianhemp ,Dogsbanc) شجيرات طبية معمرة من فصيلة الدفليات، ساقها و فروعها ليفية منتصبة، أزهارها صغيرة جريسية، ثمارها نحيلة مستطيلة، بزورها دقيقة. يستفاد من البزور و الأوراق فى عدة مستحضرات طبية مسهلة و مقيئة. و يستخرج من الألياف خيوط كالقنب.

و ذكر راوولف عن قمح سماه الجلجلان و هو ليس بقمح إنما هو السمسم أو السمسق (الاسم العلمى Sesamum oleifrum و الإنكليزى(Gingili, Gingelly, Sesame) . نبات عشبى حولى زراعى دهنى من السمسقيات، جذوره و تدية يستفاد من بزوره الزيتية التى يستخرج منها بالعصر. و البزور الصغيرة الحجم مفلطحة إهليلجية، لونها يختلف بألوانها ما بين الأبيض و التبنى و الأصفر و الأسمر و الأسود. يكثر فى الهند و بلاد الشرق العربى. و ذكر راوولف نباتا سماه الأيسولا(Esula) ، و هو عشب يسمى فى العراق باسم (الزريقة) بتشديد الراء.

يجمع البدو بزورها السمراء اللون و هى بحجم حبة العدس حيث يحمصونها و من ثم يأكلونها و تضم أوراق هذه النباتات مادة حليبية.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸

و ذكر راوولف نبات السمقونيا (المحمودة) (الاسم العلمى(Convolvulus Scammonia ,C .Syriacus . و الإنكليزىScammony Plant) . نبات عشبى طبى ليفى عارش من فصيلة اللبلابيات. أزهاره بوقية الشكل، صفراء اللون مشربة البياض. يستخرج من جذوره عصارة راتنجية صمغية لها استعمالات كثيرة فى الطب.

و نوع أشجار الأكاسيا أو الأقاقيا التى ذكرها الدكتور راوولف الأكاسيا العربية أو سنط عربى أو قرظ أو شوكية قبطية، الاسم العلمى(Acacia arabica) و الإنكليزى(Gum -Arabic tree) .

شجرة برية و زراعية مبذولة تكثر فى الشرق العربى. و يستخرج منها الصمغ الأحمر. و أغصانها مشوكة مما حدا بأكثر الناس أن يعتبروها أحد أنواع الشوك و أزهارها ذات عطر حسن. و وصف راوولف نباتا يصطاد بواسطة بذوره الأسماك فى نهر دجلة عند مكوثه فى بغداد قائلا: «و حين أراد ملاحو قاربنا اصطياد السمك شرعوا يرمون فى النهر بحبات ممزوجة بمادة (الكوكولوس-Cocculos) و هو ثمر يسمونه (دم السمك) فبعد أن يطفو السمك على سطح الماء تماما يقفز الملاحون من القارب و يمسكون بأعداد منه». و الكوكولوس التى ذكرها راوولف فى رحلته نبات يسمى سم السمك أو قاتل الحوت (سمى كذلك لأنه يقتل السمك

إذا خلط بالماء)- سيكران الحوت و يسمى بالفارسية (ماهيزهره- ماهيز هرج أى سم السمك) من العائلة(Menispermaceae) و اسمه العلمى Anamirta paniculata, Cocculus) (Anamirta و الإنكليزى(Cocculus indicus plant) .

و عندنا فى العراق يعرف باسم (الزهر) لثمر هذه العشبة البرية، و هذا الثمر عبارة عن بذور مثل بزور الفلفل أسمر اللون يحتوى على مادة سامة يستعملها صيادو السمك بعد أن تسحق و تخلط بالعجين أو أى مادة أخرى و تلقى فى النهر و عند ما تتناولها الأسماك تتسمم و تطفو على الماء و هو صيد سهل لكن القانون العراقى يحرم العمل به بشكل صارم.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹

و جاء فى الموسوعة فى علوم الطبيعة الجزء الأول، ص ۵۷۰:

(سنديل «الاسم العلمى»Anamirta paniculata و الإنكليزى» Cocculusindicus, Cocklesplant «نبات برى و زراعى معمر وحيد الجنس و النوع من فصيلة القمريات. موطنه البلاد الحارة أخصها الآسيوية. ثماره طيبة مخدرة، مسهلة و مقيئة شائعة الاستعمال تدعى سم السمك).

و ذكر راوولف نبات الزرنب و قال إن جذور هذا النبات تستعمل فى معالجة أوجاع الظهر. و هذا النبات المسمى أيضا (زرنباد، زرنبة اسمه العلمى(Amomum Zerumbet, Zingiber Zerumbet و الإنكليزى Broad -leaved, ginger) (Wild ginger .

هو نبات برى طبى جذمورى من فصيلة الزنجبيليات. له عطر نافع للفم و يزيل روائح البصل و الثوم منه. و هو كذلك منبه معوى يحلل الرياح و يقوى القلب، الساق منتصبة حولى يصل من ۱۰۰- ۱۲۰ سم بالارتفاع، أزهاره هامية كبيرة الحجم ذات لون كبريتى محمر.

و له أيضا فوائد طبية أخرى لمعالجة أوجاع المفاصل و الظهر و غيرها. و أشار الدكتور راوولف أثناء سفره فى نهر الفرات فى إحدى السفن الصغيرة متوجها إلى العراق قادما من سوريا إلى مجموعة من النباتات قائلا: «و كنت اغتنم الفرصة حين نزولنا إلى اليابسة فأروح أفتش عن النباتات القريبة فى المكان. و قد عثرت على أنواع خاصة من نبتة «الأزهار المحززة» و هى تشبه النوع المعروف منه فى بلادنا لكن ليس لها ذات ميزته، و نوع من شجر (العجرم) من فصيلة ذكرها المؤرخ «كلوفيوس» و هو ذو أوراق سميكة تشبه شجرة (الودنة) فضلا عن السذاب و نوع غريب من الصفصاف يسميه السكان باسمه القديم هو (الغرب)، بالإضافة إلى الطرفاء و هى من أنواع كبيرة و عالية تشبه أشجار التوت و النخيل مما يمكن مشاهدتها من بعيد بسبب ضخامتها و ارتفاعها و هى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰

تشبه الطرفاء فى بلادنا لكنها أكثر ضخامة و ارتفاعا، و أوراقها طرية ذات رؤوس وردية الألوان».

و العجرم- (باقل- ثغام «الجزائر»- بلبل «بربرية»- شعران «العراق»- نشمة. (الاسم العلمى Anabasis, Anabasis articulata prostrata) أشجار شائكة من أنواع العفص من الفصيلة(Salsolaceae) و نبات الودنة(House leek) شجيرة صغيرة لها سوق سميكة و أزهارها وردية اللون.

و جاء ذكر السذاب فى وصف راوولف و هو سذاب البر و هو عشب طبى برى (اسمه العلمى(Ruta montana) و الإنكليزى rue, wild) (Mountain rue . يرتفع إلى حوالى ۸۰ سم. ساقه ليفية خميلة اللحاء. الأزهار، صفر باهتة.

و اندهش راوولف من أحد أنواع أشجار الصفاف الذى اعتبره نباتا غريبا. و الذى ذكره الدكتور راوولف هو الصفصاف مستح أو الصفصاف الرومى و هو غرب (واحدته غربة) و هى (الخلاف أيضا)، صفصاف رومى (مصر)، إطا (يونانية(Itea (الاسم العلمى(Salix babylonica و الإنكليزى(Weeping Willow, Mourning Willow) شجرة متوسطة الحجم تصل إلى ارتفاع عشرة أمتار، فروعها منبسطة، أوراقها سنانية ضيقة، يحب الأراضى الكثيرة الماء، يستفاد من سيقانها فى بعض الصناعات الخشبية.

و الطرفة التى ذكرها راوولف من خلال رحلته هو (الأثل العراقى المسمى طرفة أو أثل دجلة-(Tamarixtigrensis) . و هى أشجار و شجيرات من فصيلة الأثليات أو الطرفيات أوراقها حرشفية، أزهارها سنبلية التجميع صغيرة بيض أو وردية اللون. ينمو فى جميع الأتربة من الرملية الصحراوية إلى الطينية و من الجافة إلى المائية و هو يصلح للسياجات الحية قرب الشواطئ فهو لا يتأثر بالأملاح البحرية، يستفاد من أخشابه فى عدة صناعات زراعية و صناعة السفن الصغيرة و المتوسطة. و يوجد نوع

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱

يسمى بأثل المن(Tamarix manifera) يجنى منها المن كمادة غذائية تسببها حشرة غشائية الأجنحة توخز الزهر و جرادة الأملوج فتعسل المن المعروف بالطرفة.

و تحدث عن نبات يبدو على ما يظهر أنه يشاهده لأول مرة عند ما قال: «... كما وجدت بعض الأشجار الأخرى التى يسمونها بالعاقول».

و العاقول (حاج- اسمه العلمى-Amaurorum), Alhagi manniferum و الإنكليزى(Camal thorn ,Hebrew manna plant) و لم يكن العاقول أشجارا بل شجيرات عشبية ليفية مخشوشبة معمرة من فصيلة القرنيات ساقه شائكة فرعاء تصل فى الارتفاع إلى أكثر من ۱۰۰ سم. الفروع نحيلة الشوك، أوراقه بسيطة كاملة مستطيلة.

و فى مكان آخر تناول راوولف جانبا آخر من دراسته للنباتات التى بذل من أجلها الغالى و الثمين للظفر بمعلومات كافية عنها، قال: «و هناك أنواع أخرى لأعشاب لطيفة و غريبة تنمو بكثرة فى الرمال. و لكل واحدة من هذه النباتات ما بين خمس و ثمان سيقان يدخل أحدها فى الآخر و لها مفاصل كثيرة و لذلك تنمو و هى تزحف فوق الأرض أكثر مما تنمو قائمة.

و تنبثق من كل واحدة ثلاث أو أربع أوراق مدورة تشبه أوراق شجر السماق و الزعتر و تظهر فوق كل نبتة من هذه نجمة تشبه الزهرة البيضاء ذات ست أوراق مدببة و هى بهذا تكون شبيهة بنبتة (ورنبثو غالوم) المعروفة عندنا، و كل واحدة منها ذات سوق خاصة، و لم أر فيها أية حبوب و كانت جذورها صغيرة و نسيجية و هى مشابهة فى شكلها للنبتة المتعددة الأوراق التى ذكرها ديسقوريدس».

و جاء ذكر السماق فى رحلة راوولف و هو يقصد ذاك النوع المسمى (سماق الدباغين، تمتم. الاسم العلمى(Rhus coriaria) و الإنكليزى(Sumach ,Tanners sumach) . و هو النوع المعروف المبذول فى لبنان و سوريا، شجيرة تصل فى الارتفاع من ۱۰۰- ۴۰۰ سم، لها أزهار خضراء

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲

اللون، البذور شديدة الصلابة مصقولة، أوراقه دباغية، (ثماره من التوابل الحامضة العافصية).

و أما الزعتر الذى ذكره راوولف فهو نبات(Origanum) طبى برى عطرى. و يسمى أيضا صعتر أو سعتر.

و كان وصف راوولف لنبات شبيه بنبات (الأورنبثو غالوم) إنما هو فى الحقيقة لنبات يعرف فى علم النبات العربى باشراس صوصلاء أو صاصل أو لبن الطير من فصيلة الزنبقيات.

و هو بالذات (الأشراس الخنثى-

Omithogalum Stachyoides,(Omithogalum arabicum

و الإنكليزى(Star of Bethlehem) . كبير الأزهار الخضراء اللون ينبت بريّا فى بعض المناطق من سوريا و فلسطين.

و يستخرج من بصله نوع من الشراس الجيد.

و عند وصول راوولف إلى مدينة (عنه) عن طريق نهر الفرات وصفها وصفا موضوعيّا قائلا: تشتهر هذه المدينة بجمالها و ذلك لكثرة الأشجار المثمرة فيها من أمثال الزيتون و الليمون و البرتقال و الرمان و الليمون الحامض و كذلك أشجار النخيل التى لم أر لها شبيها بما شاهدته من أمثالها فى سفراتى.

فقد كانت هذه النخيل سميكة و صلبة للغاية و حين ذهبت مع بعض رفاقنا إلى المدينة وجدنا كميات كبيرة من الفواكه لم تعجبهم إطلاقا و قد رأينا بينها نوعين من الفواكه التى اعتادوا جلبها إلى بلادنا أحدهما أحمر اللون و الآخر أصفر أطلق عليهما «سيرابيو» اسم «هيرون» و ذلك فى الفصل التاسع و الستين من كتابه، و مع أنهما أقل حجما مما هو لدينا إلا أنهما من نوع جيد و ذى طعم لذيذ».

و هذه الفاكهة التى ذكرها راوولف هى بالأحرى ثمار نبات النبق (السدر) الذى يبدأ باللون الأخضر و بعد ذلك يصفر و يحمر. و النبق

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳

أشجار كبيرة و لأوراقها و أثمارها فوائد طبية. و يستمر راوولف فى وصف نباتات منطقة الأنبار الحالية و هو متجه إلى بغداد، يقول: «و لم أر فى الطريق من النباتات الغريبة سوى ما شاهدته فى حقول القمح من نبات (الماش) العربى الذى أشرت إليه قبلا و الذى يظن عنه أنه هو نبات (كوركورم) الذى ذكره (بلينى) و كوركوروم Corchorum ، نبات متسلق ذو أزهار صفراء اللون. كذلك رأيت نبتة أخرى تشبه السمسم إلّا أن ساقها أطول و أمتن، و هى تحمل أزهارا صفرا ذات عروق حمر أو بنية اللون تنتهى بعقد طول الواحد منها بقدر الإصبع و بمقدار سمكه و مدببة عند الرأس، و لها خمسة أصناف تحوى البذور التى تشبه نوعا من الخباز الذى يسمى (أبو تيلون).

و لقد استفسرنا كثيرا عن هذه النبتة فلم نجد لها اسما آخر غير الاسم الذى يطلق عليها و هو (اللوبيا الهندية)، و لكن طبقا لمعلوماتى أعتبر هذه النبتة هى (النفل) التى أشار إليها (ثيوفراستس) فى أماكن عديدة من كتابه».

و نبات أبو تيلون الذى ذكره راوولف هو أعشاب مخشوشبة الساق من فصيلة الخبازيات. أنواعه عديدة تنتشر فى جميع أنحاء البيئات الحارة و المعتدلة. و هذه النباتات لها ثمار دولابية النفاج عند النضج و يستفاد من أوراقه اللعابية اللزجة كملين و من بذورها كمدر للبول و من سوقها و ألياف قشورها للغزل و النسيج.

و اللوبيا الهندية الذى قال عنها راوولف هى نفس اللوبيا أو اللوبياء فى بلادنا اليوم و تسمى علميّا(Dolichos unguiculatus) و الإنكليزى(Asparagus bean, Black eyed dolichos . و هى نباتات عشبية زراعية من فصيلة القرنيات الفراشية. أنواعها عديدة تزرع لقرونها الخضر البقلية أو لبزورها الجافة. و هى تنمو فى جميع الأتربة القليلة الاندماج الممكن ريها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴

و قد أخطأ راوولف عند ما اعتبر اللوبيا هى نفسها نبات النفل. فنبات النفل (الاسم العلمى(Trifolium و الإنكليزى(Clover) هو البرسيم نفسه و هى نباتات عشبية من فصيلة القرنيات الفراشية أنواعه المعروفة حوالى (۱۵۰ نوعا) أكثرها برى مرعوى و بعضها زراعى علفى و منها الحولى و المعمر. جذورها تغور فى التربة. أوراقها مركبة ثلاثية الوريقات.

أزهارها مختلفة الألوان، البذور كلوية الشكل صغيرة الحجم، سمراء اللون. و أوضح راوولف أهمية بعض النباتات العراقية فى بعض الصناعات العسكرية، قال:

«و بارود المدافع هذا لا يصنع من ملح البارود مثلما يجرى ذلك عندنا فى أوروبا و إنما يستخرج من عصير شجرة من نوع الصفصاف يسميه الفرس (فير) بينما يدعوه العرب باسم «الغرب» كما أشرنا إلى ذلك قبلا. فهم يقطعون الأغصان الصغيرة من هذه الأشجار و أوراقها فيحرقونها و يحولونها إلى مسحوق يلقون به فى الماء إلى أن تنفصل ذرات الملح عنه و إذ ذاك يصنعون منه بارود المدافع، و مع ذلك فهذا البارود ليس قويّا كالذى نصنعه نحن فى بلادنا. و لقد أكد ذلك المؤرخ «بلينى» فى الفصل العاشر من الجزء الحادى و الثلاثين من كتابه إذ قال: «إن الناس فى الأيام السالفة كانوا يستخلصون «النيتر» من أشجار البلوط».

و قد وصف راوولف نبات الحنظل السام قائلا: كذلك شاهدت على ضفاف النهر العالية كثيرا من نبات (الحنظل) لم أستطع أن أتحقق منه عن بعد، إلّا أنه لا يزال حتى الآن معروفا لدى السكان باسمه العربى القديم و هو «الحنظل». و الحنظل أو الحدج أو مرارة

الصحارى أيضا- اسمه العلمى(Cucumis colocynthis, Citrullus Colocynthis) و الإنكليزى(Colocynth ,Bitter apple) نبات حولى من فصيلة القرعيات يمد و يسير فى الأرض عند نموه له أنواع كثيرة برية و زراعية. أزهارها صفر و ثمارها صغيرة الحجم و مختلفة الأشكال فمنها القرعى و البرتقالى و الإجاصى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵

و البطيخى. القشر رقيق جامد، لبها اسفنجى التركيب، أبيض اللون، شديد المرارة و الحرافة، و هو من أشد المسهلات القوية المفعول و هو كان و لا يزال من النباتات الطبية العامة. و أوضح راوولف عند مكوثه فى بغداد أنه وجد أن أهالى بغداد يستخرجون الزيوت من الجوز و لنستمع ما يقوله: «كذلك استقطرت الزيوت من الجوز، و هو نوع جيد و متوفر بكثرة، و من الفستق الذى يحتفظ به السكان و يأكلونه مثلما نأكل نحن الأنواع الصغيرة من الجوز فى بلادنا. و لقد تناولت هذا الفستق فوجدته جافّا غير مستساغ. و هذا النوع يسميه العرب باسم «بطم». و لقد شاهدت نوعين منه بحجم كبير و آخر صغير، و الكبير منه يشبه جوزة الفستق لكنه أقل استدارة و أقصر طولا. أما النوع الصغير فهو ذو قشرة صلبة تشبه حبة الحمص الكبيرة و هذه تماثل فى شكلها النبتة المعروفة باسم (قرن الغزال) أو الذرة الهندية. و ينمو الكثير من هذه فى ايجنيا و فى فارس و بلاد ما بين النهرين و أرمينيا و غيرها. فهى بأوراقها الطويلة تشبه تلك الأشجار حيث يمكن تمييزها بيسر عن شجرة الفستق ذات الأوراق المدورة، و هى من النوع الذى قال عنه كل من الرازى و ابن سينا إنه ينمو فى الهند».

و قد خلط راوولف بين أشجار الفستق و أشجار البطم حيث اعتبرها شجرة واحدة فى حين أن الفستق أشجار زراعية معمرة تعيش أكثر من ۳۰۰ سنة. و هى من فصيلة البطميات. أنواعها عديدة منبتها منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط من أشهرها الفستق الحلبى و التونسى و الإيرانى و الصقلى و المغربى و القبرصى، و هى أشجار جبلية تتحمل درجات البرودة العالية و تساقط الثلوج. و أشجار الفستق تصل فى الارتفاع إلى حوالى عشرة أمتار ثمارها زيتونية الشكل تتكون عند اكتمال نضجها من غلاف خارجى هش النسيج. و من غلاف داخلى خشبى المادة مؤلف من مصراعين ينشقان عن صلام أصفر اللون مأكول تلفه قشرة رقيقة لونها إلى الحمرة. الاسم العلمى للفستق(Pistacia vera) و الإنكليزى(Pistachio tree) .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۶

أما البطم (ضراوة) فهى شجيرة فرعاء تعلو من ۳- ۵ أمتار الثمر كروية الشكل. يستخرج من لحاء سوقها مادة راتنجية فواحة كثيرة الاستعمال، ثمرته تدعى (الحبة الخضراء). قال ابن سينا: «إنه يجلو الجرب و القوباء» و قال الأنطاكى: «أوراقها تسود الشعر طلاء. و الحب يسخن الصدر و المعدة و يقطع البلغم و يزيد القوة الجنسية و يسمن عن تجربة. و دهنه يحلل أوجاع العصب و حصر البول شربا و يصلحه العسل.

و شربته إلى عشرة». الاسم العلمى للبطم(Pistacia terebinthus P .cabulica) و الإنكليزى(Turpentine tree ,Terebinth tree) .

و البطم من فصيلة البطميات. و أشهر أنواعه البطم الأخضر، برزق (الاسم العلمى(Pistacia khinjuk و الإنكليزى(East Indian mastiche) و هذا النوع ينتشر فى الهند و مناطق الشرق الأوسط و من ضمنها العراق. و هناك نوع آخر المسمى بالبطم الشرقى أو بطم مستكى(Pistacia Ientiscus) و ثمرة الأخير أكبر من البطم الأخضر و هذا ما جعل راوولف يذكر هذين النوعين.

و ذكر راوولف نباتا آخر شاهده أثناء رحلته قادما إلى بغداد قال:

«لقد أشار «سرابيو» فى الفصل الخامس و العشرين من كتابه إلى ثمر آخر دعاه باسم «العنصل» و قد شاهدته أنا و هو بقدر جوزة الفستق لين القشر، و لم أعثر عليه لدى أصحاب الحوانيت فى هذه الأنحاء».

و العنصل الذى جاء فى وصف الدكتور راوولف هو إسقيل الخريف أو بصل الفأر أو بصل الحية، اسمه العلمى(Scilla

autumnalis) و الإنكليزى(Autum nal squill ,Winter hyacinth) . نباتات بصلية معمرة من فصيلة الزنبقيات. و الثمرة بصلة غليظة إجاصية الشكل، بيضاء اللون، أوراقها قرصية مستطيلة ضيقة شديدة الخضار لامعة المواج. أزهارها صغيرة لبدة وردية اللون. و هو طبى و يدخل فى تركيب عدة مستحضرات و عقاقير و هو يدر البول و ينعش الصدر. و ينتشر على سفوح التلال و المرتفعات فى المناطق الشرقية من العراق.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۷

و أطلق راوولف على شجرة مجهولة اسم شجرة الموز و قال: «و عن شجرة الموز التى تنمو فى الجزيرة العربية و تحمل ثمرا حلوا طيب المذاق يسمونه (واك-(Wac و هو مدور الشكل أحمر اللون بحجم البطيخ الهندى.

ترى هل كان هذا هو ثمر (المانغا) الذى أشار إليه كلوفيوس فى تاريخه عن النباتات الهندية، و الذى كان ينقل بسبب جودته إلى فارس بحرا؟ فقد تركت ذلك لألم به فيما بعد».

و الشجرة التى اعتبرها راوولف مرة موز و مرة أخرى مانغا (العنبة الهندية) هى فى الأحرى الخوخ البرى أو الإجاص البرى و هى شجيرات و جنبات حرجية زراعية من فصيلة الراتنجيات، أنواعه كثيرة. مواطنها البلاد الحارة. أوراقها صغيرة بارزة العروق. ثمارها مأكولة. الاسم العلمى(Spondias) و الإنكليزى(Spondias ,mombin ,Hog plum tree) و من أهم أنواعها خوخ البر الأحمر و خوخ البر الحلو و الخوخ الشائك.

و أضاف معقبا بهذا الوصف (أما الموز الذى قيل عنه إنه معروف فى سوريا أيضا، فهو شجر يحمل ثمرا صغير الحجم مقوسا و رقيقا أصفر اللون يشبه البطيخ فى شكله و هو حلو المذاق شهى الطعم، لكنه مضر بالصحة و لهذا السبب منع الإسكندر الكبير جنوده من تناوله». و أثناء توجهه إلى كركوك عن طريق نهر دجلة وصف راوولف بعض النباتات التى شاهدها قائلا: «و رحت فى أثناء مكوثى فى ذلك المكان أبحث عن النباتات فيه لكننى لم أعثر على شىء منها لأنها فى ذلك الوقت كانت قد بدأت تبرز من باطن الأرض. على أننى عثرت على أنواع من الخلنجان البرى ذى جذور كبيرة و مدورة يسميه السكان (السرو) و يطلق عليه اليونانيون و اللاتينيون اسم (سبيروس)».

و هنا وقع راوولف فى خطأ كبير عندما اعتبر الخلنجان البرى هو السرو. فى حين أن الخلنجان (الاسم العلمى(Erica و الإنكليزى(Heath ,

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۸ Heather)

.- شجيرات صغيرة برية و زراعية من فصيلة الخلنجيات أنواعه كثيرة تبلغ حوالى ۴۰۰ نوع- أوراقه هدبية الشكل قصيرة.

أما السر و (الاسم العلمى(Cupressus و الإنكليزى(Cypress tree) فهى أشجار حرجية كبيرة من فصيلة الصنوبريات لها أنواع عديدة أهمها ۱۵ نوعا. أوراقها دائمة الخضرة، أوراقها عروة، فلسية، متقابلة الثمار اكراز كروية الشكل. بزورها صغيرة مجنحة. و الجذور التى شاهدها راوولف هى حسب اعتقادى جذور أشجار السرو لأنها تتناسب و حجوم و ضخامة هذه الأشجار الخشبية التزينية.

و عند وصوله إلى مدينة الموصل وصف بعض الأنواع من الفاكهة، قال: «و لقد شاهدت نوعين من هذه الفواكه من جنس الجوز بأحجام كبيرة و صغيرة يسميه السكان باسم (البندق) كما شاهدت نوعا من البطيخ كبير الحجم بقدر قبضتى اليد كثير الانتشار هنا قيل لى عنه إنه يؤتى به من أرمينيا، و هو صلب أسمر اللون ليس حلو المذاق و هو كاليقطين و مع ذلك فهو حسن صالح للأكل و يحتوى على بذور صغيرة حمراء لا يشاهد المر، حين تناوله و هو يحل الجسم لكن ليس بالشكل المعروف عندنا من هذا الثمر.

و قد اعتاد السكان أن يتناولوه بكميات كبيرة عند الصباح مثلما يفعل ذلك سكان جبل لبنان بالنسبة إلى الجبنة. و لكن هل كان هذا هو (المن الحجازى) الذى أشار العرب إليه، أم هو النوع الذى أشار إليه (ابن سينا) فى الجزء الثانى، المقالة الثانية من الفصل الخامس و السبعين، فذلك أمر لم أتحقق منه».

لقد خلط راوولف فى وصفه هذا النوع بين فواكه المكسرات فهو يعتبر الجوز و البندق نوعا واحدا كبيرا صغيرا و لكن لكل من هذين النباتين مميزات خاصة به و يختلف بعضها عن بعض فى أمور علمية كثيرة.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۹

فالجوز أشجار كبيرة من فصيلة الجوزيات، اسمه العلمى(Juglans regia) و الإنكليزى(Wainut tree) . أنواعه كثيرة، تصل الأشجار إلى ۲۴ مترا ارتفاعا. ثماره لذيذة اللباب المستحب الطعم، قشورها الخشبية غليظة سميكة. ملساء البشرة، سريعة التفكيك و لون الثمر جوزية اللون، أول تكوين الثمرة تكون بجلد أخضر لين و شيئا فشيئا يصلب و ييبس فيتغير لونه. و ينتشر الجوز فى شمال قطرنا العراق و بالأخص المناطق المرتفعة.

أما البندق فهو أشجار و شجيرات برية و زراعية من فصيلة التبوليات السوموليات أنواعه قليلة. و النوع الذى شاهده راوولف فى مناطق الموصل و ما يحيط بها أو قريب منها هو البندق البرى، الاسم العلمى(Corylus Sytvestris) و الإنكليزى(Wild filbert) . تعلو هذه الأشجار إلى حوالى ۶- ۱۰ أمتار.

مواطنها تركية و منطقه البلقان و شمال العراق و شمال غربى إيران، ساقها ملساء. ثمارها صغيرة خملية القشرة مستطيلة الشكل.

و شاهد راوولف ما أسماه بطيخا أسود اللون و له بذور حمراء. و هو بالحقيقة الرقى كما يسمى فى العراق و سوريا نسبة إلى مدينة الرقة السورية. و فى بعض الأقطار العربية يسمى بطيخ أو بطيخ أحمر أو دلاع كما فى المغرب أو بطيخ هندى او فريز، اسمه العلمى (Citrullusvulgari s, Cucumis Citrullus, Cucurbita citrullus)

و الإنكليزى(Water -melon) .

و الرقى نبات عشبى حولى برى و زراعى من فصيلة القرعيات يزرع لثماره المأكولة. له أنواع عديدة منها الصغير و الكبير و بأشكال مختلفة و ألوان مميزة كالأخضر الباهت و المقلم بالأخضر الباهت و الغامق و الأخضر المسود.

و لون البذور و أشكالها مختلفة أيضا فمنها الأسود و الأصفر الباهت الأحمر. و من المعروف أن أحسن أنواع الرقى فى العراق ما يزرع فى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۰

محافظة نينوى بثماره و بزوره الحمر الكبيرة الحجم المرغوبة المأكل.

و الرقى من الثمار المنعشة التى تروى الغليل و تدر البول و تفيد المصابين بالإمساك و البواسير. و تبلغ نسبة الماء نحو ۹۱٪ فى الرقى و ۸٪ من المواد السكرية.

و هو ليس المن الحجازى أو أى نوع من أنواع المن الذى توهمه راوولف و تساءل عنه.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۱

بداية رحلة الدكتور ليونهارت راوولف

اشارة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۳

الفصل الأول مدينة طرابلس

ضواحيها الخصبة. عظم التجارة فيها. فخامة الحمامات و الأبنية المهمة الأخرى التى تشاهد هناهك شاهدنا على شاطىء البحر، قبل أن

نهبط طرابلس، خمس قلاع أشبه بالأبراج الشامخة تبلغ المسافة بين الواحدة و الأخرى مدى إطلاقة بندقية حيث يوجد بعض الجنود الإنكشاريين فى حامية هناك لمراقبة السفن فى الميناء (و كانت محاطة بالصخور إلى حد ما) و كذلك لغرض حماية دائرة الكمرك و جملة من المخازن (حيث يمكن رؤية كل أنواع السلع التى يؤتى بها من معظم أنحاء العالم) من أية محاولة أو هجوم معاد. على أنه ما أن غربت الشمس و بدأ الظلام يرخى سدوله حتى بذلنا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۴

كل ما استطعنا بذله للإسراع فى الوصول إلى المدينة التى كانت تبعد عنا مسيرة ساعة واحدة، و قد صحبنا بعض الجنود الأتراك المسلحين بنبابيت قوية حسنة الصنع قيل لى عنها إنها تستعمل بصفة عامة لمطاردة الذئاب التى يسمونها «بنات آوى» حيث يوجد عدد كبير منها فى هذه البلدان و تستخدم لتعقب الفرائس و مطاردتها و البحث عنها ليلا.

و فى الوقت الذى كنا نتحدث فيه عن هذه الحيوانات اقترب عدد منها قريبا منا لكنها ما إن رأتنا حتى استدارت و ولت هاربة، و حين بلغنا بوابة المدينة وجدناها مغلقة و إذ ذاك استدعى أحد أصدقائنا، و كان ينتظر قدومنا للترحيب بنا، بعض الفرنسيين الذين كانوا ينزلون فى نزل يسمونه «فندقا» بلغتهم، و هو يقع على مقربة من بوابة المدينة و يمتد إلى سورها تماما، و طلبت إلى واحد منهم بأن ينهض بأعباء الذهاب إلى آمر المدينة و يسأله أن يسمح بفتح البوابة و يدعنا ندخل منها، و ذاك أمر كان هؤلاء الفرنسيون جد راغبين فى حدوثه. على أنه فى الوقت الذى كنا واقفين فيه أمام البوابة، أسرع شخص آخر معاد لصديقنا ذاك فحرض بعض الأتراك و العرب بالإطباق علينا، و هذا ما كانوا يرغبون فيه، و عندئذ أقبل هؤلاء علينا مسرعين من بوابة أخرى قريبة من السور ليست مغلقة فهاجمونا و انهالوا علينا ضربا ثم أمسكوا بنا، و لا سيما بصديقنا الطيب الذى فعلوا كل ذلك بسببه، كما وجه آخرون منهم بنادقهم نحونا إلى درجة خيل لنا فيها أنهم سيقطعوننا إربا.

و فى الوقت الذى كان يجرى فيه كل هذا، فتحت البوابة و أقبل

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۵

علينا بعض الفرنسيين و معهم قنصلهم نفسه لمساعدتنا، فتحدثوا إلى أولئك الرجال، و حثوهم بلطف على إطلاق سراحنا، و أن تودع القضية إلى الآمر و القاضى للبت فيها، و هذا ما وافقوا عليه فى النهاية. و هكذا قدمنا بعد ذلك الاستقبال المعادى، إلى فندق الفرنسيين فبتنا الليلة فيه.

لقد كان موقف القنصل عظيما فى هذه الحادثة. ذلك لأنه اعتبر مثل هذه الإجراءات مسيئة جدّا إلى أبناء قومه، و لهذا تقدم بشكاوى و أجرى تحريات كثيرة إلى أن عثر فى الأخير على الشخص الذى سبب تلك الحادثة.

مضينا صباح اليوم التالى إلى منزل أصدقائنا للمكوث فيه فترة من الزمن معهم. و فى ذات الوقت بدأنا نتجول فى المدينة- و نحن نرتدى نفس ملابسنا الأوروبية- لمشاهدة ما فيها و هذه المدينة تقع فى سوريا المسماة «فينيقيا» التى تمتد أراضيها إلى شاطىء البحر بما فى ذلك بيروت، و صيدا، و صور، و عكا حتى جبل الكرمل.

و مدينة طرابلس واسعة نوعا ما، غاصة بالناس، و ذات ثراء حسن و ذلك بسبب وجود كميات كبيرة من السلع التى تجلب إليها كل يوم بطريق البر و البحر. كما أن المدينة تقع فى أرض منبسطة تجاور أحد سفوح جبال لبنان، يتصل بها سهل واسع يمتد إلى شاطىء البحر، حيث تستطيع أن تشاهد مزارع الكروم الوفيرة و البساتين الجميلة التى تحاط من كل أطرافها تقريبا بسياج، و هى تتألف فى الدرجة الأولى من أشجار الرمان و البرتقال و الليمون و التفاح و غيرها، كما توجد بعض أشجار النخيل و تكون هذه واطئة و هى تنمو و تتكاثر بنفسها. و حين دخلنا هذه البساتين وجدنا فيها كل أنواع الأشجار و مختلف الأزهار، فضلا عن أشجار الزيتون و اللوز و الجوز و ما شاكلها.

أما عند شاطىء البحر و على مقربة من مدينة طرابلس القديمة (التى دمرتها الزلازل مع مدن أنطاكية و غيرها سنة ۱۱۸۳ م، و لم تبق

منها سوى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۶

آثار قليلة) فلا يوجد شيء سوى ينابيع تسقى البساتين، و ذلك ما كان بعض التجار فى المدينة يتذكرونه. غير أن هذه البساتين قد طغت عليها مياه البحر فأتلفتها و غطتها بالرمال، فلا ترى الآن فى مواضعها سوى أراض رملية أشبه بالصحارى العربية. و مع ذلك فأهل طرابلس لا- يحتاجون إلى المياه بسبب وجود عدد من الأنهار التى تنحدر مياهها من الجبال، و تجرى بعض هذه الأنهار عبر المدينة بينما تروى الأخرى الحقول و البساتين، و على هذا فأهل طرابلس ليسوا فى حاجة إلى الماء سواء لاستعماله فى منازلهم أو لإرواء بساتينهم و حدائقهم.

أما المدينة الجديدة فهى غير محصنة تحصينا قويّا ذلك لأن الأسوار التى تحيط بها ضعيفة، و أن فى مستطاع أى امرىء أن يدخل المدينة و يخرج منها، أثناء الليل، من أماكن عديدة. على أنه توجد داخل المدينة قلعة تقبع على مرتفع قريب من الساحل و تقيم فيها حامية قليلة من الجند الإنكشاريين. و يعيش أهل المدينة فى منازل واطئة واهنة البناء ذات سطوح منبسطة على غرار ما هو شائع منها فى الشرق، ذلك لأن القوم هناك يجعلون سطوح منازلهم مستوية بحيث تستطيع أن تمشى فوقها على امتداد المنزل كله، كما يستطيع أصحاب المنازل المجاورة أن يسيروا على سطوح منازلهم لزيارة جيرانهم، فضلا عن أنهم ينامون فوق هذه السطوح أيام الصيف أحيانا. و على هذا فإن من المصيب حقا، ما قرأناه فى إنجيل مرقس (الفصل الثانى) و إنجيل لوقا (الفصل الخامس) عن الرجال الأربعة الذين حملوا الرجل الأعمى إلى المسيح، فلما لم يستطيعوا الوصول إليه، بسبب شدة الزحام، نقلوه من فوق سطوح المنازل، ثم أنزلوه إلى أرضية الغرفة التى كان فيها السيد المسيح.

و ليست لهذه المنازل أبواب أو مداخل كبيرة من الشارع مثلما هو عليه الأمر فى بلادنا الأوروبية (عدا منازل قلة من التجار) ذلك لأنهم لا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۷

يستعملون عربات الركوب أو الأثقال، و إنما يقتصر كل بيت على باب صغيرة واطئة لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أقدام أحيانا. و على هذا فليس فى مستطاعك أن تدخل مثل هذه البيوت دون أن تحنى رأسك. و فى كثير من البيوت الواسعة تكون هذه المداخل مظلمة إلى درجة يخيل فيها للمرء أنه داخل إلى كهف أو زنزانة. و لكن حين تمشى فى هذا المدخل إلى البيت تجد فيه باحات واسعة يغتسل فيها أهل البيت، كما تجد صالات كبيرة مبلطة بالإضافة إلى السلالم التى ترتفع بمقدار درجتين أو ثلاث، و هى مبلطة تبليطا حسنا و متينا بالرخام الذى يحافظون على نظافته و يغطونه بالسجاد الذى يجلسون عليه. و يقوم فوق هذه السلالم طاق يظل مفتوحا من جانب واحد حيث يجلس الأتراك تحته لينتعشوا بالهواء البارد، و هذا ما يحدث أيام الصيف بصفة رئيسية.

و تغلق أبواب المنازل عادة بمغاليق مصنوعة من الخشب مجوفة من الداخل، يغلقونها بمفاتيح خشبية أيضا يبلغ طولها طول الكف. و تدق فى هذه المفاتيح خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية أو تسعة مسامير أو أسلاك قوية على انتظام و تناسق فى مسافات محدودة بحيث تتلاءم هذه مع المسامير الأخرى المثبتة داخل القفل فيدفعون بهذه المفاتيح إلى أمام أو يغلقونها من الخلف حسبما يشاؤون.

و شوارع المدينة ضيقة لكنها مبلطة بأحجار كبيرة و تقوم فى وسطها قنوات يبلغ عرض الواحدة منها عشر بوصات و هكذا يستطيع البعير الموسق بالأحمال أن يسير فيها بأمان، كما يستطيع المرء أن يخطو من فوقها أيضا. و يقول أهل المدينة إن هذه القنوات قد صنعت على هذه الشاكلة لكى ترغم الإبل و الحمير و غيرها من الدواب الأخرى التى تصل المدينة فى قوافل كبيرة كل يوم، على السير فيها واحدا إثر الآخر و بانتظام، فى حين يستطيع الناس أن يسيروا فى الشوارع دون أن تعيقهم تلك الدواب.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۸

و كثيرا ما تكون هذه القنوات نظيفة و جافة و ذلك لوجود مجار خفية مغطاة بأحجار واسعة. هذا بالإضافة إلى أن مياه الأمطار و

كذلك مياه الآبار تنساب فى هذه القنوات.

و ليس لدى سكان طرابلس من الأبنية الجميلة القائمة ما يفاخرون به سوى المساجد التى لا يسمح لغير المسلم بالدخول إليها إلا إذا فكر فى أن يتخلى عن دينه.

و هناك بعض المساكن الواسعة التى يسميها المواطنون المحليون «كروان صارى» و هذه توجد فيها حوانيت أو مخازن كبيرة و عديدة، تجاورها غرف منظمة فى حين تقوم فى الوسط باحة واسعة، و يستطيع التجار الأجانب الذين يجلبون بضائعهم فى قوافل كل يوم أن ينزلوا فى هذه المساكن على اعتبار أن الأتراك لا يملكون فنادق أخرى غيرها.

و كل هذه المساكن أو الفنادق ملك خاص للسلطان أو للباشا الذى يتبعه، و هى موجودة فى عدد من المدن، و يحصل القوم من ورائها على إيرادات سنوية مثلما يفعل ذلك البنادقة فى مدينة البندقية خارج البيت الألمانى منها.

و ما خلا هذه المبانى هناك الحمامات الفخمة التى تفوق المبانى الأخرى بجمالها و تستحق المشاهدة فعلا.

و لما كان الأتراك و المسلمون و العرب و غيرهم ملزمين، حسب الشريعة الإسلامية، بالوضوء دوما لتنقية أنفسهم مما يقترفونه من الذنوب اليومية ، بل بالأحرى للذهاب إلى المسجد، فإنهم لذلك يحتفظون

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۳۹

بهذه الحمامات أو البيوت الساخنة التى تظل دافئة و فى درجة معتدلة من الحرارة و التى لا يستوفى عنها سوى رسوم بسيطة و لا تحتاج إلا إلى أقل ما يتصوره الإنسان من الوقود و تكون جاهزة للاستعمال ليل نهار.

فى هذه الحمامات أقباء كبيرة و عميقة تحت الأرض أشبه بالزنزانات الكبيرة يلتصق الواحد منها بالآخر و ليس فيه سوى كوتين أحدهما فى أعلاه لا يزيد قطرها عن ثلاث أو أربع بوصات، و الثانية تحتها أكثر منها سعة، يودعون فيها الحطب أو بعر الإبل أو ثفالة العنب المعصور، و تكون هذه المواد جافة و تبعث حرارة شديدة كالحرارة التى يبعثها الفحم البحرى أو الطحلب الذى يستعمله سكان البلاد الواطئة أو الأقطار الأخرى التى لا تتوفر فيها كميات كافية من الأخشاب. و عند إشعال هذه المواد تبعث حرارة قوية داخل القبو كله. و مع ذلك يكون هذا القبو مغلقا لا نرى أثرا للدخان أو البخار فيه، و لو أنه فى بعض الأحيان يكون شديد الحرارة. و لا تخمد النار فى هذه الحمامات لأن هناك من يعنى بها و يوفر لها الوقود اللازم بصفة متواصلة. و لكل حمام من هذه الحمامات التى شيدت بفخامة طبقا لعادات الإغريق و الرومان، صالة جميلة على مقربة من مدخله مبلطة تبليطا عجيبا مثل بقية أرض الحمام ذاته و تكون مكفتة بالرخام المنقوش بمختلف الألوان نقشا فنيا بديعا و فى أعلاها قبة يغطيها طاق فى شكل كرة.

و تقوم حول جدران الحمام مقاعد يخلع الناس عليها ملابسهم و هذا هو القسم الأول من الحمام. (و كان القدماء يستعملون خمسة من هذه

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۰

المقاعد يسمونها منزع الحمام). و تشاهد فى وسط الحمام نافورات بديعة تتدفق مياهها باستمرار و يستطيع كل فرد يخرج من الحمام أن يتناول منها المياه العذبة و أن يغسل المآزر التى استعملها أثناء الاغتسال فى الحمام.

و تصف هذه المآزر على شكل صفوف معلقة على القبو و على ارتفاع قامتين أو ثلاث قامات و بانتظام يثير الإعجاب، و ذلك أنهم يعلقونها هناك بعصى طويلة كيما تجف و تصبح مستوية و كأنها قد بسطت و سويت باليد و ذلك عمل يستحق الإعجاب، إذا إنهم يستأنفون استعمالها مرة أخرى و لهذا ينزلونها من أماكنها بذات العصى التى رفعوها بها ثم يجمعونها على مقربة من النافورة.

و هذه المآزر ذات ألوان متباينة، و تعطى قطعتان منها لكل مستحم يدخل إلى الحمام و اثنتان أخريان حين يخرج منه، واحدة يلف بها رأسه و الثانية يأتزر بها.

و حين تتوجه إلى مكان الاغتسال لا بد لك أن تمر بغرفتين أو ثلاث غرف كل واحدة منها أكثر دفئا من الأخرى، و يعلو كل واحدة

رواق مدور إلى أن تبلغ الغرفة الكبيرة، و تكون هذه الأروقة ذات فتحات متقاربة منتظمة مغطاة بالزجاج العجيب الذى يجعلها مضيئة و يضفى عليها زخرفة جميلة أيضا.

و فى هذه الغرف جملة من الأوانى المصنوعة من المرمر يوضع فيها الماء و تنتشر حول أركان الغرفة الكبرى. و هناك ثلاث أو أربع غرف صغرى تحتجز لبعض القوم الذين يفضلون الاغتسال فى معزل عن بقية الآخرين و من دون أدنى مضايقة، و ما خلا ذلك توجد غرفة أخرى يقوم فى وسطها خزان كبير من المرمر يستطيع المرء أن يغتسل فيه إذا ما أصابه العرق، و فى هذا الخزان عدد من الحنفيات تستطيع أن تحصل بواسطتها على الكمية التى تحتاج إليها من الماء من ذلك الخزان.

و يجرى تسخين كل هذه الغرف بذات الحرارة. و يقبل الأتراك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۱

و المسلمون، و هم من أمتين لهما ذات العقيدة الدينية و العادات ، على الاستحمام فى هذه الحمامات و دخولها صراحة. أما النساء فإنهن يفدن بأعداد كبيرة إلى هذه المحلات الفخمة و لا يجتمعن فى أى مكان آخر عدا قبور موتاهن، و أمثال هذه الأماكن لا يمكن العثور عليه بحالة جيدة.

حين تدخل إلى الحمام يتلقاك أحد الخدم و هم من الزنوج المسلمين عادة فيطرحك على الأرض و يبدأ بدلك كل مفاصلك، و بعد أن ينتهى من ذلك يفركها ثانية، ثم يطوى ذراعيك و يضعها الواحد فوق الآخر على صدرك و يشدهما بقوة لبعض الوقت تحت ركبتيه و من ثم يثنيهما و يمدهما بحيث تبدو و كأنك أسير بين يديه بينما يظل رأسك منتصبا.

و قد حدث ذات مرة أن ذهبنا إلى الحمام و تولى أحد الخدم تدليك مفاصلنا فضغط أثناء ذلك على رقبة أحد رفاقى فظل ذلك الرفيق لا يستطيع حراك رقبته لعدة أيام.

بعد أن ينتهى الخادم من هذه العملية يقلبك على بطنك و يروح يدلك أعضاء جسمك ثانية فيدوس كتفيك بقدميه و يفرك ظهرك بيديه و من ثم يترككك و يخرج من الحمام.

و حينما تضطجع لتستريح أو لتعرق جسمك يأتيك الخادم بمادة يقتلع بها الشعر فى جسمك، ذلك أن القوم لا يتركون أى نوع من الشعر فوق أجسامهم. و تتألف هذه المادة من الجير و الزرنيخ على شكل مسحوق يواف بالماء، يغطى به شعرك و يترك هنيهة إلى أن يجد الخادم بأن الشعر قد أخذ يتساقط و إذ ذاك يغسل مكانه بالماء غسلا جيدا قبل أن تشعر بحرقته، و عندئذ يأتيك بمئزر من القماش الأبيض النظيف و يلف به بدنك.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۲

أما المآزر التى سبقت الإشارة عنها فتكون بيضاء أشبه بالمنسوجات القطنية لكن خيوطها أشد و أصلب، و تلك يجلبها الحجاج معهم من «مكة» و هى تصنع من ألياف نوع من الشجر.

و أخيرا يغسل الخدم رؤوس المستحمين، و يستعملون فى ذلك أحيانا، و لا سيما بالنسبة للنساء، راسبا يشبه الرماد يغسل به الرأس لأنه ينظف الشعر و يطيله. و هناك نوع من راسب آخر تأكله النساء علانية مثلما اعتادت النساء فى بلادنا الأوروبية أن يأكلن الفحم و بعض المواد الأخرى أحيانا.

و تكون هذه الحمامات مباحة لدخول الأجانب إليها من أمثال الألمان و الفرنسيين و الإيرانيين و غيرهم، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى الأتراك و المسلمين، و لكن ينبغى على هؤلاء أن لا يأتوا إلى هذه الحمامات فى الأوقات التى تكون فيها النساء موجودة هناك، و إلا عرضوا حياتهم للخطر.

على أن فى مقدورك أن تميز الحمامات التى تستحم النساء فيها، إذ المعتاد أن توضع ستارة على باب الحمام المواجه للشارع. فإذا ما رأى الرجل الذى يريد الدخول إلى الحمام تلك الستارة دلف إلى باب آخر غيره.

و عن الحركة فى المدينة، فإنه بالنظر إلى وفرة مختلف أنواع السلع التى تجلب إليها من أماكن قاصية جدّا، يشاهد عدد كبير من التجار فيها معظمهم من الفرنسيين و الإيطاليين لهم رئيسان حكيمان فاهمان و مدربان يعيش أحدهما، و هو فرنسى، هنا فى طرابلس بينما يعيش الآخر، و هو بندقى، فى حلب، و يطلق على هذين اسم قناصل، و ذلك لمساعدة أبناء وطنهم و تقديم الاستشارات المفيدة لهم. و لقد أرسل هذان القنصلان من قبل حكومتيها فاستقرا هنا و أصبحا يتمتعان بامتيازات كبيرة منحها لهما السلطان التركى كيما يستطيع التجار أن يحملوا بضائعهم معهم و أن يدافعا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۳

عنهم ضد أى أذى يتعرضون له من الأتراك و المسلمين، و ممارسة المتاجرة و التعامل مع الآخرين دون أدنى مضايقة.

و ما يزال هؤلاء القناصل يرتدون نفس ملابسهم الوطنية المصنوعة غالبا من الستن الأحمر أو البنفسجى أو الحرير الدمشقى و غيره، و هم يتمتعون بالاحترام الفائق و يجلبون معهم من بلادهم الخياطين و صانعى الأحذية، لكن الأشخاص الرئيسين الذين يأتون بهم، يتألفون من الأطباء و الصيادلة و الجراحين و الإداريين، و فضلا عن ذلك فإنهم يحتفظون بمترجميهم الحاذقين فى اللغتين التركية و العربية، و أخص بالذكر منهم، القنصل البندقى الذى أمضى هناك ما لا يقل عن ثلاث سنوات، و عند ما انتهت مهمته بعث دوق البندقية بقنصل آخر مكانه، و عند ما يصل هذا القنصل الجديد إلى طرابلس لا يجرأ على النزول إلى الشاطىء قبل أن يستقبله القنصل السابق على ظهر السفينة التى أقبل عليها.

و قد خصصت لهذين القنصلين بنايتان كبيرتان يسمون الواحدة منهما فندقا، و هما تقعان على مقربة من بوابتى المدينة اللتين تؤديان إلى المرفأ و إلى شاطىء البحر، و ذلك لكى يسهل عليهما إرسال سلعهما من هناك إلى داخل المدينة و خارجها.

و على طول النهار و عرضه يرى المسلمون بأعداد كبيرة و هم ينتظرون مع حميرهم فرصة نقل التجار و الملاحين مع سلعهم إلى المدينة و منها. و هناك بيتان كبيران فيهما عدد كبير من الأروقة و الغرف يتوفر فيهما السكن للتجار و خزن بضائعهم فيهما.

و يقيم مع الفرنسيين أناس من «جنوا» و فلورنس و سانت لوك و غيرها، و من الألمان و الهولنديين و سواهم، فى حين يعيش مع البنادقة أناس من «كاندیا» و «كورفو» و غيرهما.

و ليس لأى من هذه الفنادق أكثر من باب كبيرة واحدة يحرسها

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۴

الجنود الانكشاريون و حين يدخل أسيادهم القناصل إلى هذه الفنادق يصحبهم فى ذلك عدد من التجار و الخدم. و يتمتع هؤلاء القناصل بنفوذ كبير لدى الأتراك و المسلمين، بل إن سلطتهم تتجاوز سلطة الباشا نفسه.

فتراهم على الدوام يسيرون و يتقدمهم جنودهم بأعداد كبيرة و هم يحملون الهراوات الطويلة يضربون بها المارة لإخلاء الطريق حتى و إن كان أولئك المارة من الأتراك أنفسهم.

و يدخل التجار يوميّا فى مفاوضات مع اليهود الذين يعرفون عدة لغات، و يعلمون بالأسعار التى تباع بها السلع و تشترى. و لذلك ترى هؤلاء اليهود يساعدون فى عقد صفقات بيع السلع، و فى دفع النقود، و تنظيم قوائم التحويل النقدى التى يحتفظون بجداولها.

و لقد رأيت بصفة رئيسة ثلاثة أنواع من النقود الفضية هى «الأسبر» و المعدنى، و السيجست . و هذه النقود جيدة و هى سارية المفعول فى كل أنحاء تركيا. و حين يتم دفع مبالغ كبيرة منها لا يجرى عدها كلها تماما و إنما يعد جزء منها يتم وزنه، و من ثم تقاس بقية النقود على أساس ذلك الوزن. أما عن النقود الذهبية فليس لديهم سوى «الدوكات» التى تصنع من الذهب الخالص و تكون نادرة جدّا. و ما خلا ذلك يصعب رؤية أى من العملات الأخرى.

على أن هناك المزيد من الدوكات البندقية «التستون» و «الجواشيم» و «التالر» الفرنسية. و هم لا يدفعون مع هذه العملات

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۵

قوائم الصرف و المبالغ الكبيرة حسب، بل و يحولونها إلى عملاتهم الخاصة، و لذلك يتوفر عدد كبير من اليهود فى كل أنحاء تركيا و فى كل مدينة تجارية، و بصفة خاصة فى مدينة حلب و فى طرابلس هذه التى أنشأوا لهم فيها عمارة واسعة و بيعة فاخرة.

و يمسك هؤلاء اليهود بزمام إيرادات الكمارك التى يستوفيها السلطان التركى، و لذلك فليس مستطاعا إرسال بضاعة ما إلى تركيا أو خروجها منها دون أن تكون تحت متناولهم، و ذلك أمر يسبب القلق الشديد لجميع التجار، إذ إن على هؤلاء إن هم أرادوا شراء حاجة من اليهود، أن يكونوا فى منتهى الحذر من أن يغشوا لأن اليهودى ملىء بالغش، كما يعترفون هم أنفسهم بأن أحدا لا يستطيع الحصول على أى شىء منهم إلا إذا كان أكثر منهم خداعا، كيما يجرأ على أن يقايض معهم سلعة بأخرى.

و بالنسبة إلى البضائع يشاهد المرء عدة أنواع منها فى الخانات كما أشرت إلى ذلك قبلا. غير أن الجزء الرئيس من البضائع يتوفر فى الأسواق أو فى البيوت التى تتعامل بالبيع و الشراء، أو فى محلات المقايضة. و هذه المحلات طويلة و واسعة يكون البعض منها على شكل أروقة، و البعض الآخر مسقف بالأخشاب بحيث تستطيع أن تتمشى و تساوم و تشترى دون أن تبتل بماء المطر. كذلك تقوم على جانبى محلات المقايضة هذه حوانيت إضافة إلى أصحاب الحرف و الصناعات و صانعى الأحذية و الخياطين و السراجين و مطرزى الحرير و الخراطين و صانعى السكاكين و النساجين و العطارين و بائعى الفواكه و صانعى الأدوات النحاسية و أدوات الطبخ و كثيرين غيرهم ممن تراهم موزعين فى شوارع المدينة و محلاتها.

و يبعث التجار بكميات كبيرة من الحرير إذ إن هناك عدد و فير منهم لا يتعاملون بأية بضاعة سوى الحرير الذى يؤتى به من المناطق المجاورة من أمثال لبنان التى يسكنها أناس كثيرون يمارسون صنع الحرير و غزله،

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۶

أو من دمشق بالدرجة الأولى حيث تتوفر فيها كميات كبيرة من الحرير مما يستطيع التاجر أن يشتريه بسرعة و بكميات تقدر بعدة آلاف من الدوكات، و ذلك بالنظر إلى وجود كثرة فائقة من أشجار «التوت» الضخمة الشامخة ذات الأوراق الكثيرة التى تتغذى عليها دودة القز. علما أن ثمار التوت هذه تكون بيضاء اللون و تنقل فى سلال و تباع لعامة الناس.

و هكذا تجد فى الأسواق عددا كبيرا من صانعى الحرير الذين يصنعون مختلف المطرزات الحريرية بألوان متباينة و هم يمارسون أعمالهم هذه أمام حوانيتهم حيث تجد الواحد منهم، حين يريد برم خيوط الحرير، يمسك بخيطين يربط أحدهما بإحدى قدميه ثم يبدأ يبرمه و هكذا، و مثل هذا يفعل الخراطون أيضا الذين يمسكون بالحديد الذى يريدون خرطه بين أقدامهم و أيديهم.

و فى أوقات محدودة من السنة تجلب إلى هذه الأسواق من دمشق و غيرها من الأماكن القريبة منها كميات وفيرة من الزبيب الطيب المذاق الذى لا توجد فيه سوى حبة واحدة، حيث يتم شحن عدة سفن بهذا الزبيب من هناك إلى بلادنا الأوروبية. فهذه السلع و أمثالها يؤتى بها يوميّا إلى الأسواق التى تستقبلها، و كذلك السجاد النادر و الحرائر الغالية المطرزة بأشكال الورود و الأزهار من مختلف الألوان و التى يبدو البعض منها و كأنه من الذهب الخالص.

على أن كثرة التجار الذين يتعاملون بالصابون و القلى تفوق سواهم من التجار الآخرين و لذلك ترى عدة سفن توسق بالبوتاس و الصابون و ترسل كل سنة من هناك إلى البندقية إذ إن مادة البوتاس تستخدم فى صناعة الزجاج مثلما هو الأمر فى صناعة الصابون.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۷

و يستخرج هذا البوتاس أو القلى من أعشاب يطلق عليها العرب اسم «شنان» و هو على نوعين (و قد ألصقت شيئا منه- مع مواد أخرى- على الورق). و أحد هذين النوعين لا- يختلف عن نبات القلى المعروف عندنا إذ يتألف من نبتة سميكة كثيرة العقد ذات أغصان صغيرة تتفرع منها و لها فى رؤوسها عدة عقد و من تحتها أوراق مدببة. أما النوع الثانى فتكون سيقانه كثيرة مليئة بالعقد و جذوره ملونة.

و ينمو هذان النوعان من الأعشاب بكميات هائلة حيث يتم حرقها و تحويلها إلى رماد فوق الجبال. و عند حرقها تسيل منها مادة زيتية

تلتصق بالرماد فتصبح صلبة أشبه بالحجارة بعد أن تفقد حرارتها.

و يجلب المسلمون هذا الرماد من الجبال على ظهور الإبل فيبيعونه لبعض التجار الذين يتاجرون به فيصدرون قسما منه إلى البلاد الأجنبية بينما يصنعون من القسم الآخر مادة الصابون طبقا للكمية المتوفرة لديهم و حاجتهم إليها.

و لقد شرحوا لى الطريقة التى يصنعون بها الصابون فى سوريا. ذلك أنهم يأخذون ألفا و مائتى وزن (أو اثنتى عشرة مائة) من هذا الرماد فيقسمونه فى فصل الشتاء إلى أربعة أقسام و فى فصل الصيف إلى ثمانية أقسام ذلك لأن الصابون سرعان ما يتجمد أيام الشتاء لأن الحرارة تتأثر بالبرودة الخارجية أكثر من الصيف. يؤخذ القسم الأول من هذه الأقسام فى شكل طبقة رقيقة تصب فى وعاء أو فى قدر كبير مصنوع من الحجر، و يكون قعره مصنوعا من صفيحة نحاسية سميكة جدّا بعد أن يكونوا قد وضعوا فيه مسبقا ألفا و ستمائة وزن من الزيت أو الشحم ثم يتركونه يتجمد لمدة أربع و عشرين ساعة و بعد ذلك يضيفون إليه كل يوم طبقة أخرى من قسم آخر. و لكن قبل أن يتجمد الصابون (و هو يحتاج فى ذلك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۸

إلى خمسة أيام فى الشتاء و إلى تسعة أو عشرة أيام فى الصيف) يأخذون مائة وزن من الجير فيمزجونه مع الرماد ثم يسحبون من هذا المزيج طبقة يتركونها مدة يومين قبل أن يضعوها فى القدر و ذلك بكميات تزيد أو تنقص تبعا لسمك الطبقة ورقتها.

و لكن إذا حدث و تكونت كمية كبيرة فى القدر فإنهم إذ ذاك يرفعون صفيحة النحاس من القدر فلا تبقى فيه سوى الكمية المناسبة من المزيج و بعد أن يتجمد يخرجونه منه، و يوضع فى صحن من النحاس يتسع لثمانية أو عشرة باوندات، الصابون الذى يطفو على سطح المزيج و يسكبونه على الأرض ثم يغطونه بالجير أو الطباشير و يتركونه على هذه الشاكلة مدة يوم واحد فى الشتاء و يومين فى الصيف كيما يتصلب إلى درجة أنهم يستطيعون السير فوقه، و عندئذ يصقلونه و يقطعونه إلى قطع صغيرة و يبصمون علاماتهم عليها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۴۹

الفصل الثانى ظأفراد الطبقة العليا من رجال الأتراك و نسائهم، أعمالهم و دوائرهم، عاداتهم و تقاليدهم و ملابسهم

تعد مدينة طرابلس أكبر بكثير من بقية المدن و الولايات القريبة منها و التى تخضع للسلطان التركى الذى يحتفظ بضباط له فى كل الأماكن الأخرى و هم يحكمون تلك البلاد طبقا لرغائبه، و يحمونها من كل الأضرار و الأخطار.

و يطلق على هؤلاء الرؤساء اسم لواء أو باشا و هم يعتبرون حكام الدولة و الممسكين بزمامها، إذ إن تحت إمرتهم عدد من الفرسان، يزيد أو يقل تبعا لإيرادات الولايات التى يلتزمون بإدارتها. و هؤلاء الباشوات من العسكريين الشجعان المدربين الذين يقودون رجالهم عدة مرات فى الأسبوع لتدريبهم، راكبين أو مترجلين، على استعمال السهام و النشاشيب و تسجل لهم علاماتهم بالقفز من فوق صوارى عالية و بإطلاق السهام أثناء ركضهم، على استعداد لدخول الميدان فى الحال و محاربة الأعداء.

و يعمل تحت إمرة هؤلاء الألوية عدد آخر من الضباط و الآمرين. و يكون الصوباشيون و القضاة هم المبرزون بين هؤلاء الموظفين و هم يعينون من قبل الباشا فى الأماكن القريبة كى ييسروا له عمله فى المحلات التى لا يستطيع المكوث فيها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۰

و يستدعى لإدارة مثل هذه الأماكن مواطنون من سكنتها لا يمكثون فيها أكثر من نصف سنة، و هم يبتون فى كل المسائل الإجرامية، و لديهم سلطة تعذيب المجرمين لإرغامهم على الاعتراف بجرائمهم، كما أنهم يصحبون المجرمين الذين يحكم عليهم بالسجن أو الموت إلى الأماكن التى يتم فيها تنفيذ مثل هذه العقوبات.

و غالبا ما كنت أرى أولئك الجنود راكبين. و فى إحدى المرات شاهدتهم يصحبون مجرما حكم عليه بالموت و قد أركبوه على ظهر بعير، و أوثقوا ذراعيه و ساروا به إلى ساحة الإعدام بعد أن وضعوا بين صدره و كتفيه مصباحين متقدين مزودين بالشحم فكان الدهن

المتقطر من الشحم يسيل على جسده فيحرقه بشدة.

و ينفذ الأتراك عددا من العقوبات لجملة من الجرائم التى تقترف أعداد كبيرة منها، و منها معاقبة اللصوص و القتلة و قطاع الطرق و المغتصبين و ما شاكلهم. و كذلك يستخدم الأتراك عددا كبيرا من الضباط و الموظفين يبعثون بهم إلى مختلف الأصقاع لمطاردة الذين يشتبه بهم لخروجهم على القوانين و إلقاء القبض عليهم، و ضربهم و إصابتهم بجروح.

أما بالنسبة إلى الاعتداءات و المخالفات الأخرى فإن الأتراك يحاكمون أمام حاكم يسمونه «قاضيا» و هو من الملمين بالقوانين و ممارسة المحاكمة و إصدار الأحكام بعد الاستماع إلى الشهادات و تمحيصها.

فإذا كان الحكم عن دين أودع المدين السجن فى الحال إلى أن يسدد الدين الذى بذمته، أو أن يجد وسيلة أخرى يضمن بها تسديد دينه، و إن كان الحكم عن مخالفة للقانون حكم عليه بالغرامة أو الجلد.

و يعمل تحت إمرة القاضى عدد من الأتباع و الجواسيس الذين يبعث بهم يوميّا للتجسس على من يخرقون القوانين، من أمثال أولئك الذين

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۱

يتناولون المسكرات، أو يمتنعون عن أداء الصلاة أو الصوم، أو مخالفة القوانين الموضوعة بأية وسيلة أخرى. فإذا عثروا على واحد من هؤلاء جاؤوا به أمام القاضى الذى يفرض عليه العقوبة طبقا للذنب الذى اقترفه.

فإذا لم يستطع دفع الغرامة مثلا حكم عليه بالجلد عدة مرات على قفا قدميه، و إلا وجب عليه أن يدفع عن كل جلدة نصف «بنى» و نظرا لكثرة أمثال هؤلاء المخالفين الذين يؤتى بهم أمام القاضى كل يوم، و يحكم على القسم الأعظم منهم بالجلد، فقد كنا أثناء وجودنا فى الفندق الفرنسى، الذى يقع قبالة مقر القاضى، نسمع عويل أولئك التعساء و صراخهم.

و رغم انشغال القاضى بالبت فى هذه المخالفات فإن قضايا الزواج تأخذ جزءا كبيرا من وقته. ذلك لأن كل من يريد أن يتزوج عليه أن يقصد القاضى ليعقد له عقد زواجه المثبتة صورته فى كتاب بين يديه. و يعتمد عليه فى حالة وقوع خلاف بين الزوجين حيث يحق للأتراك و المسلمين أن يتزوجوا من عدة زوجات، و أن يطلقوهن لأدنى سبب . و يسلم القاضى المتزوجين نسخا من عقود الزواج التى تكتب لعامة الناس على ورق ناعم مستو. أما الأثرياء فتكتب عقود نكاحهم على قطعة من القماش الحريرى الأبيض يبلغ طولها زهاء ياردة. و لا تشتمل هذه العقود إلا على كلمات قليلة يكتبونها بأحرف قصيرة ذلك أن كل قطعة من هذه القطع لا تحتوى أكثر من ثمانية أو عشرة أسطر تفصل بين كل سطر و آخر مسافة بوصتين.

و لأداء هذه المهمة يحتفظ القاضى بجملة من الكتبة الذين غالبا ما يكتبون و هم يضعون أوراقهم على ركبهم بدلا من المناضد أو الموائد.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۲

و يلبس أمراء الألوية و الصوباشيون و القضاة الذين أشرت إليهم قبلا و كذلك زوجاتهم أغلى الملابس و أثمن أنواع الحرير المطرز بالورود و بمختلف الألوان. و غالبا ما تقدم إليهم هذه الملابس من الأناس الذين لهم معاملات عندهم، إذ إن هؤلاء الحكام لا يودون أن ينفقوا من نقودهم شيئا، و ذلك بقصد تأييد تلك المعاملات و نوال الحظوة بينهم. فهؤلاء الحكام شديد و الجشع، و إذا لم تقدم لهم العطايا لا يؤدون سوى القليل من الأعمال.

و لما كان الباشوات و أمراء الألوية الذين يديرون الممالك و الولايات تحت إمرة السلطان يدركون جيدا أن بقاءهم فى هذه الأماكن لا يزيد على ثلاث سنوات، و أن عليهم أن ينتقلوا منها إلى أماكن أخرى حالما يأمرهم السلطان بذلك، و قد تكون هذه على مسافات بعيدة جدّا، فإنهم لهذا السبب يتطلعون دوما إلى الثراء و الغنى فيحصلون على الهبات أو يرفعون من قبل البلاط إلى منصب أو وظيفة أعلى، و حتى إذا لم يحصلوا على هذا المنصب فإنهم يحققون لهم ثراء كبيرا نتيجة المنزلة الرفيعة التى أصابوها قبلا.

حين كنت فى طرابلس تولى أحد أمراء الألوية هذا المنصب الذى كان يشغله آمر لواء سابق له. و هكذا توجه اللواء الجديد إلى دائرته يحف به رجال حرسه، و استقبلته المدينة استقبالا فخما، و كان موكبه يتألف معظمه من الفرسان و حملة السهام و الرماح و التروس، بالإضافة إلى حملة الطبول و المزامير و غيرها و كانت هذه الرماح و الأسلحة متوجة ببعض المعادن الصقيلة البراقة، كما كانت ركاب سروجهم تلتمع من مسافات بعيدة.

و يود كل هؤلاء الموظفون أن يظهروا، عند أداء وظائفهم، بمظاهر العظمة و مع ذلك فكلهم عرضة للجشع (و هو أصل كل الشرور) و التطلع إلى الهبات و الرشاوى، و تلفيق التهم ضد الأبرياء فى سبيل الحصول على

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۳

الأموال. و على هذا فإن من اليسير جدّا على من يريد الانتقام من خصمه أن يثير له المتاعب و يلحق به الخسائر عن طريق تقديم الهبات إلى الموظفين، و لا يختلف أحد عن هذا فى شىء قط. فهم فى سبيل المال الحرام، لا يأنفون إطلاقا من معاقبة الأبرياء إذا ما كان هؤلاء من الأغنياء أو الغرباء، و لذلك فإن الموظفين الذين يعملون تحت إمرة الصوباشين فى مثل هذه الأمور حاذقون جدّا، إذ تراهم يتعقبون كل من يعارضهم أو لا ينساق إليهم.

و لما كانت مدة بقائهم فى مناصبهم قصيرة، فإن هؤلاء الصوباشين يبذلون قصارى جهودهم فى زيادة ثرائهم فى أسرع وقت مستطاع، و هم فى هذا لا يخشون أمراء الألوية و لا الباشوات لأن هؤلاء شركاء معهم فى هذه الغنائم و أنهم يتلقون أنصبتهم من هذه الغنائم كل أسبوع. و بعبارة موجزة إن فى مقدور أى فرد ارتكب جريمة ما أن ينجو من العقاب و يعود رجلا صالحا مثلما كان عليه قبلا إذا ما قدم الرشوة إلى هؤلاء الحاكمين.

و لكن هؤلاء الموظفين عرضة للمحاكمة، كما نصت القوانين على ذلك، أمام قضاة كبار يسمونهم «قضاة الشرع» و التعرض للعقوبة جزاء ابتزازهم الأموال. و يعتبر الأتراك هؤلاء القضاة بأنهم المعلمون الأساسيون للشريعة الإسلامية و هم يمتازون بالذكاء و المعرفة ولديهم سلطة محاكمة كل الموظفين و الضباط و لا- سيما القضاة، و الحكم عليهم، و الإفراج عنهم تبعا لمخالفتهم. و يتنقل قضاة الشرع من مدينة إلى أخرى للاطلاع على كيفية تطبيق العدالة من قبل القضاة و يخشى هؤلاء كثيرا مقدم قضاة الشرع إلى أماكن عملهم و إذا ما وجدوا أنفسهم مذنبين بارتكاب جريمة ما فإنهم يهربون من أماكن عملهم فى أغلب الأوقات.

و إذا ما شكا الناس أولئك القضاة عند قضاة الشرع عوقبوا بالجلد علانية، و نقلوا من أماكن عملهم. أما إذا كانت الجريمة جسيمة فإنهم يشنقون أو يحرقون و هذا ما يحدث غالبا فى هذه البلدان.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۴

أما إذا اعتدى القاضى على أحد الناس فإن المعتدى عليه لن ينتظر مقدم قضاة الشرع ليرفع إليهم شكواه، و إنما يسلك طريقة أخرى و ذلك بأن يعرض شكواه على الباب العالى أو إلى محكمة السلطان أو أن يذهب بنفسه إلى هناك ليقدم شكواه بصفة شخصية. و سرعان ما يسمع جواب شكواه تلك. فقد علمت أن مثل هذه القضايا ينظر فيها مرة كل أسبوعين.

و إذا كان أحد المشتكين فقيرا تقوم المحكمة بأوده إلى أن تنتهى قضيته.

و لقد وقعت مثل هذه الحادثة قبلا لمترجم القنصل البندقى الذى نجح فى شكواه ضد أحد الصوباشيين حين أراد هذا أن يسلبه، لكنه لم يستطع أن يثبت أية تهمة عليه تكون موجبة للعقاب، و إذ ذاك وجد الصوباشى طريقة لذلك بأن أمر أحد خدمه أن يخفى عاهرة فى بيت المترجم دون علم منه ليكون ذلك دليلا- كافيا لاتهامه. و نفذ الخادم تلك العملية فعلا، و هرع موظفو القاضى إلى البيت ففتشوه و عثروا على العاهرة فيه فألقى القبض على المترجم وزج به فى السجن دون أن يسمح له بالدفاع عن نفسه و تبرئته، و أنه كان يجهل تلك الواقعة جهلا تاما و لم يستطع أن يقنع القاضى ببراءته بكل الوسائل، و هكذا حكم عليه بأداء غرامة مقدارها تسعمائة دوكة أرغم على دفعها. و قد أثار هذا الأمر قلق المترجم لأنه لم يستطع دفع هذه العقوبة القاسية عنه. و لما كان رجلا مجربا و خبيرا

بالقوانين السارية المفعول فقد أعد له جوادا، دون علم من القاضى، و انطلق به إلى اسطنبول ليرفع شكواه بنفسه إلى محكمة السلطان و قد نجح فى ذلك و أعلنت براءته من التهمة التى أسندت إليه.

و لما كانت هذه المحكمة تعاقب بشدة من يقترفون الظلم، فإن ذلك القاضى لم ينج من العقاب، إذ لم يلبث السلطان أن أرسل بعد فترة قصيرة بأحد سيافيه و معه تذكرة قصيرة يطلب فيها إرسال رأس القاضى مع حامل تلك التذكرة. و قد فزع القاضى لذلك فزعا شديدا لكنه بعد أن استرحم زوجة رسول السلطان سلم نفسه إليه، و هذا هو السبب الذى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۵

يجعل الكثير من الخطط و المقاصد الشريرة- و لا سيما إذا استدعى أحدهم آخر للحضور أمام محكمة السلطان- يصيبها الفشل و يتم نقضها من المحكمة، و إلا أصبحت نافذة المفعول.

و حين يظهر إنسان ما أمام أحد الأتراك من ذوى المنزلة الرفيعة فإن عليه أن يكون حذرا فى ذلك و لا سيما حين يغادره بأن لا يدير له قفاه لأن ذلك يعتبر أعظم إهانة و تحقير، و هذا من الأمور الشائعة فى الممتلكات التركية.

و لكن إذا ما ظهر خادم أمام سيده يطلب عفوه عن ذنب ارتكبه فإنه يتبع فى ذلك أسلوبا خاصا إذ يقدم نفسه أول الأمر إلى سيده و يبدى له كل صنوف الاحترام التى تخطر على باله ثم يقبع على ركبتيه و يمسك بيدى سيده يقبلهما فإذا ما سمح له سيده بذلك انتعشت آماله فى أن سيده سيلبى له طلبه، أما إذا سحب سيده يديه و إن كان قد هم بإمساكها عدة مرات، أدرك تماما أن سيده ما يزال غاضبا عليه و ليس هناك سوى أمل ضئيل فى العفو عنه.

و يود الأتراك أن يعاملوا بقدر كبير من الاحترام و التبجيل فهم يعرفون أن سلطة أسيادهم السلاطين كانت خلال الأزمنة الماضية تتعاظم بدلا من أن تنقص، و لذلك تراهم يعتنون بأنفسهم فيرتدون دوما أغلى الملابس، و يمتطون أحسن الجياد المطهمة بأفخر السروج المطرزة المصنوعة من أجود أنواع الحرير ذى الألوان الحمراء و البنفسجية، و اللجم و الركائب المصنوعة من الذهب و الفضة.

و اللغة التركية هى اللغة التى يتحدثون بها عادة، و هى نفسها التى يتحدث بها جند الحاميات. و ينطقون بهذه اللغة بعظمة و فخامة و يكون نطقهم بها أشبه بنطق لساننا الألمانى. على أنهم فى الوقت ذاته يحذقون اللغة العربية بصفة عامة و هى اللغة السائدة فى هذا البلد كله و فى بلاد

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۶

أخرى جديدة حيث تجد العرب و السريان و اليعاقبة و غيرهم يتحدثون بهذه اللغة أيضا.

و للأتراك عادات و تقاليد حسنة يتمسكون بها فهم يبدأون أحاديثهم، و لا سيما مع الأقارب و المعارف، بالتحية الودية و التقبيل لكنهم فى نفس الوقت يتصفون بالكسل و لا يهتمون بالعلوم و الفنون الحرة، و يحبون البطالة أكثر من العمل، إذ إنك تراهم ينفقون اليوم كله فى لعبة الشطرنج و غيرها من الألعاب الأخرى، و يعزفون على القيثارة التى تتألف من ثلاثة أو خمسة أو سبعة أوتار، و أحيانا أحد عشر وترا، كما لا حظت ذلك فى القيثارات التى كان يحملها الموسيقيون الذين يعملون تحت إمرة باشا «حلب». و يعزف هؤلاء على القيثارة بالسبابة أو بقطعة من الريش، و يسيرون فى الشوارع، و على الأخص الجند منهم، طيلة النهار و بذلك ألفوا الكسل و البطالة، و التعود على اقتراف الأعمال القبيحة.

و هم يحبون ارتداء الملابس الجيدة ذات الألوان البراقة دون المبالاة بتكاليفها فملابسهم الفوقانية التى تمتد إلى أسفل تكون مثقلة بالأزرار، و يرتدون تحتها صداريات تشبه صداريات الجنود عادة و تكون مصنوعة من قماش أزرق اللون ليست لها ياقات عند الرقبة. و تكون القمصان من القطن و فتحاتها عند الرقبة واسعة مثل بقية ملابسهم الأخرى و بدلا من الربطة يستعملون قماطا للرقبة يلفونه على رقابهم ليبعدوا به شدة و هج الشمس.

أما فى أيام الصيف فإنهم يرتدون السراويل القطنية البيضاء الفضفاضة التى تتدلى إلى كعوبهم و تكون جد ضيقة من الأسفل.

و الأتراك لا يستعملون الجواريب كى يستطيعوا أن يتوضأوا و يغسلوا أقدامهم و أذرعهم و رقابهم دون أدنى عائق طبقا لما تفرضه عليهم شريعتهم الإسلامية. و هم يشدون هذه السراويل من أوساطها على أجسادهم

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۷

العارية بأحزمة ثم يرتدون قمصانهم فوقها. و حين يريد أحدهم أن يتبول يفك سرواله ثم يجلس و يلف كل ملابسه حوله مثلما تفعل النساء، و يستدير عن ناحية الجنوب لأنها الناحية التى يتجهون إليها عند أداء الصلاة. و إذا ما شاهدوا رجلا يتبول واقفا استنتجوا من ذلك أنه مسيحى و ليس من أفراد طائفتهم و حين يجلسون تكون سيقانهم فى الغالب مطبقة الواحدة فوق الأخرى و ذلك هو الوضع الشائع فى الشرق كله إذ إنهم لا يستعملون الكراسى و لا الموائد، و إنما يستعيضون عنها بدكاك مبلطة ترتفع مقدار درجتين أو ثلاث درجات سلم تقوم فوقها أروقة و تكون هذه الدكاك نظيفة مفروشة بالسجاد أو الأبسطة أو الحصر المضفورة ضفرا جيدا و المحلاة بالألوان تبعا لقدرة أهل البيت على توفيرها.

و يخلع الأتراك أحذيتهم عند باب الغرفة عادة. و تكون هذه الأحذية أشبه بالأحذية التى يلبسها الدهانون عندنا و على غرار الصنادل التى يسهل لبسها و خلعها و تكون بيضاء أو زرقاء عادة مصبوغة من أمام و تنتهى بمسامير فى الأسفل و بمهماز من الخلف. و هذه الأحذية يلبسها الكبار و الصغار، الرجال و النساء، الأغنياء و الفقراء.

و ما عدا ذلك فإنهم يلبسون الأحذية الخشبية أحيانا. و هذه تباع فى كل مكان و تعلو بزهاء ثلاث بوصات و تكون أواسطها مقعرة من الأسفل و ذلك لتميز قفا الرجل عن كعبها. و تدهن هذه الأحذية بألوان مختلفة و تلبسها النسوة أيضا، إذ إن هؤلاء يرتدين فى الغالب ذات الألبسة التى يرتديها الرجال و منها السراويل الطويلة التى تلبس تحت الصداريات و تكون مصنوعة من القطن الجيد ذى الألوان المتعددة و لها أزرار من الجوانب.

و من النادر مشاهدة امرأة تركية فى الشارع أو فى السوق لشراء الحاجيات أو فى المساجد التى تؤمها الشهيرات بينهن و إن يكن ذلك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۸

نادرا أيضا. فالنساء لهن أماكن مفصولة عن أماكن الرجال، و لهن فى بيوتهن محلات و زوايا سرية يخفين أنفسهنّ فيها حالما يقبل أحد الرجال على زيارة بيوتهن و حين يخرجن، و ذلك نادر أيضا، هنالك ترى ثلاثا أو أربعا منهنّ مع أطفالهنّ سوية و كلهنّ زوجات لرجل واحد إذ إن شريعتهم تبيح للرجل أن يمتلك أكبر عدد يستطيع امتلاكه من النساء .

و تخفى النسوة وجوههن بالحجب التى يصنع البعض منها من الحرير الفاخر بينما يصنع البعض الآخر من شعر الخيل و هذا النوع تستعمله الفقيرات. و هن يغطين رؤوسهن بطرحات مصنوعة من القطن واسعة بحيث تغطى حتى أذرعهن و أكتافهن، و بالشكل الذى تستعمله فتياتنا حين يحاولن محافظة أنفسهن من البلل فيلقين بأمثال هذه الطرحات فوق رؤوسهن.

و لما كان الأتراك شديدى الغيرة فإن من النادر أن تلتقى زوجاتهم فى الشارع أو السوق، و إنما فى البيوت وحدها، أو حين يذهبن لزيارة قبور آبائهن أو أقاربهن المتوفين و التى تكون فى خارج المدينة عادة و على مقربة من الطريق، و يحصل أحيانا حينما يذهبن إلى هناك أن يأخذن معهن الخبز و الجبنة و البيض و ما شاكله ليتناولنه عند القبور. و كثيرا ما يتركن شيئا من طعامهن هذا للحيوانات و للطيور تأكله بعد مغادرتهن، اعتقادا منهن أن مثل هذا العطف على الحيوان مقبول عند اللّه كالعطف على البشر.

و تتألف القبور عادة من حفر مغطاة بأحجار كبير و تكون على شكل أسرة الأطفال فى بلادنا إذ ترتفع عند الرأس و عند الأقدام و تكون مجوفة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۵۹

فى الوسط، تملأ بالتراب و تزرع فيها الأعشاب الجميلة و لكن الغالب تثبت الرايات فيها. و من المعتاد أن يزرع أهل الموتى الريحان الأخضر فى حفر صغيرة يحفرونها حول القبور، إذ إنهم يعتقدون أن موتاهم سيكونون أسعد حالا طالما بقيت الرياحين يانعة محافظة

على ريعانها.

و بسبب هذه الخرافة تكثر المحلات التى يباع فيها الريحان و هم ينعشونه بالماء كيما يظل طريّا إذ تقبل النساء على شرائه و غرسه فى قبور موتاهن.

و تكون الأماكن التى تقام فيها القبور خارج المدينة عادة و على مقربة من الطرق الخارجية بحيث يستطيع كل امرىء يمر بها أن يتذكرها و أن يستغفر اللّه لها، و هذا هو السبب الذى يدعهم يقيمون القباب فوق القبور، ذلك لأن الناس الذين يزورون هذه القبور، و معظمهم من أقارب الموتى، يستطيعون دخول هذه القباب و أداء الصلاة فيها على أرواح الموتى.

و حين يتوفى أحد منهم يتم غسل جثمانه، و يلبس أفخر ثيابه، ثم يلقى به على لوح و يغطى بالرياحين و الأزهار العطرة، و يترك وجهه مكشوفا بحيث يستطيع كل واحد أن ينظر إليه و يتعرف عليه قبل أن ينقل إلى المقبرة فإذا كان المتوفى «شلبيّا» أى شخصا نبيلا، فإنهم يضعون طربوشه و حليه الأخرى عند رأسه، ثم يسير أصدقاؤه و معارفه فى المقدمة خلف الجنازة مباشرة، و يكون عملهم هو نقل الجثمان من واحد إلى الآخر إذا ما أحسوا بالتعب جراء ذلك، و من ثم يمضون به فى رفق و هم ينتحبون طوال الطريق إلى المقبرة، فى حين تسير النسوة وراءهم صارخات معولات يسمعهن كل من يكون على قارعة الطريق.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۱

الفصل الثالث من طرابلس إلى دمشق و حلب

بعد أن استرحت جملة أسابيع فى طرابلس و شاهدت معالم تلك المدينة و أبنيتها و اطلعت على أحوالها البهيجة، و أكثر من ذلك عرفت عوائد سكانها و تقاليدهم و أخلاقهم سواء فى ذلك الأكابر منهم أم الواطئون، قررت أن أسافر إلى مدينة «حلب» التى تعتبر أكبر مدينة تجارية فى سوريا، و أكثرها شهرة إطلاقا، و التى تقع على مسيرة خمسة أو ستة أيام من طرابلس و باتجاهها الشمالى الشرقى.

و حين صادفت بعض الزملاء الراغبين فى السفر معى، تزودنا بالأطعمة التى نحتاج إليها فى رحلتنا تلك، كالخبز و الجبنة و البيض و ما شاكلها، و هكذا غادرنا طرابلس فى اليوم التاسع من شهر تشرين الثانى سنة ۱۵۷۳.

و لقد صادفتنا فى الطريق أمطار غزيرة إذ إن الأمطار تسقط عادة فى مثل هذا الوقت من السنة، و تستمر طيلة الشتاء تقريبا و لهذا السبب فقد تأخرت مسيرتنا إذ إننا لم نصل إلى «دمشق» ، التى تقع فى منتصف الطريق بين طرابلس و حلب، إلا فى اليوم الرابع لمغادرتنا.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۲

و قد نزلنا هنا فى النزل الكبير الموجود فى المدينة و الذى يسمونه «كروان صارى» حيث خصصت لنا إحدى الغرف فيه، لكننا لم نجد فيها أية موائد أو كراسى أو مقاعد أو أسرة و إنما مدت على الأرض حصيرة من القصب المضفور لتعوض عن كل تلك الأدوات. و لقد ابتعنا من سوق المدينة بعض الأطعمة حسب رغبتنا و أمضينا الليل كله هناك.

و هذه المدينة التى يعتبرها البعض مدينة «أفاميا» القديمة كبيرة و حسنة البناء تقع فى واد بين التلال، و لذلك لا تستطيع أن ترى شيئا منها، قبل قدومك إليها، سوى القلعة الحصينة الواقعة على أحد التلال. و من حواليها بساتين و حقول كثيرة ترتوى من مياه نهر «العاصى» الواسع نوعا ما و الذى يمر عبر المدينة.

و يرفع القوم الماء من النهر عن طريق النواعير التى تقوم داخل النهر ذاته لهذا الغرض، و تفرغ الماء فى أقنية تحمله إلى البساتين و الحدائق فتنتعش به رغم شدة حرارة الشمس. و لقد وددت أن أتفرج على هذه البساتين لكن رفاقى كانوا مسرعين فى سفرهم، و على هذا غادرنا المدينة صباح اليوم التالى متوجهين إلى حلب.

شاهدنا على امتداد الطريق حقولا واسعة للقمح و بساتين كثيرة للكروم و أخرى زرعت بالأقطان التى تجلب من هذه الأصقاع و تباع لنا فى أوروبا و هى تحمل اسم البلد الذى تنمو فيه، بالإضافة إلى الحرائر و السلع الأخرى التى تشترى هناك فى الدرجة الأولى.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۳

و فى هذه البلدان عدد كبير من الحمر الوحشية جلودها سميكة قوية تستعمل للملبس حيث يحسن القوم تطريتها و تحسينها لهذا الغرض. و تعد السيوف و السكاكين التى تصنع فى دمشق من خيرة الأسلحة و أكثرها شحذا و رهافة، إذ إن فى مقدورك أن تقطع بها قضيبا من الحديد إلى عدة قطع دون أن يؤثر ذلك فى شحذ السكين. و لذلك يفضل سكان المدينة حمل المدى على الخناجر التى يشدونها فى أحزمتهم أو يربطونها بأشرطة تتدلى على ظهورهم.

و إذ واصلنا السير و بلغنا قمة جبل لبنان شاهدنا عددا وفيرا من القرى على جانبى الطريق معظمها مأهولة بالمسيحيين من السريان و الآراميين و غيرهم، ممن أقمنا عندهم أثناء الليل أحيانا و قد استقبلونا بمنتهى الأدب و قدموا لنا خمورا من الأعناب التى تنمو فوق تلك الجبال و لم أكن قد شربت فى حياتى أفخر من تلك الخمور.

من بين القرى التى وصلنا إليها قرية تدعى «حماة» تقع فى أرض خصبة و قد قيل عنها إنها كانت فى يوم من الأيام مدينة جميلة جدّا لكنها تهدمت بمرور الزمن و تخربت فلم تعد فى أيامنا هذه سوى قرية صغيرة.

كذلك تناثرت هنا و هناك بين الحقول خرائب بيوت صغيرة.

استأنفنا مسيرتنا بين الجبال، و شاهدنا عن بعد مدينة صغيرة تقع فوق التلال و إلى أعلى منها قلعة حصينة قيل إن الفرنسيين هم الذين شادوها قبلا، و لما كانت الأرواح الشريرة و الهوام تعيش فيها فقد تركت متهدمة و غير مأهولة.

تركنا هذه القلعة على يسارنا و انتقلنا إلى حقل قمح جيد الزرع، و إذ

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۴

ذاك شاهدنا عن يسارنا مدينة «سرمين» و هى على مسافة بعيدة عنا، و على مقربة منها و حواليها غابة كثيفة من أشجار الفستق الذى يجمعونه هناك و يبعثون به إلى طرابلس و من ثم يصدره التجار منها إلى بلادنا الأوروبية. و تنمو هذه الأشجار على مقربة من الطرق الخارجية و على الأخص عند قرية «باسيلو» التى مكثنا فيها طيلة الليل.

مررنا فى طريقنا بتسعة أو عشرة خانات و هى عبارة عن منازل مفتوحة تدخلها القوافل و المسافرون عند المساء عادة لتمضية الليل فيها و يكون المبيت فيها مجانا، لكنك لا تعثر فيها لا على اللحم و لا على الشراب. فإذا ما أردت أن تصيب شيئا منهما فإن عليك أن تجلبهما معك، و أن تقنع بالمنام على كومة من القش، فإن لم تحصل على ذلك فإنك تنام على إحدى الدكاك التى تحيط بكل جدران الخان، و التى يوضع عليها العلف الذى تتناوله الخيل و الحمير و الإبل.

و المعتاد أن تكون المسافة بين خان و آخر ثلاثة أميال، و تكون هذه الخانات واسعة منتظمة، جدرانها حصينة مثل جدران القلاع، و تبنى على شكل مربع عادة و فى وسطها باحة كبيرة تحيط بها زرائب مفتوحة أشبه بالقلايات فى الأديرة.

و يحتفظ البعض من هذه الخانات بحامية تتألف من تسعة أو اثنى عشر من الجند الإنكشاريين، و ذلك لإبقاء الطرق أمينة و لحماية المسافرين من هجمات السكان و الأعراب.

بعد أن واصلنا السير فى عدة جبال و عرة، و أصبحنا على مقربة من

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۵

حلب، وجدنا فى النهاية مدينة تشبه مدينة دمشق و هى فى حجمها مثل مدينة «ستراسبورغ»، و إذ ذاك ترجلنا عند أبوابها لأنه لا يسمح فى تركيا لأى أجنبى أن يدخل أية مدينة راكبا، و على هذه الشاكلة دخلنا المدينة فمضيت إلى الفندق الفرنسى للمبيت فيه، و هذا ما يفعله كل الألمان.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۷

الفصل الرابع مدينة حلب

الأوضاع فى مدينة حلب. الأبنية القائمة فيها، الفواكه الفاخرة تبدو مدينة حلب، و هى من أعظم المدن و أشهرها فى سوريا، و كانت تدعى قديما باسم «نيريا» ، محصنة فى بعض المواقع بالخنادق و الأسوار لكن هذه لا تدور حول المدينة كلها. و لذلك فإن فى مستطاع أى امرىء- كما هو الأمر بالنسبة لمدينة طرابلس أيضا- أن يدخلها و يخرج منها فى أى وقت يشاء من الليل. و لا تكون بوابات المدن- كما هو معتاد فى بلادنا و لا سيما بالنسبة إلى المدن الشهيرة- محمية بالجنود.

فلا يشاهد سوى اثنين أو ثلاثة يقفون عند البوابات الرئيسة التى تنطلق منها الطرق الخارجية، إذ يقف هؤلاء لاستيفاء الأتاوة لا لمحافظة أبواب المدينة. كما أنهم لا يحملون معهم أية أسلحة.

على أن فى وسط المدينة قلعة تقوم على تل مرتفع، و هى حصينة و كبيرة محاطة بالأسوار و الخنادق و فيها حراسة جيدة. أما الأبنية الأخرى، و كلها مستوية السطوح و مغطاة بالملاط بحيث يستطيع المرء أن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۸

يمشى فوقها، فإنها أشبه بالأبنية التى شاهدتها فى طرابلس. و قد شاهدت بين هذه الأبنية بناية فخمة جدّا قيل لى إن صاحبها أنفق على بنائها مبالغ طائلة، لكن مدخلها ليس سوى باب ضيق واطئ و لذلك فإن على من يريد الدخول إليها أن يحنى جسمه تماما.

و ما خلا ذلك فإن حلب محاطة بتلال صخرية و أوديتها ذات تربة طباشيرية و مع ذلك فلا تعوزها الحنطة و لا الشعير و غيرهما من الحبوب لأن أرضها خصبة. و يبدأ الحصاد فيها عادة فى شهرى نيسان و أيار.

و لا يوجد فى هذه الأودية سوى القليل من أشجار البلوط، و الأعشاب الجافة، ذلك لأن الجفاف فيها شديد و أرضها رملية، فى حين ترى التلال و عرة مليئة بالأدغال ليس فيها سوى القليل من العشب الجاف، و لذلك وجدنا السكان يعلفون مواشيهم بالشعير و التبن الذى تدوسه أدوات الدراسة التى تجرها الثيران. و كذلك وجدنا الأودية مليئة بأشجار الزيتون و هذا هو الذى جعل الأهلين هنا ينتجون فى كل سنة مئات الألوف من أطنان زيت الزيتون الذى يستعمل فى صناعة الصابون.

و إلى جانب ذلك توجد بساتين كثيرة لأشجار اللوز و التين و السفرجل و التوت الأبيض و الفستق الذى يجمعه المسلمون فى فصل الربيع بكميات كبيرة فيملحونه و يقشرونه و يأكلونه مثلما نفعل نحن بنبات الجنجل.

و فضلا عن ذلك تكثر بساتين البرتقال و الليمون و الرمان و الخوخ و غيرها غير أن ثمار التفاح و الكمثرى تعد قليلة بالنسبة إلى الثمار الأخرى و تكون صغيرة الحجم و غير ملونة بالشكل المعروف منها فى بلادنا.

و يعقب ذلك وجود كثرة من حاصلات الرقى و البطيخ و الخيار و ما شاكلها فضلا عن وفرة أنواع الخضار. و لقد شاهدت ثلاثة أنواع من الباذنجان تختلف ألوانه بين الأسود و البنى، و الفاصوليا و غيرها من الخضار التى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۶۹

تباع بكثرة فى الأسواق و تطبخ لتهيئة الطعام اليومى كما أنهم كثيرا ما يتناولون بعض هذه الخضراوات و هى فجة أى دون طبخ.

و هناك نوع من اللوبياء أو الكستناء تطبخ أو تحمص ثم تنزع قشورها و هم يتناولونها عند ما يجلسون فى المقاهى، كما يقدمونها على مائدة الطعام بعد انتهاء الوجبات عوضا عن الحلويات أو الفواكه من أمثال الزبيب و الجوز و غيرهما.

و هناك عدة نباتات تستعمل طعاما بالطبخ منها العدس. و هذا ذكرنى بنبتة مماثلة يسميها العرب «ماش» و هى فى شكلها و أوراقها تشبه نبتة الفاصوليا عندنا. و لقد أشار «سيرابيو» إلى هذه النبتة باسم «مليس» فى الفصل ۱۱۶ من كتابه كما أشار إليها ابن سينا أيضا باسم «ميسى» فى الفصل ۴۸۸ من كتابه. غير أن العالم النباتى الشهير «كارلوسى كلوفيوس» سماها فى كتابه «ملخص النباتات الهندية»

باسم «مونغو» و قد وجدت الأتراك يحبون تناول الماش كثيرا و لا سيما مع الرز .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۰

وجدت التجار فى مدينة حلب هذه يشترون كميات كثيرة من الأدوية التى يجلبونها من أنحاء مختلفة بطرق القوافل.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۱

الفصل الخامس المناصب الرفيعة و السلطات الواسعة التى يتمتع بها الباشوات فى حلب.

البلاطات الكبيرة التى يحتفظون بها تخضع مدينة «حلب»، التى يعتقد أن اسمها و موقعها يشيران إلى مدينة «شاليبون» التى قال عنها بطليموس إنها تقع فى بلاد «الشاليبيين» ، للسلطان التركى مع بقية الأماكن القريبة منها. و يقيم فيها أحد الباشوات فيحكمها هى و باقى أنحاء الولاية حسب هواه. و لما كان الباشوات فى الغالب هم أعلى طبقة تأتى بعد السلطان، لذلك فإنهم يعيشون فى أبهة و مراكز رفيعة، و تكون بلاطاتهم أشبه ببلاطات النبلاء فى بلادنا. و تبعا للولايات التى يحكمونها إن كانت كبيرة أم صغيرة، فإنهم يستخدمون حاكمين يخضعون لسلطتهم من أمثال أمير اللواء و «بلك» باشا و غيرهم. و هؤلاء يرافقونهم باستمرار، و يذهبون معهم حتى إلى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۲

المساجد، أو إلى أى مكان آخر يفكرون فى الذهاب إليه و ذلك فى مواكب كبيرة سيرا على الأقدام أو على ظهور الخيل، و لهم شاراتهم الخاصة بهم و لا سيما البلك باشا الذى يكون فى رتبة تعادل رتبة نقيب، و تحت إمرته مائة من الجند الإنكشاريين الذين يرتدون الملابس الفاخرة و يضعون الريش فى رؤوسهم و يسيرون على الأقدام. و ما خلا ذلك فإن بلاطات الباشوات تشبه بلاط السلطان نفسه تماما، و لهم أماكن سكناهم هم و محظياتهم اللواتى يحصلون عليهن من هنا و هناك، من المدن و الأقطار الأجنبية، أو اللواتى ينقلن زمن الحرب فى البر و البحر من الأمم المسيحية و غيرها. كذلك يحتفظ هؤلاء الباشوات بعدد كبير من الخصيان الذين يحصلون عليهم باستمرار.

و يسر الباشوات سرورا كبيرا بممارسة الصيد و غالبا ما يقومون برحلات تستغرق عدة أيام فى حملات الصيد هذه. و حين يصطادون خنازير برية يتركونها للمسيحيين، ذلك لأن شريعتهم الإسلامية تحظر عليهم تناول لحم الخنزير، الأمر الذى يجعل الأتراك فى معظم الأحيان يهزأون بالمسيحيين فى الشوارع و يصرخون بهم و يسمونهم بالكفرة أو أكلة الكلاب .

و مع أن الباشوات هم من كبار الأشخاص و أنهم يحكمون المدن و البلدان إلا أنهم يعتبرون مع ذلك، و مثل البقية، أرقاء لسيدهم السلطان، و أنهم لا يستطيعون أن يمتلكوا ما يستطيعون تركه لورثتهم أو ذريتهم بعد

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۳

مماتهم ، مثلما يفعل ذلك النبلاء فى بلادنا، و ذلك لأن السلطان يستولى بعد مماتهم على كل ممتلكاتهم المنظورة و لا يسمح لذريتهم إلا بماهية سنوية ليس إلا. و حين يأمرهم السلطان بالانتقال من مكان إلى آخر غريب عنهم و أن يبرهنوا على نزاهتهم و طيب سمعتهم، فإنهم ينفذون أمره فى الحال، إن كانوا لا يريدون تعريض أنفسهم للمصاعب و الأخطار، و هذا هو السبب الذى يجعل مثل هؤلاء الأشخاص، حتى و إن كانوا أثرياء، يهتمون بتشييد المبانى الضخمة و لذلك فإنك لا تستطيع أن ترى مثل هذه الأبنية فى كل البلاد، عدا المساجد و الخانات التى يشيدونها كيما يتذكرهم الناس بها.

و الغالب أن يحتفظ هؤلاء الأشخاص بثرواتهم بصفة كميات من الذهب و الفضة، مما يستطيعون إخفاءه و تسليمه سرا إلى ذريتهم. و هم لا يهبون المحتاجين سوى الضئيل من الهبات و لا يستخدمون عددا كبيرا من العاملين لديهم، كل ذلك نتيجة شدة جشعهم.

و يتفق كل هؤلاء الباشوات فى صفة واحدة هى العمل لمصلحتهم الخاصة و التطلع إلى الثراء، و لذلك يظل الأفراد يخضعون لحكمهم فى فاقة و إرهاق شديدين و لا سيما الأجانب الذين يعيشون فى حركة تنقل هناك كالإيطاليين و الفرنسيين و غيرهم، و

الـذين كثيرا مـا تحـدث بينهم و بين البـاشوات- الـذين لاـ يفكرون فى الصالـح العـام قـط بـل فى مصـالحهم الذاتيـة- خلافـات كبيرة يتعرضون بسـببها إلى أضـرار جسيمة، إلا إذا أراد ملوكهم أن يحولوا دون هذه الأمور، و أن يعامل رعاياهم معاملة مضمونة، فإذ ذاك يبعثون ببعض الرجال المحنكين الذين يسمونهم بالقناصل حيث يحصل هؤلاء على امتيازات عظيمة من السلطان التركى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۴

و يصبح فى مقدورهم أن يرفعوا شكاوى أبناء جلدتهم إليه، و حمايتهم ضد أى اعتداء يتعرضون له.

و قد حدث فى الوقت الذى كنت فيه أثناء مكوثى هناك أن نشب خلاف شديد بين القنصل البندقى و الباشا الجديد الذى أرسل إلى هناك بدلا من الباشا الذى توفى فى السادس من شهر آذار سنة ۱۵۷۵ م. فلقد أقبل الباشا الجديد لاستلام منصبه فى موكب حافل من الفرسان و المشاة. و عنـد وصوله إلى مقر عمله توجه القنصل البندقى مع عدد كبير من التجار فى موكب كبير لمقابلة الباشا و الترحيب به، و تقـديم هديـة إليه تتـألف من أربع عشـرة كسوة من الملابس الحريريـة الفاخرة، و الطلب إليه أن يكلأ بين عنايته أبناء وطنه كيما يتاجروا و يتعاملوا بأمان فى ظل حكمه.

و نظر الباشا إلى الملابس فثار سخطه ثم عاد و نظر إليها ثانية و إذ ذاك لم يرفض قبولها حسب بل رد على القنصل بكل فظاظة.

و غالبا ما يحـدث أن يثير أمثال هؤلاء الكبار الخلافات، و أن يشـتطوا فى خلافاتهم تلك إلى أبعـد الحدود، و قد يؤدى ذلك إلى أن تعرض هـذه الخلافات فى النهايـة على السـلطان و محكمته. فـإذا مـا ظهر أن الباشـا كـان مسـيئا عوقب فى الحال، دون اعتبار للسـلطة الواسـعة التى يتمتع بها بل طبقا للخطأ الـذى ارتكبه، إما بالغرامـة أو بسواها. و إذا كان الجرم كبيرا فإنه قـد يفقد حياته بسـبب ذلك و هذا ما يحدث فى أغلب الأحايين، و هو يعتمد كثيرا على طرق المواصلات التى تدر إيرادات جسيمة على السلطان كل سنة.

و رغم أن بعض العقوبات التى يعاقب بها الباشوات شديـدة أحيانا، إلا أن أبهتهم و مطامعهم تكون واسـعة، و إنهم فى سبيل الاحتفاظ بعظمتهم تلك، لا ينفكون عن التطلع بكل الوسائل إلى الغنى و الثراء، فى حين يتعرض رعاياهم كل يوم لمختلف صنوف الاضطهاد و المعاناة و لا سيما إذا كانوا من الأغنياء ناهيك عن الأجانب، بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يكسبوا شيئا.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۵

و أكـثر من هـذا فـإن هؤلاـء البـاشوات يسـتولون، بعـد وفـاة الأغنيـاء من رعايـاهم على أكـبر جزء و أعظم نصـيب ممـا يخلفه أولئك المتوفون، و يودعونه فى جيوبهم. و لـذلك فإن أمثال هؤلاء الناس لا يعانون أيـة آلام أو يتحملون أية نفقات فى سبيل بناء منازلهم أو فلاحة أراضيهم مثلما نعانى ذلك نحن فى بلادنا.

و الغالب أن يعيش السكان فى المدن و القرى التجارية فى بيوت أو صالات واطئة معظمها تحجبها التلال بحيث لا تستطيع أن تراها إلا إذا أصـبحت أمامها مباشرة. حتى إذا ما ولجتها لا تجد فيها كراسى أو مقاعد أو موائد فكل ما هناك قطعة مزدوجة من سجاد يجلسون عليه (إذ إنهم لاـ يسـتعملون الأسـرة الوثيرة إطلاقـا)، و حصـرا و أبسـطة يلفونهـا سويـة خلاـل النهـار و يعلقونها فى إحـدى الزوايا، ثم يفرشونهـا ثانيـة أثنـاء الليل لينـاموا عليها. و هم لا يسـتعملون الشـراشف كما نفعل نحن ذلك، و لا المناشف أيضا و كل ما يسـتعملونه خرقـة طويلـة من القمـاش يلفون بها رقابهم العاريـة أو يتمنطقون بها. و كثيرا ما يشاهـد فى منازلهم و فى كل أنحاء بلادهم جملـة من الأوعيـة الطينيـة غريبـة الأشـكال تغطى كل جوانب الجـدران فى الغرف ممّا اعتاد أقاربهم أن يهـدوهم إياه أثناء الخطوبـة الأمر الـذى يسرهم كثيرا، لكنهم يستعملون هذه الأوعية ليس لغرض الذكرى و إنما لأى نوع من الاستعمال.

و لا يسـتخدمون فى مطابخهم سوى أدوات قليلـة جدّا من أمثال القدور و الصـحون و الأوانى ذلك لأنهم يطبخون كل أطعمتهم سوية فى قدر واحد و لذلك لن يتعب الخدم عندهم فى تنظيف الأوانى و ترتيبها.

و هم لاـ يهتمون بالملابـس اهتمامـا كافيـا رغم نجاحهم فى الحصول عليها. ذلك لأنهم يحبون المال حبّا جمّا و لا ينفقون طيلـة اليوم بنسا واحـدا دون رضا منهم. و لـذلك فإن على الرجل الـذى يريد الطواف فى هذه الأقطار أن يكون كيسه ملىء بالنقود و أن يحفظها

قريبة جدّا منه، و أن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۶

لا يدع أحدا يعرف مقدار ما فيها، و أن يكون فى منتهى الحذر من اليهود الذين لا يؤتمنون، إذا ما أردت الخلاص من خطر جسيم، ذلك لأن اليهود لا يؤدون لك أية خدمة كانت من دون مكافأة. و ليس هذا حسب بل إنهم إذا ما أحسوا بأنك تحمل نقودا معك راحوا يسعون بكل الوسائل لابتزازها منك. و على هذا فإن الناس الذين يحجون إلى فلسطين و يرتدون ملابس رثة لا يأبهون بهؤلاء اليهود.

و يشاهد ندمان الباشا، و منهم الخصايا و الدراويش الذين يحتفظون بأعداد كبيرة منهم، يتهادون فى أردية الحرير الطويلة الحسنة التفصيل التى يزودهم بها سيدهم و يوزعها عليهم و هى فى الأصل هدايا قدمت إليه.

أما الجند من الخيالة و الإنكشاريين و غيرهم، فإنهم يحصلون عادة على ملابس صوفية زرقاء من البلاط، و يعيشون على المرتب الذى يتقاضونه و هو يبلغ إما أربعة «معدنى» أو خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية. و كل معدنى يعادل ثلاثة «فارثنغات» .

و يقل هذا المرتب أو يزيد تبعا للأماكن التى يعمل الجند فيها، و هو يدفع لهم يوميّا سواء فى ذلك أيام السلم أم أيام الحرب.

أما إذا ما استطاع الجند أن يحصلوا على أى شىء بالقوة أو بالحرب من أعدائهم فإن ذلك يكون ملكا خاصّا لهم.

و العادة الجارية هى أن يعتمر الجنود بعمائم بيضاء، و ذلك ما يفعله جميع الأتراك. و فضلا عن هذا فإنهم يضعون ورقة ملونة تحت العمامة، و يفعلون ذلك بصفة رئيسة عند ما يتوجهون إلى الحرب اعتقادا منهم أنهم إن فعلوا ذلك فلن يصابوا بأذى أو جرح.

كذلك يثبت الجند فى عمائمهم ريشا من ريش الكركى لكى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۷

يعتبرهم الغير من الجنود الشجعان. و من عدد هذه الريش يستطيع الأهلون أن يقدروا عدد المعارك التى خاضها أولئك الجنود، أو العدد الذى قتلوه من الجنود المسيحيين.

و ما خلا هذه العمائم يرتدى الإنكشاريون قبعات ذات تيجان عالية، مصنوعة من اللباد الأبيض، و هم يرتدونها بدلا من الخوذ، و ذلك حين يكونون فى تأهب أو خروج إلى الحرب و تتدلى منها على الناصية شرائط مثقلة بالعقيق و الياقوت و الجواهر الأخرى التى يعلقون بها الريش، و إن كانت هذه الحلى ليست غالية الثمن.

و هؤلاء الجند مثل بقية الأتراك المسلمين لا يطيلون شعور رؤوسهم بل يحلقونها عندما ينمو الشعر فيها و لا يتركون منه سوى خصلة من الخلف تتدلى إلى مسافة معتدلة. و هم فى الوقت الحاضر يطلقون لحاهم و إن كانوا يحلقونها قبلا، كما أنهم أخذوا فى السنوات الأخيرة يربون الشوارب الغليظة. و تراهم يحملون البنادق أيام الحرب. أما فى أوقات السلم و لا سيما عند ما يكونون فى الحراسة فإنهم لا يحملون سوى الهراوات الطويلة.

و يسمح للجند بالزواج، و أن يمتلكوا- إضافة إلى زوجاتهم- ما يغنمونه من أسيرات أثناء الحرب أو غيرها، أو أن يبيعوهن إلى أى راغب فى الشراء.

أما فى أوقات الحرب و حين يكونون فى إحدى الحملات العسكرية فإنهم يستطيعون العيش فى تقشف شديد، و أن يواصلوا السير طيلة اليوم كله دون أن يريحوا أنفسهم.

و الحقيقة أن هؤلاء الجند و غيرهم من الجند الآخرين، و بسبب المرتبات الجيدة التى تدفع لهم أيام السلم كما هى فى أيام الحرب، لا يبدون أية رغبة فى التوجه إلى ميادين القتال، أو أن يغيروا واجباتهم

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۸

الهادئة بأخرى مضطربة، أو أن يستبدلوا حياة مضمونة بأخرى معرضة للخطر، مثلما كانوا عليه فى العهود السابقة، و لذلك تراهم قد

اعتادوا حياة الكسل و لمدة طويلة.

و ما خلا ذلك فإن سيطرة الأتراك و قوتهم أحط من قوة المسيحيين، لأننا، نحن المسيحيين، مسلحون تسليحا جيدا بالبنادق و الرماح الأمر الذى نستطيع به أن نصدهم إلى مسافات بعيدة بحيث لا يستطيعون الالتحام معنا و التغلب علينا. ذلك لأن الخصم إذا ما صمد أمامهم و لم يتراجع فى أول التحام معهم فإنهم سرعان ما يديرون ظهورهم و يولون الأدبار.

و لكن على الرغم من ذلك كله فإننا لم نصب من الأتراك شيئا إذ كانوا هم الغالبون. و السبب فى هذا يعود- و لا أريد أن أشير هنا إلى تجاوزاتنا المتعددة- إلى انقساماتنا و منازعاتنا الكثيرة التى تعيقنا عن مجابهة مثل هذا الجيش بما يجب علينا أن نفعله. كذلك أظهر الأتراك بسالة أكثر فى إرهابنا، و توجيه الضربات إلينا، و استعمال مختلف أنواع الستراتيجية لإلهائنا، أو للإيقاع بنا فى فخ، عند ما نشرع بتعقبهم، حتى إذا ما خيل إليهم أننا قد كللنا أطبقوا علينا و بأعداد كبيرة و جديدة من قواتهم للإحاطة بنا و سحقنا.

يضاف إلى هذا أن الأتراك إذا ما فقدوا كتيبة أو أخرى فإنهم لا يقيمون لذلك وزنا، بالنظر لوجود عدد واف من هذه الكتائب. كما أنهم يعرفون كيف يعبئون للقتال كتائب أخرى يكون أفرادها متشوقين جدّا لتقبل القتال لأنهم يتلقون ماهياتهم من أميرهم كل يوم حتى و إن كانوا خارج نطاق ولايته، و لذلك فإن هذا الأمير لا يحتفظ بولايته تلك حسب بل يضيف إليها ولايات أخرى غيرها، و يروح يوسع ممتلكاته كل يوم.

و على هذا ينبغى لنا أن نكون فى منتهى الحذر منه، لأنه كلما ازداد تطلعا إلى توسيع ممتلكاته، تضاعف الخطر علينا. و هكذا نراه يستولى على

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۷۹

إحدى المدن أو الأقطار أو الممالك الواحدة بعد الأخرى بحد السيف، كما رأينا ذلك قبلا فى أوروبا (و لا نريد أن نذكر شيئا ما عما حدث فى آسيا)، و هذا لا يخلو من أخطار و أضرار على كل المسيحيين فهو يقترب كل يوم من حدودنا و لذلك فإننا فى النهاية يجب علينا أن لا نتوقع لنا مصيرا أفضل مما حل باليونان و تراقيا و البوسنة و هنغاريا و فلاشيا و غيرها، التى خضعت للعبودية، و ما يزال فيها عدد من الشخصيات الرفيعة يئنون و يتحسرون حتى اليوم. ففى أثناء وجودى فى حلب عثرت على ملكة فالاشيا مع أولادها و كان أصغر أولئك الأولاد قد ولد بعد وفاة أبيه الملك.

و تعيش هذه الملكة مع أولادها على ماهية ضئيلة خصصها لهم السلطان التركى. و هى امرأة ذكية تجيد اللغتين التركية و العربية و ما يزال رعاياها يأملون أن يعيدها اللّه العظيم إليهم ثانية، و بذلك تنتهى عبوديتهم.

و عند ما ينتصر الأتراك فى معركة ما تراهم يرفعون أكفهم بالحمد و الشكر للّه، و لمبعوثه الحبيب الرسول «محمد»، و يبتهلون إلى اللّه بأن يثير الخلافات و المنازعات فيما بيننا نحن المسيحيين (لأنهم لا يؤمنون بالإنجيل)، و أن يتخاصم حكامنا مع رعاياهم، و يتنازع رجال الدين مع علية القوم، فتنشأ عن ذلك الاضطرابات، و تتجاوز الحدود التى وردت فى شرائع اللّه أكثر فأكثر، و يزول إيماننا بالمسيح و تتحلل كل أنظمتنا و سياساتنا الصالحة، و إذ ذاك يبعث اللّه بالأتراك لمعاقبتنا.

و حين يرى الأتراك أن الأغنياء منا يضطهدون الفقراء، و أن الحكام لا يحمون العدل و لا الأبرياء، بل يتطلع الرؤساء و الكبار إلى أن يفتك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۰

الواحد منهم بالآخر، فإنهم- أى الأتراك- يفرحون آنذاك بهذا البلاء الذى حل بنا، و لا يخافون أى ضرر قد نلحقه بهم- و هذا ما نستطيع أن ننجزه بيسر لو كنا متحدين- بل يهددوننا بما سينزلونه بنا من أضرار.

و حين يستولى الأتراك على مدينة محصنة أو على البلد كله بحد السيف، و ذلك ما يقدرون عليه من دون عساكر كبيرة أو متاعب أو أخطار، فإنهم يدمرون الأماكن غير الحصينة فيها، و يبعدون من فيها من النبلاء و الشخصيات البارزة- لأن هؤلاء قد يلحقون أضرارا

جسيمة- ثم يحلون محلهم أمراء الألوية بعساكرهم و ذلك للمحافظة على الأماكن المحصنة، و الاهتمام بجباية الإيرادات للسلطان، و لذلك لا نجد فى مثل هذه البلدان المحتلة أحدا من النبلاء المتحدرين من سلالات حاكمة قديمة، ممن ظلوا محتفظين بمقاطعاتهم و أملاكهم الخاصة بهم و التى يتوارثونها أبا عن جد. و هذا ما يتصوره المرء عندما يأخذ بنظر الاعتبار شريعة «محمد» التى تسمح للرجل بأن يتزوج من أربع زوجات فى وقت واحد بالإضافة إلى الجوارى أو الإماء حسب هواه.

و لا أريد هنا أن أتحدث عن حرية الطلاق عند المسلمين لأدنى سبب، و استبدال الزوجات المطلقات بأخرى جديدات مما ينجم عنه الخلافات و القلاقل إلى درجة أنه لا توجد سوى قلة من الأطفال ممن يعرفون آباءهم و لا يظهر بينهم سوى القليل من الود مثلما يفترض المرء ذلك. على أن هذا الأمر لا يحط من قدر الرجال بل يزيدهم شهرة لأن الناس يستنتجون بأن الرجال الذين يحتفظون بعدة زوجات إنما يتصرفون

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۱

بمنتهى الأدب طبقا لشرائعهم و لذلك سرعان ما يثقون بهم و يفضلونهم على غيرهم فى المكان و الماهية، و يعتبرونهم من «الشلبية» الحقيقيين، أى الأشراف.

و مع أن هؤلاء الأشخاص و غيرهم من الأتراك يحتفظون بعدة زوجات متباينات فى المولد و فى النسب إلا أن لهن حصة متساوية فى إدارة شؤون الأسرة. فكلهن يتزودن بالمأكل و المشرب و الملبس على قدم المساواة. كما أن العمل يكون مقسما فيما بينهن بالقسطاس. ذلك لأن أيّا منهن لم تجلب لزوجها شيئا من المال، بل إن هؤلاء الأزواج هم الذين يشترونهن من آبائهن بمبالغ نقدية كبيرة فى بعض الأحيان، ثم يجهزونهن بالملبس و ما شاكله. و لذلك فإن الرابطة الزوجية تمنح الزوج سلطة أقوى من سلطة الزوجة، و لهذا يستطيع الزوج أن يتزوج امرأة واحدة ثلاث مرات ثم يطلقها مرة أخرى .

و لكن الواقع أن الزوج لا يفعل ذلك إلا إذا خشى الفضيحة. و هذا ما تستطيع أن تستشفعه من كلمات السلطان التركى «بايزيد» التى وجهها إلى «تيمور» أو «تيمور لنك» و التى يقول له فيها من الأفضل له أن يعيد زوجته بعد أن طلقها ثلاث مرات، من أن يهب للحرب ضده.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۲

و قد احتمل تيمور لنك تلك العبارة المستقبحة، و أسرّها فى نفسه و لذلك لم يهزم «بايزيد» فى إحدى المعارك حسب بل أخذه أسيرا و حمله فى قفص حديدى أشبه بوحش الغابة.

على أن أعود الآن إلى موضوع الزواج فأقول إن زواج الأتراك لا يشترط فيه أن يصادق عليه أحد من رجال الدين قبل وقوعه . ذلك لأن على زوجاتهم أن يعشن فى وفاق و سلام و مودة، و أن لا يعارضن أزواجهن إلا فى قضية واحدة هى عدم إحلال المساواة بينهن. فإذا ما حدث ذلك، و هو يحدث فى أغلب الأحيان، فإنهن لا يجرأن على أن يشكين أزواجهن إلى القاضى أو الحاكم. و لذلك تعرض على القاضى كل يوم قضايا غريبة جدّا (لكنها ليست غريبة بالنسبة إليه). فإذا ما ظهر أن الزوج كان مذنبا كانت الزوجة فى حل منه و إذ ذاك يقع الطلاق رأسا و فى ذات الساعة.

و النساء التركيات جميلات و مهندمات جدّا و مؤدبات إلى أبعد حد فى تصرفاتهن و مسلكهن. و حين تزوج إحداهن و تزف إلى بيت بعلها يذهب أقاربها معها، أى أنهم يدعون لحضور حفلة الزواج، و عندئذ تبدأ الجلبة فى الشوارع و تتعالى الأصوات أكثر فأكثر كلما استمروا فى السير بحيث تستطيع أن تسمع أصواتهم تلك من مسافة غير قليلة.

و يتظاهر الأغنياء و المقتدرون من الأتراك أثناء زواجهم بمشاهد عديدة. فتراهم أثناء النهار يعقدون حلبات الرقص و السباق و التمثيل

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۳

و الغناء و القفز و الزحف و الرقص على الحبال و ما شاكل ذلك. و بعد غروب الشمس و حلول الظلام يشرعون بإطلاق عدة إطلاقات و صواريخ نارية علانية و فى الأماكن المكشوفة بحيث يستطيع كل فرد أن يشاهدها و يستمرون فى هذه الألعاب حتى انبثاق نور الفجر.

أما الراقصون على الحبال فإنهم يرقصون فوق ثلاثة منها يكون الواحد منها فوق الآخر و يكون أعلى تلك الحبال أكثرها طولا ثم يبدأون يمارسون فوق كل حبل منها ما تعلموه من فنون خاصة بالرقص بكل دقة و رزانة. و من أمثال الرقص و النط و الجرى و الإيماء و السير فوق الأرجل الخشبية و غيرها من الألعاب التى تستحق المشاهدة.

و حين يتزوج أولادهم فإنهم سرعان ما ينسون آباءهم و لا يجرأون على رؤيتهم ثانية لفترة طويلة و لو أنهم لا يودون أن يفعلوا ذلك.

و حين يولد لهم أولاد لا يختنونهم فى اليوم الثامن لولادتهم، بل يتركونهم حتى يبلغوا الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من أعمارهم و إذ ذاك يجرى ختانهم.

و يوجد بينهم، و لا سيما العرب، من يقلدون أباهم «إسماعيل» الذى لم يتم ختانه إلا بعد أن بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره.

و المعتاد أن تتم عملية الختان فى بيت الوالدين. و حين يختن أولاد

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۴

أحد الأغنياء تولم لذلك وليمة، و يشوى أحد العجول برمته. فهم يجيئون بعجل و يضعون فى جوفه أحد الأكباش ثم يضعون فى جوف ذلك الكبش دجاجة و فى جوف تلك الدجاجة بيضة و يطهونها سوية و يقدمونها فى الوليمة و ما بقى منها يوزعونه على الفقراء .

و حين يكبر الأطفال و يبدأون المشى يلبسونهم قمصانا فضفاضة من نسيج لطيف فى عدة ألوان تسر الناظر إليها، ثم يضعون على رؤوس الذين لم يختنوا بعد طاقيات ملونة مطرزة بالورود و تباع بشكل اعتيادى فى الأسواق. لكنهم بعد أن يتم ختانهم يشرعون بارتداء العمائم البيض التى تصنع من نسيج القطن و تلف حول الطاقيات بطريقة خاصة، و يبلغ طول الواحدة منها عشرين يردا.

ولدى السكان فى هذه الأقطار عادة غريبة أخرى اعتادها الصغار و الكبار و الرجال و النساء على حد سواء ذلك أنهم يصنعون زواقا رقيقا من العفص و الزاج الأخضر المحروق يزوقون به عيونهم و يحفظونها من الرمد كما يصبغون به شفاههم أيضا، و يرسمون به حول عيونهم دوائر بنفس الطريقة التى نراها فى أعناق الحمام المطوق الموجود فى بلادنا.

و يبدو أنهم ورثوا هذه التزويقات من القدم. كما أنهم يستعملون الكحل فى عيونهم أيضا. و لقد قرأنا الكثير عن كحل العين فى عدة أماكن فى العهد القديم و أخص بالذكر الإصحاح الثالث و العشرين من سفر حزقيال، الآية (۴۰) التى يقول فيها الرب على لسان النبى «و هكذا أقبلوا على من كانوا يغتسلون و يزوقون عيونهم و يزينون بالحلى».

أما ما يختص بتعليم الشبان فإنهم لا يتعلمون فى المدرسة سوى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۵

القراءة و الكتابة باللغة العربية، و هذه حروفها واحدة بالنسبة للعرب و للأتراك و إن كانت لغاتهم متباينة تماما.

و ما خلا ذلك توجد مدارس أخرى يدرس فيها الشبان القوانين التى يسنها السلطان و لذلك سرعان ما يطلب إلى هؤلاء الذين يستمرون فى دراسة هذه القوانين أن يتولوا المناصب من أمثال القاضى و قاضى الشرع.

أما بالنظر إلى العلوم و الفنون الحرة التى نتعلمها نحن فى بلادنا فإنهم لا يقبلون على تعلمها، و لذلك فإن من يعرف هذه العلوم و الفنون لا ـ ينعدم وجوده بينهم حسب بل إنهم يعتبرون تعلمها خرافة و مضيعة للوقت ، فى حين نراهم يتعشقون الأغانى القديمة و الأشعار التى تتحدث عن أخلاق سلاطينهم القدامى و عظمتهم و غيرهم من الأبطال.

كما أنهم يحبون القصص الخيالية التى تحط من منزلة الأمم الأجنبية أو أية أمة معادية لهم. و هكذا تجدهم ينهمكون فى إنشاد

الأغانى و الاستماع إلى من ينشدها و التى يكررونها كل يوم بأساليب خاصة، خارج المدينة و فى الأماكن المخضوضرة التى يمارسون فيها الكثير من المتع الأخرى كالغناء و الرقص و النط و ما شاكل ذلك. و لهذا نراهم يقبلون على قراءة مثل هذه الأشياء التافهة بدلا من العلوم و الفنون التى لا يأبهون بها و لا بأمثالها من الأعمال النبيلة، من أمثال طبع الكتب التى يتعلمونها و التى يتشوق إليها الكتبة جدّا، ممن يقل عددهم أو يزيد فى مدينة عن أخرى.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۶

ذلك لأن أمثال هؤلاء الكتاب يحصلون على قدر من النقود كل يوم لقاء ما ينسخونه من كتابات النبى «محمد» فيجنون من وراء ذلك أموالا طيبة حيث تشاهد هؤلاء الكتاب بعمائمهم الكبيرة التى تميزهم عن الآخرين .

و الورق الذى يكتب عليه هؤلاء الكتاب صقيل عادة. و هم يكتبون حروفهم بكلمات قليلة. و حين يرسمون هذه الحروف فى أعلى الورقة يطوونها بحيث لا يزيد عرضها عن بوصة واحدة و من ثم يملأون الشقوق الخارجية فى الورقة بالشمع من الداخل، و يلصقون الواحدة بالأخرى بلصاق يستعملونه لهذا الغرض و يختمون أسماءهم عليها بأختامهم التى تدهن بالحبر فلا يبقى فيها أى بياض سوى الحروف.

و تصنع هذه الأختام بصفة عامة فى دمشق التى يوجد فيها أحسن الفنانين فى هذه الصنعة. و هم يصنعونها من الحديد و لا يكتبون فيها شيئا سوى أسمائهم.

و هم لا يستعملون الورق الذى سبق لهم أن كتبوا عليه على الرغم من توفره بكميات كبيرة. كما أنهم لا يصنعون أى شىء فيه و لا يستعملونه لأى غرض. و مع ذلك فإذا ما وجدوا شيئا من هذا الورق المكتوب فى الشارع فإنهم لا يتركونه ملقى هناك بل يلتقطونه و يطوونه بعناية ثم يضعونه فى غار يصادفونه مخافة أن يكون اسم اللّه مذكورا فى الكتابة المدونة عليه.

و بدلا من هذه الأوراق المكتوبة يستعمل العطارون أوراق شجر «القلقاس» التى يحتفظون بمخازن كبيرة منها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۷

الفصل السادس المعاملات التجارية فى مدينة حلب.

جملة أنواع من المأكولات و المشروبات و الولائم بعد أن تناولت وصف الأبنية و الأوضاع الجارية فى مدينة حلب العظيمة الفخمة، و كذلك عوائد الأتراك و أخلاقهم و دوائرهم، على قدر ما استطعت أن ألمّ به، لم يعد أمامى- قبل أن أغادرها- إلا التحدث عن المعاملات التجارية التى تجرى كل يوم فيها، و هى معاملات واسعة النطاق بشكل يدعو إلى الإعجاب ذلك لأن قوافل عديدة من البغال و الحمير، بل و أكثرها من الإبل، تتدفق كل يوم على المدينة من كل الأقطار الأجنبية، من الأناضول و أرمينيا و مصر و الهند و غيرها، و هى مثقلة بالأحمال. و لذلك ترى الشوارع مزدحمة بحيث يصعب مرور القافلة منها تلو الأخرى.

و لكل من هذه الأقطار أو الأمم خان خاص بها و هو يحمل عادة اسم الشخص الذى بناه من أمثال «خان العجمى» و «خان وزوادا» و «خان الأبرق و سبيل» و «خان محمد باشا» و غيرها من الخانات التى يستعملونها بمثابة فنادق، ينزلونها و يعيشون فيها و يعرضون فيها سلعهم للبيع حسبما يشاؤون. و لذلك نجد بين بقية أفراد هذه الأمم جماعة من الفرنسيين و الإيطاليين و غيرهم ممن لهم أبنيتهم الخاصة بهم و التى مرت الإشارة عنها قبلا مما يسمونه بالفنادق. و يعيش البعض من هؤلاء سوية فى هذه الفنادق بينما يسكن غيرهم، و لا سيما الإيطاليون المتزوجون، فى بيوت

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۸

أخرى غيرها حيث يقيم عدة أنفار منهم فى كل بيت من هذه البيوت و يعيشون فى اقتصاد مثلما يفعل الأتراك ذلك.

و يستطيع المرء أن يعثر فى هذه الخانات على جملة من أنواع السلع الغريبة. مثال ذلك أنك قد تجد فى «خان العجمى» كل أنواع

المنسوجات القطنية كالمناديل اليدوية و عصب الرأس و الأحزمة التى يشدون بها أوساطهم و الطرحات على رؤوسهم إضافة إلى أنواع أخرى من المنسوجات يسميها العرب «موصلى» نسبة إلى بلد «الموصل» الذى يجلبونها منه، و الذى يقع فى بلاد ما بين النهرين، و هذه الأقمشة هى التى نسميها نحن الأوروبيين «موسلين» و التى يصنع السادة الأتراك ألبستهم منها أيام الصيف.

و هناك نوع من السجاد الفاخر المحلى بالألوان الزاهية، و هو من النوع الذى نستورده نحن إلى بلادنا أحيانا.

و هم يجلبون من بلاد فارس فى أكياس من الجلد كميات كبيرة من «المن» يسمونه «طرنجبيل» و يجمعونه من نبتة يسميها العرب «عاقول» و «الحاجى» . و هذا هو السبب الذى يجعله يمتزج مع أشواك صغيرة و قش أحمر اللون. و لهذا المن شىء من الحبوب أحيانا على غرار حبات «الكزبرة» عندنا. و لذلك فهو فى كل مظاهره يشبه «المن» الموجود فى بلادنا و الذى نجنيه من شجر اللاركس كما أن هذا المن يشبه المن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۸۹

الذى تناوله الإسرائيليون الذى وفره اللّه فكان على شكل معجزة خارقة للطبيعة .

أما المن الذى يسقط على الأشواك فقد أكده كل من «سيرابيو» و «ابن سينا» فى الفصول التى تناولوا فيها هذه المادة من مؤلفاتهم و كانوا يسمونها «تسريابين» و «طرنجبيين» .

كذلك عرفه العالم النباتى الشهير «كارلوس كلوفيوس» و أكده فى كتابه «موجز النباتات الهندية».

و لقد عثرت فى أطراف حلب على بعض هذه الشجيرات التى يبلغ ارتفاعها حوالى ذراع و تتفرع منها عدة سيقان مدورة تنقسم بدورها إلى عدة أقسام كالزهرة. و يستخدم الأهلون هذه الشجيرات للتنظيف و التعقيم، إذ إنهم يأخذون كمية منها يغلونها بالماء.

و ما خلا ذلك فإن لديهم نوعا آخر من المن شبيه بالنوع السابق.

و هذا النوع يرسل إلى بلادنا من «كالبريا» عن طريق البندقية.

و فضلا عن ذلك يعرض الأهلون للبيع أحجارا يسميها العرب «يازور» و هى على أشكال مستطيلة و مدورة صقيلة و ذات لون أخضر

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۰

غامق. و يحصل الفرس على هذه الأحجار من نوع خاص من الصخور و هم يستعملون مسحوقه ضد المساحيق السامة و المميتة.

و هناك أنواع أخرى تشبه هذه الأحجار فى الشكل و الصورة لكنها ليست مثلها فى الجودة و لذلك ينبغى للمرء أن يكون فى منتهى الحذر كيلا يغش بها.

على أن هناك بعض الدلائل التى يمكن بها معرفة جودة هذه الأحجار من عدمها مما أطلعنى عليه أحد التجار. و ذلك بأن تأخذ شيئا من الجير و تمزجه بالماء مع شىء من مسحوق هذه الأحجار و تصنع منه مزيجا. فإذا ما جف المزيج اطحنه. فإن بقى لونه أبيض كان ذلك مغشوشا. أما إذا تحول إلى لون أصفر دل ذلك على جودته.

و هذا النوع يؤتى به من بلاد فارس. كذلك يجلب الفرس إلى تركيا أحجارا لا- توجد إلا فى بلادهم، و يحتفظ ملكهم الصفوى بخزائن كبيرة منها و قد صدرت فى الآونة الأخيرة كميات كبيرة من هذه الأحجار إلى بلادنا و إذ ذاك هبط سعرها فى الحال. و ما إن سمع ملك فارس ذلك حتى حظر مباشرة إصدار أى منها و استمر الحظر سبع سنوات. و لذلك فإن من المحتمل أن تكون أسعار هذه الأحجار قد عادت الآن إلى مستواها السابق لأن مدة السبع سنوات قد انتهت الآن كما أخبرت بذلك.

كذلك يعرض الأهلون للبيع أقراطا عديدة من اللالىء الشرقية الغالية الثمن التى يعثر على القسم الأعظم منها فى «البحار العربية»

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۱

و على مقربة من جزيرة يسمونها «البحرين» لا تبعد فى موقعها كثيرا عن المدينة التجارية التركية «البصرة» .

و هم يجلبون إلى هنا كثيرا من الأفاوية من أمثال «الدار صينى» و الفلفل و الهيل و جوز الطيب و قشر جوز الطيب و غيرها من الجذور

الصينية التى يستعملها العرب بوفرة، و جذور ثمينة يسمونها «الراوند» بالإضافة إلى الأقداح و الصحون الصينية أيضا.

يضاف إلى هذا أنهم يعرضون للبيع عدة أنواع من الأحجار الكريمة من أمثال العقيق و الياقوت، و الياقوت الأزرق و الألماس و كذلك أغلى أنواع المسك الذى يتألف من حبات صغيرة.

و يخفى التجار هذه الأحجار الثمينة فى قوافل كبيرة ترد من الهند و هم يأتون بها سرّا كيلا يدفعوا عنها الرسوم الكمركية. ذلك لأن الباشوات و أمراء الألوية و غيرهم لا يتورعون عن سلب هذه الجواهر من التجار إذا ما عثروا عليها فى الطرق الخارجية.

أتخلى الآن عن متابعة الحديث عن هذه المواد و الأدوية الأخرى و كذلك البضائع التى يجلبها التجار إلى هنا من البلاد الأجنبية كل يوم ثم يصدرونها إلى بلاد أخرى، إذ ليس من مهمتى التحدث عنها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۲

من بين المواد التى يجلبها التجار من الهند بعض القصب الطويل الصلب الممتلىء بمادة لزجة ذات لون أصفر. و يكون هذا القصب على نوعين قصير و طويل. فأما الطويل فهو أصلب و يستعمله الشيوخ و العرج بدلا من العكاكيز، أما النوع الآخر فيصنعون منه القسى و السهام حيث نجد الأتراك يغلفونها بأغلفة حريرية مختلفة الألوان و يتباهون بها كثيرا.

كذلك توجد فى الحوانيت أنواع أخرى من القصب القصير المجوف الصقيل ذى الألوان البنية و الحمراء. و هذه الأنواع يستعملها الأتراك و المسلمون و غيرهم من أبناء الأقطار الشرقية لغرض الكتابة بها، ذلك أنهم لا يستعملون ريش الإوز لهذا الغرض.

و فضلا عن ذلك يوجد نوع من العصى يجلبها الحجاج معهم من «مكة» حين يذهبون لزيارة قبر نبيهم «محمد». و أهل تلك البلاد و لا سيما العرب يحملونها معهم على ظهور الخيل بدلا من الرماح لأنها قوية و طويلة و خفيفة و فى الوقت نفسه صلبة يستطيعون بها مقارعة الأعداء، ذلك أنهم يمسكون بها من الوسط بقوة، و يرفعونها عاليا ثم يقذفون بها أعداءهم فتتغلغل فى الأجسام التى تصيبها عميقا بفعل القطع الحديدية الحادة التى تثبت بها من خلف و من أمام.

و إلى هذه الرماح أشار «ثيوفراستس» فى الفصل الحادى عشر من الجزء الرابع من كتابه. كذلك أشار إليها «بلينى» أيضا فى الفصل السادس و الثلاثين من الجزء السادس عشر من كتابه.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۳

و لم نشاهد فى بلادنا الأوروبية سوى قلة من هذه الرماح، ذلك لأنه يحظر على المسيحيين حملها و أنهم يتعرضون لعقوبات شديدة إن هم أقدموا على ذلك، و كذلك إن حملوا بقية أنواع الأسلحة الأخرى التى تستخدم أثناء الحرب خارج البلاد. فإذا ما عثر على أى منهم يحمل هذا السلاح تعرض لمصاعب و مخاطر شديدة. و هذا ما وقع لواحد منهم فى وقتى. فبعد أن عثر على سيف عربى معه و جهت إليه تهمة شديدة لقاء ذلك و حكم عليه بغرامة مقدارها سبعون دوكة فرض عليه أن يسددها فى خلال يومين فإن لم يفعل ذلك ختنوه و اعتبروه تركيا.

و ما خلا الخانات التى مرت الإشارة عنها قبلا، هناك حوانيت كثيرة داخل المدينة و خارجها تباع فيها مختلف أصناف السلع الكبيرة و الصغيرة، الجديدة و القديمة و ما سواها .

ولدى الأهلين «بورصة» يسمونها «السوق» و تقع فى وسط المدينة، و هى أكبر من بورصة «فرايبرغ» فى «بافاريا» تتوفر فيها عدة منعطفات يختص كل منعطف منها بطائفة من أصحاب الحرف و الصناعات، من أمثال العطارين و البزازين و تجار السلع و الأقمشة الصوفية الرفيعة و كل أنواع المنسوجات الحريرية و القطنية، ناهيك عن أصناف غالية من الفراء و على الأخص جلود الحيوانات البرية التى توجد وفرة كبيرة منها فى هذه البلدان.

و فى المدينة عدد من الجوهريين الذين يبيعون مختلف أنواع المجوهرات و الأحجار الكريمة و اللآلىء و ما عداها. يضاف إلى هذا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۴

وجود أصناف أخرى من أصحاب الحرف كصانعى الأحذية و الخياطين و النحاسين و الحدادين و ما عداهم ممن لهم حوانيت فى السوق يمارسون فيها أعمالهم. و لكن الفئة الغالبة بينهم هم صاغة الفضة و الذهب و صانعى الأقفال الذين لا يقل عددهم عن عدد أمثالهم فى بلادنا.

و هناك الخراطون و صانعو السهام الذين يصنعون القسى و الرماح و الذين يحتفظون إلى جانب حوانيتهم بمحلات صغيرة تمارس فيها أعمال الرمى و التهديف يستطيع كل إنسان يمر بها أن يجرب حظه فى التهديف أو أن يختبر سهمه قبل أن يشتريه.

و بعض هذه السهام بسيطة أحيانا لكن بعضا منها يكون مكفتا بالعاج و قرون العظام و غيرها مما يجعل أسعارها متباينة.

و يضع رماة النبال و السهام حلقة فى الإبهام الأيمن- مثلما يفعل النجار عندنا ذلك إذ يضعون أختامهم فى الإبهام الأيمن- حين يريدون إطلاق السهام. و تكون هذه الحلقات مصنوعة من الخشب أو القرون و الفضة، و مرصعة بالأحجار الكريمة فى بعض الأحايين.

و ما عدا هؤلاء فإنك تجد فى الأسواق الكبيرة عددا من «الحلاقين الجراحين» . فإذا لم يجد هؤلاء شخصا يحلقون رأسه أخذوا يطوفون فى الشوارع و هم يحملون معهم أدواتهم مع قطعة من الصابون معدة للعمل. فإذا ما عثروا على شخص يبغى الحلاقة لا يعودون به إلى حوانيتهم ليحلقوا رأسه بل يمارسون هذه العملية فى الشارع أو فى أى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۵

خان قريب منهم، و عندئذ يمسحون شعر رأسه بالصابون ثم يحلقونه كله و لا يبقون منه سوى خصلة طويلة تتدلى من وراء على ظهره.

و فى المدينة أماكن لبيع الرقيق من كلا الجنسين، كبارا و صغارا، يباعون بأسعار مرتفعة أو منخفضة تبعا لقوتهم و جمالهم و ما شاكل ذلك.

و لم أشاهد فى هذه البلاد أية عجلات أو مركبات و يبدو أن هذه ليست مستعملة لديهم. كما أننى لم أعثر فى هذه المدينة الكبيرة على صانع أسلحة يستطيع أن يصلح أى عطب يحدث فى مغلق البندقية، على الرغم من وفرة التجارة التى يؤتى بها يوميّا إلى هذه الأسواق، حيث تستطيع أن تجد فيها، و فى كل أوقات النهار، عددا كبيرا من أبناء مختلف الأمم يطوفون فيها جيئة و ذهابا و يسببون الازدحام فى هذه الأسواق حتى لكأنك فى معرض من المعارض.

و غالبا ما تجد بين هؤلاء المتجولين عددا من الأتراك السكارى الذين يتدافعون مع الناس الذين لا يفسحون الطريق أمامهم و لا سيما إن كان أولئك الناس من المسيحيين . و لهذا ترى المسيحيين لا يخشون مثل هؤلاء السكارى حسب بل يعدون أنفسهم لمثل ذلك مسبقا فإذا ما أبصروا أحدهم- و هم لا يسيرون إلا و حراسهم معهم- استداروا إلى جهة أخرى أو إلى واجهة أحد الحوانيت. و كثيرا ما يحدث أن يحنى بعض الأتراك ظهورهم تجاه الحوانيت فإن مر بهم أحد المسيحيين مدوا واحدة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۶

من أرجلهم أمامه فيسقط و إذ ذاك يهزأون به و يضحكون عليه. على أن بعض المسيحيين ما إن يشاهدوا ذلك حتى يرفسوا الرجل الأخرى التى استند عليها التركى و يدعونه يسقط على الأرض.

و من المعتاد أيضا أن يحاول الأتراك اختبار المسيحيين لمعرفة حقيقة معدنهم و ما إذا كانوا من الشجعان أم لا، للتأكد من ذلك قبل التحرش بهم حيث يواجهونهم أول الأمر بكلمات خشنة، فإذا ما وجدوهم يشعرون بالخوف سخروا منهم و اغتصبوا ما عندهم. أما إذا ما أبدوا مقاومة سامحوهم فى الحال و عدوهم من الشجعان اللائقين لدخول غمار الحروب.

كذلك تجد بين هذا الحشد جملة من المحافظين على النظام و هم «السقاة» و هؤلاء يكونون عادة من الحاج الذين حجوا إلى «مكة» . فهؤلاء السقاة يحملون ماء الشرب فى أوعية جلدية و يتصدقون به على كل من يحتاج إليه بما فى ذلك المسيحيون.

و لما كان محظورا فى القرآن على المسلمين شرب الخمور، فإنك تجد الكثيرين من هؤلاء السقاة يتمسكون بعوائد خاصة. فتراهم

يتنقلون- بدافع من إيمانهم- طيلة النهار بين الناس يقدمون الماء للعطاش منهم بدافع من المحبة و الإحسان و يحمل الواحد منهم فى إحدى يديه قدحا يصب فيه الماء من الأوعية الجلدية التى يحملونها و يضعون فيها عادة العقيق الأبيض و حجر اليشب و غيرهما. كما يضعون فى بعض الأحيان فواكه لذيذة كيما يظل الماء عذبا و منعشا و حين يناولونك شيئا من

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۷

هذا الماء لتشربه، يقدمون إليك مرآة لتنظر إلى نفسك فيها و لتتذكر بأنك هالك و إنك ميت لا محالة!

و هم لا يطلبون إزاء هذه الخدمة أى شىء منك. أما إذا ما منحتهم شيئا ما تقبلوه منك شاكرين، ورشوا على وجهك ولحيتك من ماء يحملونه فى أقداح زجاجية مطوقة بسلاسل نحاسية، إظهارا بهذا مدى شكرانهم لك.

و كذلك يعتبر الأتراك و العرب أن من المودة و الإحسان أن يضعوا أمام دورهم حبابا ملىء بالماء العذب طيلة النهار بحيث يستطيع أى مار أو ظامىء أن يطفىء ظمأه من مائها، إذ يعلقون بهذه الحباب كؤوسا لتناول الماء بها فإذا ما أقبل أحد الناس إلى هذه الحباب و شاهده الآخرون، لحقوا به ورووا ظمأهم منها. و لذلك تجد فى الغالب حشدا من الناس عند هذه الحباب.

أما إن فكرت فى تناول طعام أو شراب فإنك تجد عادة حانوتا مفتوحا لهذا الغرض تجلس فيه على الأرض أو على السجاد و تتناول ما تريده من طعام و شراب.

من بين الأشربة التى يتعاطونها فى هذه البلاد، شراب حسن جدّا يسمونه «قهوة» أسود اللون كالجبر تماما، و هو مفيد جدّا للمرض و لا سيما أمراض المعدة!.

و القوم يتناولون هذا الشراب فى باكر الصباح و فى أماكن مفتوحة أمام كل الناس دون أدنى خوف أو اعتبار. و هم يصبونه فى أقداح صينية و هو جد ساخن فيرفعون القدح إلى شفاههم لكنهم لا يتناولون منه سوى شفة واحدة بين آونة و أخرى. و تدار عليهم هذه الأقداح حين يجلسون و هم يضعون فى هذا الماء ثمرة يدعونها «البن» هى فى حجمها و شكلها

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۸

و لونها تشبه ثمرة التوت، و لها قشرتان رقيقتان تحيطان بها. و قد أنبأونى عنها بأنهم يجلبونها من الهند. و حيث إن كل ثمرة من هذه تحوى حبتين صفراوين ذات قشرتين مميزتين لها، فإنها فى شكلها و صفتها و اسمها تتطابق مع الثمرة التى ذكرها ابن سينا باسم «بانتشو» و الرازى باسم «بانتشا» و لذلك اعتبرها واحدة إلى أن اطلع على حقيقة أمرها من العارفين بها.

و هذا الشراب كثير الشيوع جدّا لدى القوم، و يوجد عدد كبير ممن يتعاطون بيعه، مثلما يبيع الآخرون التوت فى الأسواق. و هم يعدونه من المواد الغالية مثلما نعد نحن فى بلادنا الخمر المصنوعة من الشجر أو التى يجرى تحضيرها من أعشاب و عقاقير أخرى.

و مع ذلك فإن القوم يفضلون الخمر لو سمحت لهم شريعتهم بتناولها، كما شاهدنا ذلك فى عهد السلطان (سليم) الذى سمح لقومه بتناول الخمور و لذلك أخذوا يلتقون يوميّا فى حانات الشراب و لا- يكتفى الواحد منهم بتناول قدحين أو ثلاثة من الخمر غير الممزوجة بالماء، بل و أربعة أو خمسة أقداح أيضا و بشوق كبير طالما كانت مثل هذه الخمور تنقل إليهم من «البندقية» بسرعة.

و كما شاهدتهم أنا نفسى فإنهم لا يتناولون لقمة أو لقمتين من طعام عند تعاطى الشراب، و هذا ما يجعلهم خشنى الطباع بشكل يفوقون به بقية الأمم.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۹۹

و لكن ما أن توفى «سليم» و خلفه ابنه «مراد» فى الحكم حتى أصدر أوامره بحظر شرب الخمور فى أوائل حكمه مباشرة و راح يطارد من يشربونها بمنتهى القسوة إلى درجة أن أى فرد تشم منه رائحة الخمر يسجن فى الحال، و يفصل من عمله، و تفرض عليه غرامة ثقيلة طبقا لحالته المالية، بالإضافة إلى جلده عدة جلدات على قفا قدميه.

و قد حدث، عند ما فرض هذا الحظر، أن كان باشا حلب خارجا من دائرته فى أحد الأيام فشاهد أحد السكارى فى الساحة و ما إن

تأكد من ذلك حتى استل سيفه و قطع به رأس ذلك السكران و تركه جثة هامدة فى مكانه.

و لكن على الرغم من كل هذه الصرامة و شدة الحظر، فإن القوم- و لا سيما الكفرة منهم الذين تعودوا تناول المسكرات- قد اعتادوا فى أيام الصيف أن يحملوا معهم، مثلما يفعل النمل ذلك، كميات كبيرة من الخمور سرّا، و أن يوجدوا لهم بعض الأماكن التى يجتمعون فيها ليلا- و يعكفون على تناول المسكرات حتى تمتلى بها بطونهم ثم يمضون الليل كله فى تلك الأماكن كيلا تشم منهم رائحة الخمر فى اليوم التالى.

و فى الوقت الذى حظر فيه تناول الخمور فى هذه الأقطار كنا، نحن المسيحيين، نتزود بها تزويدا حسنا و بأسعار رخيصة إلى أن جاء الوقت الذى سمح فيه للأتراك بتعاطيها مرة أخرى. رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد ؛ ص۹۹

الخمرة التى يتناولها الأتراك حمراء اللون جيدة و منعشة و هم يضعونها فى زقاق و يأتون بها إلى «حلب» من أماكن عديدة، و لكن بصفة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۰

رئيسة، من مدينة «نصيبين» الشهيرة التى تقع على مسيرة يومين عن حدود أرمينيا. و استعمال الزقاق فى حفظ الخمور ما يزال شائعا كما كان عليه فى العصور السابقة، و كما ورد عن «المسيح» فى إنجيل «متى» حيث جاء فى الآية التاسعة عشرة من الإصحاح التاسع قوله «يجب أن لا يضع المرء فيها خمرة جديدة». و لذلك رأينا المسيحيين قد أبيح لهم تناول الخمور و بيعها و شرائها بالإضافة إلى زرع الكروم فى القرى التى يمتلكونها.

أما الأتراك الذين تحرم عليهم ديانتهم تناول الخمور، فإنهم لا يهتمون كثيرا بزراعة الكروم، و إذا ما فعلوا ذلك فإنهم يعصرون العنب بعدة وسائل، و يصنعون منه الزبيب، و لا- سيما الناس الذين يعيشون فى دمشق و ضواحيها، بينما يعمد آخرون إلى غلى الأعناب ليصنعوا منها الدبس. و نخص من هؤلاء أولئك الذين يعيشون فى مدينة «عينتاب» التى تقع بين «بيره» و نصيبين. و هم يصنعون نوعين من هذا الدبس أحدهما ثخين و الثانى خفيف. و النوع الأول أفضل من الثانى و هم يضعونه فى «براميل» يبعثون بها إلى أقطارنا الأوروبية.

أما النوع الثانى فإنهم يمزجونه و يقدمونه بدلا من «الجلاب»

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۱

كذلك فإنهم يضعونه أحيانا فى أقداح صغيرة يغمسون فيه خبزهم و يأكلونه مثلما يفعلون ذلك بالنسبة إلى الدبس.

و ما خلا- ذلك فلدى الأهلين مرطبات حلوة أخرى يعدونها من أثمار التوت الأحمر الذى يغلونه مع قليل من الدبس الذى يجلبون كميات كبيرة منه من جبال لبنان.

و من المرطبات الأخرى لديهم نوع خاص يسمونه «شربت» يستخلصونه من الدبس، و هو أشبه بالمزيج المخمر عندنا.

ولديهم شراب آخر يصنعونه من نقيع الشعير و الحنطة و حين يتناوله الأتراك يصبحون ذوى رقة و نشوة إذ إن فعله فيهم أشبه بفعل الجعة التى يتناولها شباننا، فهم يغنون و يرقصون على أصوات المزامير و الطبول و الأبواق التى يعزف عليها موسيقيوهم كل صباح عند انتشار الحراس.

و كل هذه المرطبات تباع بوفرة فى أسواقهم الكبيرة تجد السلال مليئة بالثلج و الجليد طيلة أيام الصيف و لذلك تراهم يضعون قطعا من هذا الثلج فى المرطبات التى يبيعونها فتغدو باردة تصطك من شربها الأسنان.

أرى فيما ذكرته الكفاية عن الخمور و الأشربة و أعود إلى الطعام فأقول، إن الخبز الذى يتناولونه هنا جيد و مغذ و أبيض اللون، لا سيما فى مدينة حلب مما لا يوجد مثيل له فى كل أنحاء تركيا، و لذلك فهم يصنعون عدة أشكال من هذا الخبز يمزجون فى البعض منه صفار البيض، بينما يمزجون فى البعض الآخر عدة حبوب كالسمسم و الكزبرة و الزعفران و غيرها.

و اللحوم التى يتناولونها رخيصة و من نوع جيد و ذلك نتيجة للأعشاب الثمينة التى تنمو فى بلادهم و لا سيما فى جبال «طوروس»

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۲

التى تمتد إلى أقصى ناحية فى الشرق، إذ إنهم يجلبون من هناك قطعانا كثيرة من المواشى كالخراف و النعاج ذات الأليات السمينة التى تزن الواحدة منها عدة باونات .. و لديهم إلى جانب ذلك عدد و فير من الماعز التى يسوقونها بأعداد كبيرة كل يوم عبر المدينة و يبيعون ألبانها الدافئة فى عرض الشارع.

و من هذه الماعز نوع صغير الحجم ذو أذان طويلة يبلغ طول الأذن الواحدة زهاء قدمين و إذا ما تحركت عاقتها أذناها عن الحركة.

و لا يعوز الأهلين أى من الحيوانات الأخرى. و يذبح الجزارون هذه الحيوانات خارج المدينة فى مجازر خاصة و لذلك تكثر الكلاب عند هذه المجازر، و يجلب القوم أعدادا كبيرة من صغارها يربونها فتكون مفترسة يطلقونها أثناء الليل للصيد، كما قيل لى ذلك، و هى تشبه الذئاب فى بلادنا.

و لا- يقدم الأتراك على قتل الكلاب بل إنهم على العكس من ذلك يحملون صغارها و يطعمونها و يربونها، و يعتقدون أنهم بهذا العمل يقدمون حسنة مقبولة لدى اللّه العظيم مثل غيرهم من الطوائف الأخرى التى تعيش فى الهند و تعرف باسم «البانيان» التى تعنى بتربية الطيور مثل القطط و الكلاب على حد سواء.

و كلاب الصيد هنا شبيهة بما لدينا فى بلادنا منها من ناحية الشكل و الضخامة، و لذلك يقول «بلينى» إن الذئاب فى مصر أصغر حجما من الذئاب التى تعيش فى الأنحاء الشمالية.

و نظرا لعدم وجود منازل للمسافرين على الطرق الخارجية فإن كل

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۳

مسافر يحمل معه أمتعته و زاده. و لذلك نجد عددا كبيرا من مختلف المخابز فى الأسواق و كل أنواع المأكولات النظيفة من أمثال لحوم الأغنام و الدجاج، و أنواع الحساء و المرق و غيرها، يستطيع المرء أن يشترى منها ما يشاء تبعا لطاقته المالية.

و الطعام الشائع جدّا هنا هو الرز و هم يطبخونه إلى أن ينضج و يغدو لينا. و هناك أنواع من الأطعمة الجاهزة تراها فى قدور من النحاس لدى أصحاب هذه الحوانيت.

و هناك نوع شائع جدّا بينهم يصنعونه من الحنطة و الشعير و يطبخونه، بعد جرشه بالمجرشة، مع الحليب أو بدونه، فى وعاء سميك و هم يسمونه «بنهور» و لكن «ديوسفريدس» أشار إليه فى الفصل الثالث و الثمانين من الجزء الثانى من كتابه باسم (كرمنون) بينما دعاه كل من «ابن سينا» و «الرازى» باسم (سويق) .

و يحتفظ الأتراك بكميات مخزونة وفيرة من هذه المادة، و على الأخص زمن الحرب و هم يجلبونه إلى بلادهم بطريق البر و البحر معا.

و متى احتاجوا إلى الطعام صنعوا منه بديلا عن الخبز.

و من الأطعمة عندهم نوع يسمونه «ترشان» على ما أذكر، و هذا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۴

يصنعونه قويّا أشبه بالغراء حين تسحبه و هم يتركونه مدة إلى أن يجف ثم يقطعونه إلى قطع صغيرة، و يغدو طعاما جيدا و لذيذا حين يطهى.

و يخزن الأتراك كميات كبيرة من هذا الطعام فى حصونهم، مثلما نفعل نحن ذلك بالنسبة إلى الذرة فى بلادنا. فهم يتناولون هذه المادة عند الحاجة بدلا من الخبز أو أى طعام آخر.

و هذه الأطعمة التى يسميها اللاتينيون باسم «السليقة» كانت شائعة جدّا لدى القدماء الذين كانوا يتناولونها فى أوقات الضرورة، و قد

أشار إليها «بلينى» فى الفصل الثامن من الجزء الثامن عشر من كتابه.

فى هذه البلاد أصناف عديدة من الطيور منها الدجاج و البط و الدراج و الحجل و الجهلول و غيرها. غير أن الأسماك قليلة عندهم إذ لا توجد لديهم سوى نهيرات صغيرة تكون مليئة بالسلاحف، و لذلك فإن الأسماك جدّا نادرة فى مدينة «حلب».

و لا يحب الأهلون أكل الأسماك لأنهم يتناولون بسببها كميات كبيرة من الماء، بدلا من الخمر الذى تحرمه ديانتهم، و لذلك فإن القليل من هذه الأسماك يتم الإتيان به إلى هنا من الأماكن الخارجية من أمثال «أنطاكية» و نهر الفرات الذى يبعد مسافة ميلين أو ثلاثة أميال من هنا.

و يعرض الأهلون للبيع كل أصناف الخضار كاللفت و الجزر و الفاصوليا و ما شاكلها، إلى جانب الثمار المجففة كالزبيب و اللوز و البندق و الفستق و الجوز و غيرها.

و يتناول أهل هذه البلاد الشرقية طعامهم على الأرض. فحين يأزف وقت الطعام تفرش الأرض بقطع من الجلد تمد فوقها الأبسطة و المطارح ثم يجلسون عليهم و سيقانهم متقاطعة. و قبل أن يمدوا أيديهم لتناول الطعام يشكرون اللّه ثم يأكلون و يشربون بسرعة متناهية، و يخفى كل واحد منهم ما يجول فى ذهنه، و لا يتحدثون على الطعام إلا قليلا. و يضع

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۵

الأغنياء ملايات من القطن و الكتان حول أعناقهم تتدلى إلى تحت أو يعلقونها فى أحزمتهم بدلا من المناديل.

و لا تتناول النساء الطعام مع الرجال بل يظللن قابعات فى حجراتهن الخاصة بهن.

و حين ينتهى الرجال من تناول الطعام ينهضون سوية و بخفة لا يستطيع أبناء بلادنا تقليدهم فيها حتى لو مكثوا فى هذه البلاد ردحا من الزمن، ذلك لأن المفاصل تكون قد تخدرت بفعل تقاطع السيقان عند الجلوس بحيث تصعب إعادتها بيسر إلى حالتها السابقة.

و عندئذ تلف موائد الطعام بما بقى فيها من خبز و زاد و تلقى فى إحدى الزوايا.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۷

الفصل السابع مغادرة حلب إلى مدينة (بير) الشهيرة و سفرى من هناك فى نهر الفرات إلى بابل القديمة

بعد أن مكثت فترة لا بأس بها فى «حلب» اطلعت عليها و عرفت التجارة و البضائع التى يتعاطى بها السكان هناك مع غيرهم من أفراد الأمم الأخرى كالإغريق، و الأرمن، و الكرج، و العرب، و الفرس، و الهنود، و التى يجلبونها و يصدرونها فى قوافلهم يوميّا، و بعد أن أحسنت الاطلاع على طرقهم و عاداتهم و فهمتها جيدا، و جمعت رزمة من نباتات أجنبية غير معروفة قبلا، استقر بى الرأى على المضى فى السفر إلى بلاد الرافدين، و آشور و بابل و غيرها من الأقطار القديمة الخصبة حيثما وجدت، و التى كانت تقطنها الشعوب القديمة و الملوك الأشداء. أما تلك البلدان التى تقع بعيدا جدّا، و التى يمر الطريق إليها عبر صحارى و قفار شاسعة فإن محاولة السفر إليها و تحقيق ذلك، تكون أكثر مشقة و أشد خطرا. و على هذا فقد رحت أتطلع فى الدرجة الأولى إلى رفيق سفر أثق به ليكون مساعدا لى. و إذ ذاك صادفت فى الحال أحد الهولنديين ممن أمضوا فترة طويلة فى حلب، فاستجاب إلى طلبى (لأنه كان هو الآخر يرغب فى هذه

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۸

الرحلة بذات الإحساس الذى كنت أحس به) و أن يصحبنى فى ذلك.

و هكذا اتفقنا على التو، و حددنا الطريق المفضل الذى ينبغى لنا أن نسافر فيه.

و لما كنا أغرابا فليس من المستبعد أن يعتبرنا القوم (و هم كثيرو الشك) من المتشردين أو الجواسيس. و إذ ذاك سينتهزون الفرصة رأسا (مثلما اعتاد الأتراك أن يفعلوا ذلك) فيفرضون علينا إتاوات أو ضرائب فادحة و بالشكل الذى يتعرض له المسيحيون الذين

يتعاملون مع هذه الأنحاء، من خسائر و أضرار جسيمة.

و حين أخذنا ذلك بنظر الاعتبار وجدنا أن التجارة هنا واسعة جدّا فهى لا تنقل من هنا إلى أرمينيا و مصر و اسطنبول حسب (حيث تنقلها القوافل من هناك عبر الأناضول فى مدة شهر تقريبا) و إنما ترسل بنطاق واسع إلى فارس و الهند. و على هذا رأينا أن من الأفضل لنا أن ندعى بأننا من التجار، كيما نستطيع أن نسافر بأمان مع التجار الآخرين، و أن نشترى بعض السلع التى تباع فى تلك الأقطار و نحملها معنا إلى مسافات بعيدة.

و حين شرعنا ننفذ هذه الخطة عانى صديقى الذى أشرت إليه و هو «هانز اولرخ رافت» من مدينة «اولم» مشاق كثيرة فى تزويدى- طبقا لرغبتى و طلبى- بطائفة من السلع التى تباع فى تلك البلدان على حساب نصيرى المستر «ملشيور ماناليش» و إذ ذاك حزمتها لأذهب بها إلى مدينة «بغداد» التى تقع على نهر دجلة و التى ترسل منها أصناف التجارة إلى فارس و الهند.

و لما كان يندر وجود أى من التجار الذين يودون السفر من حلب إلى تلك الأقطار، كما يندر وجود أى نوع من ملابسنا هناك، فقد ارتدينا الملابس التركية (كيلا يظن بأننا من الغرباء)، و قد بدأنا أول الأمر بارتداء

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۰۹

قباء طويل أزرق اللون مزرر من الأسفل و مفتوح عند الرقبة، و هو لا يشبه النوع الذى يستعمله الأرمن، و سراويل مصنوعة من القطن تنحدر إلى حد الكعبين ثم تلف و تربط حول أجسامنا، و فوق ذلك قمصان من دون بنائق. و اعتمرنا بعمائم بيضاء ذات شريط أسود من النوع الذى يستعمله المسيحيون عادة، ثم انتعلنا أحذية صفراء صقيلة مدعمة بمسامير من الأمام و بهماز حصان من الخلف. و ما خلا ذلك لبسنا نوعا من صدرية سوداء مصنوعة من نسيج خشن يسمونها فى لغتهم باسم (مسكا) و هى شائعة الاستعمال لدى المسلمين و هى تصنع من شعر الماعز أو الحمير عادة و تكون ضيقة نوعا ما و بلا أردان و قصيرة لا تصل إلى أسفل من حد الركبة. و الأنسجة التى تصنع منها لا تكون متشابهة و لعل أحسن صنف منها (و هو مخطط بخطوط بيضاء و سوداء) يستعمل بمثابة رداء، فى حين يستعمل النوع الخشن منه فى صنع الخيام و الأكياس التى تنقل بها المؤن عبر الصحراء كما ينقل فيها علف إبلهم و بغالهم حيث يعلقونها فى أعناقها.

و قد ذكرنى هذا الملبس بالألبسة البسيطة التى اعتاد سكان هذه الأقطار أن يرتدوها (و لا سيما الإسرائيليون حين يبكون موتاهم، أو حين يندمون على اقترافهم بعض الآثام، أو الابتعاد عنها، و عند ما يصلون للّه ليغفر لهم خطاياهم المتراكمة)، كما قرأنا ذلك فى الإصحاح السابع و الثلاثين من سفر «الخليقة» حين راح «يعقوب» يندب وفاة ولده «يوسف»، و كما هو الأمر أيضا فى كتاب النبى «يونس» عن سكان (نينوى) الذين آمنوا بكلمات النبى التى أنذرتهم بالفناء فى مدة أربعين

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۰

يوما. و أن يقلعوا عن ذنوبهم، و أن يرتدوا المسموح، و يصلوا للّه ليعفوا عنهم.

و مثل هذا قرأنا أيضا فى كتاب الملك و النبى «داود» بعد أن أحصى عدد أفراد شعبه. فقد وردت فقرة فى الفصل العاشر من إنجيل «لوقا» و فى أماكن أخرى، أنهم كانوا يلبسون المسوح و يفترشون الرماد.

بعد أن أعددنا أنفسنا على هذه الشاكلة للسفر، و تزودنا بكل الأشياء الضرورية من سلع و ملابس و مؤن من الخبز و الشراب، مكثنا ننتظر بعض الرفاق الذين قد يسافرون معنا، بقينا- مع ذلك- مترددين فيما إذا كان من الملائم أكثر لنا أن نسافر برا مع القوافل التى كانت تنطلق من هنا و من دمشق بكثرة إلى بغداد عبر رمال و صحارى واسعة فى مدى خمسين يوما، و قد تزيد أو تقصر، تبعا للأحوال الجوية، أو أن نسافر بطريق النهر فى دجلة أو الفرات حين تحين فرصة السفر مع الآخرين.

لكن الشىء الذى حدث هو أن التقينا ببعض التجار من الأرمن الذين كانوا يسكنون فى «حلب» و الذين تزودوا بالسلع أيضا و اعتزموا السفر إلى ذات الأقطار التى نقصدها، و إذ ذاك اغتنمنا هذه الفرصة لأن هؤلاء كانوا من ناحية يعرفون اللغتين التركية و العربية و هما

اللغتان السائدتان بصفة رئيسة فى سوريا، و من ناحية ثانية لأن البعض منهم سبق له أن سافر أربع مرات إلى الهند، و هكذا ضممنا بضائعنا إلى بضائعهم و أوسقنا بها عددا كبيرا من الإبل على أن تسلم إلينا فى مدينة «بير» لنمخر من هناك نهر الفرات.

و لما كنا سوف نجتاز الممالك التركية فقد حصلنا على جواز مرور من الباشا و القاضى، و هكذا بدأنا سفرتنا إلى «بير» التى تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن حلب، فى اليوم الثالث عشر من شهر آب ۱۵۷۴ م.

***

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۱

كنا فى الطريق غرباء أحدنا إلى الآخر. و كان من الصعب، و نحن نرتدى الملابس الشائعة، أن يميز الواحد منا الآخر فى هذا الجمع من القوم.

و بعد أن سلكنا طريق وعرا فى اليوم الأول من رحلتنا، و اجتزنا صحارى و أماكن عديدة خالية من السكان، وصلنا عند المساء إلى قرية صغيرة توقفنا عندها و نصبنا خيامنا هناك و قد وضعنا أمتعتنا على شكل دائرة من حولنا، و لم نضع معها دوابنا (كما جرت العادة ذلك عند وجود قافلة كبيرة) كيما نرد عنا هجمات الأعراب ليلا.

و بعد منتصف الليل بقليل سمعنا أصوات قافلة كبيرة مؤلفة من إبل و حمير، تمر بنا و على مقربة جدّا منا، و لذلك استيقظنا من النوم حين مرت بنا، و رحنا نتعقبها فى سيرنا.

و حين بان ضوء النهار شاهدنا حقولا محروثة أكثر عددا مما رأيناه فى اليوم السابق، كما شاهدنا هنا و هناك فى كثير من الأماكن البهيجة خيام الأعراب و قد تلاصقت إلى بعضها البعض و بدت و كأنها معسكر، و امتدت فى شكل شوارع منتظمة.

و بعد أن واصلنا السير فى مشقة ذلك الصباح و بان الكلل على دوابنا الموسقة بالأحمال من شدة الحر، عمدنا إلى الاستراحة قليلا خلف معبد صغير لنريح أنفسنا و نطعم دوابنا.

و فى الوقت ذاته انحدرت إلينا بعض النساء الفقيرات من ربوة، ليجمعن روث الإبل بغية استعماله وقودا بدلا من الحطب الذى كن فى أمس الحاجة إليه.

و حين ولت شدة الحر، و كنا قد مكثنا هناك مدة ساعتين، واصلنا السير ثانية فبلغنا، قبل حلول الظلام قرية صغيرة تقع فى أحد الأودية أقام الأعراب على أرض مرتفعة قريبة منه، مخيما كبيرا لهم. و قد صعدنا إلى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۲

ذلك المرتفع و نصبنا خيامنا فى أرض مستوية قريبة من مخيم الأعراب، و بقينا فى حراسة و مراقبة دقيقة، و سرعان ما أقبلوا علينا و تحدثوا إلينا برقة، كما جلبت نساؤهم لنا الماء و اللبن الجيد.

و لما كنا قد رأينا القوم عراة جياعا و هيئاتهم أشبه بهيئات الغجر، فقد أبينا أن نضع ثقتنا فيهم، و ظللنا نراقبهم مراقبة جيدة طول الليل.

لقد كان هؤلاء من الأقوام الرحل، أى أنهم اعتادوا حياة البطالة و الكسل منذ الصغر. و هم يحتملون الجوع و الحر و البرد أكثر من أن يحصلوا على شىء ما من أعمالهم اليدوية، أو يزرعوا الحقول، أو ينشئوا البساتين لإدامة حياتهم، و إن كانوا قد يفعلون ذلك فى بعض الأماكن الخصبة التى تقع تحت تصرفهم، و لذلك فأنت تجد هنا عددا كبيرا منهم يعيش فى أطراف هذه الصحارى الرملية التى لا يعيش فيها إنسان، لكنهم يعيشون فى خيامهم أشبه بمعيشة الحيوانات فى الكهوف أو يتنقلون بكل حرية، مثل الغجر، من مكان إلى آخر إلى أن يستقروا فى أحد هذه الأماكن فيستمرئوا العيش فيه مع مواشيهم لفترة طويلة، حتى إذا أتوا على كل ما هو موجود من طعام دفعتهم الحاجة إلى الارتحال من هنا بحثا عن مكان آخر .

و فى الخامس عشر من الشهر و قبل أن يطلع ضوء النهار، نهضنا فى صباح بارد و نحن نعتزم أن نبلغ مدينة «بير» عند المساء. غير أن دوابنا كانت جد متعبة بسبب شدة الحر و ثقل الأحمال التى كانت تحملها إلى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۳

درجة أنها كانت تسقط من شدة الإعياء عدة مرات، فى الوقت الذى كنا نبحث فيه عن مكان ملائم نمضى الليل فيه، إلى أن اهتدينا أخيرا إلى قرية نصبنا خيامنا على مقربة منها حيث تناولنا بعض الخبز و اليقطين و أخلدنا بعدها إلى الراحة.

و قبل أن يطلع النهار بساعتين استأنفنا مسيرتنا مرة أخرى فوصلنا فى الصباح الباكر إلى نهر كبير يدعى «الفرات» عبرناه بما كان معنا من سلع و متاع، ثم ضربنا خيامنا أمام المدينة، و على مقربة من النهر فى الجانب الآخر منه، و ذلك انتظارا لسفينة قادمة من أرمينية فى طريقها من هناك إلى «بابل» التى تدعى الآن «فلوجة» .

لم أر هنا أية نباتات تستحق الاهتمام سوى الخلنجان الذى يسمى عندنا فى هولندا باسم «السذاب» و هو ينمو بكثرة فى الوديان الجافة.

كما شاهدنا على مقربة من الطريق أول نوع من شجرة نسميها نحن «سم الكلب» و هى بأوراقها و عذوقها تشبه شجرة «الخالندين» شبها كبيرا.

كما شاهدنا مساحات شاسعة من الأراضى مزروعة بنوع من القمح التركى ندعوه «جلجلان» بالإضافة إلى مساحات أخرى زرعت بالقطن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۴

و بأشجار «الأيسولا» المليئة بالحليب و هذه تغطى مساحات واسعة من الأراضى الخالية التى يمكن زرعها بالقمح.

و لقد وجدنا هنا نبة «السقمونيا» التى يؤتى بها إلى حلب، و التى يمكن مزجها مع حبات الأيسولا. و على مقربة من المدينة كانت أشجار الأكاسيا تنمو بكميات وفيرة، و هم يسمونه هنا باسم «الشوك» و الشاموك و ثماره أكبر حجما و أكثر وفرة مما رأيت من أمثاله فى أى مكان آخر.

تقع مدينة «بير» على الجانب الآخر من نهر الفرات الكبير ضمن أراضى ما بين الرافدين و على مقربة من جبال طوروس مثلما تقع طرابلس قرب جبل لبنان، أو تقع مدينتنا «لوزان» على مقربة من جبال الألب.

و المدينة ليست كبيرة و لا محصنة، و لكن يمكن الدفاع عنها جيدا بالقلعة التى تستقر على صخرة عالية تقع على حافة النهر و لا يمكن الاستيلاء عليها بيسر.

و يحيط بالمدينة ريف جميل جدّا، فائق الخصب (ذلك لأن هذا الجانب من النهر يتألف بصفة رئيسة من أرض سهلية) و كان القوم قد

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۵

أتموا دراسة القمح حين وصولنا إلى هناك، و أخذوا يضعونه فى عربات تجرها الثيران. و قد تناثرت هنا و هناك قرى حسنة المنظر، لكن المنطقة التى تأتى بعد النهر كانت مرتفعة و هى من نوع الأراضى التى تمتد مسافات طويلة إلى الشرق، و تفصل أرمينية عن بلاد ما بين النهرين. و لم نر فى بقعة مرتفعة جرداء سوى بعض الشجيرات و الأدغال، و عددا كبير من الحيوانات، و لا سيما الخراف و الماعز، و هذه يؤتى بها كل يوم لتنقل من هناك عبر نهر الفرات ثم يدفع بها إلى حلب و الأماكن القريبة الأخرى.

و يبلغ عرض النهر فى المكان الذى يجرى فيه عند المدينة حوالى ميل، و هو عميق الغور و ليس من اليسير إقامة جسر فوقه. و مع ذلك، و لأنه لا يجرى سريعا فى ذلك المكان، فلا يوجد أى خطر من الملاحة فيه إلا عندما يصبح عريضا جدّا (كما يحدث ذلك أيام الفيضان حين يجرى وسط الصحارى الكبرى)، أو حين يتفرع إلى فروع عديدة، ففى مثل هذه الأحوال لا يعرف الملاحون الماء الأفضل الذى ينبغى لهم أن يسيروا فيه، فى الوقت الذى يخيل فيه إلى التجار أن فى مقدورهم أن يصلوا بتجارتهم إلى «بغداد» بأسرع وقت و بأقل أذى. فهؤلاء التجار يحملون تجارتهم برا إلى «أورفه» و إلى مدينة «قره آمد» الشهيرة التى تقع على مسيرة ستة أيام إلى الشرق عند حدود آشور و ماذى .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۶

و تقع بغداد على نهر دجلة السريع الجريان و هى تعد مستودعا كبيرا للسلع التى ترسل منها إلى «هرمز» و الهند. و مياه نهر الفرات عكر دوما و لذلك تكون فى الغالب غير ملائمة للشرب، إلا بعد أن يظل الماء ساكنا مدة ساعتين أو ثلاث، و يترسب الرمل و الوحل منه فى القعر فيكون سمك هذا الراسب زهاء البوصة أحيانا. و على هذا نجد السكان فى الدور التى لا آبار فيها فى المدن و القرى الممتدة على ضفاف النهر، يستعملون أوعية كبيرة يملأونها بماء من النهر ثم يدعونها ساكنة إلى أن يروق ماؤها. أما إذا أرادوا أحيانا شرب الماء قبل أن يروق فإنهم يشربونه بمناديلهم.

جلب لنا الأهلون، خلال مكوثنا فى المدينة، عدة أنواع من السمك اصطادوه من النهر بقصد البيع. و كان من بينها نوع يعرف باسم «الجرى» و هو فى شكله و حجمه يشبه النوع المعروف باسم «الشبوط» لكن بطنه أكبر و أوسع و أقل سمكا و كانت الواحدة من هذه الأسماك تزن أحيانا ثلاثة أرطال، أو ما يعادل سبعة عشر أو ثمانية عشر باوندا.

و هذه الأسماك لذيذة الطعم جدّا و زهيدة الثمن إلى درجة أننا استطعنا أن نشترى واحدة منها بمبلغ «معدنى» واحد و هو يعادل فى عملتنا ثلاثة بنى .

و حين أراد ملاحو قاربنا اصطياد السمك شرعوا يرمون فى النهر

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۷

بحبات ممزوجة بمادة (الكوكولوس) و هو ثمر يسمونه (دم السمك) فبعد أن يطفو السمك على سطح الماء تماما يقفز الملاحون من القارب و يمسكون بأعداد منه.

كذلك شاهدت نوعا مميزا من النسور أليفا إلى درجة أنه لا يحتشد فوق البيوت حسب بل و يقبع فى الشارع أيضا أمام الناس من دون خوف، و هو رمادى اللون بالنسبة إلى الأنواع الموجودة عندنا. و هناك نوع آخر من هذه الطيور أكبر حجما و أخف لونا من الأخرى ذات طرر سوداء فى أواخر أجنحتها تشبه اللقالق المعروفة فى بلادنا، و هذه تأكل اللحوم و الجيف و تكون فى بعض الأحيان أشد شراسة.

و الثابت أن هذه الطيور من النوع الذى أطلق عليه الرازى اسم دجاج الوادى و دعاه «ابن سينا» باسم «الرخم» .

أثناء مكوثنا بعث السلطان بأحد الباشوات و معه بضع مئات من الفرسان المسلحين تسليحا جيدا لشن الحرب ضد الدروز ليستطيع

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۸

بذلك حماية حدود سوريا و بلاد الرافدين و أرمينيا و غيرها من الهجمات التى يشنها هؤلاء، و لنشر الأمن فى تلك الربوع.

و كان الدروز يسكنون جبال لبنان، و قد تزايد عددهم فأصبح فى مقدورهم أن يقذفوا بستين ألف نفر إلى ميدان القتال، (و معظمهم من حملة البنادق المجربين). فإذا ما وقع حادث استطاعوا أن يأتوا بأولئك الجند دفعة واحدة فى وقت قصير.

و لقد رأى السيد الأعظم أن عددهم يتزايد يوما بعد آخر و لذلك خشى من أن يصبحوا فى وقت من الأوقات جدّا أقوياء بالنسبة إليه، و لكى يحول دون ذلك (كما سارت الأحاديث بها فيما بعد) و يخضعهم لإمرته، فقد اتصل ببعض الباشوات و الألوية ، بصفة رئيسة بباشا دمشق، و طلب إليهم أن يجهزوا جيشا كبيرا و يطبقوا به عليهم. أما كيف استطاع السيد أن يضربهم و كيف انقض عليهم فذلك ما سأسرده بالتفصيل بعد عودتى لأننى لم أسمع فى هذا الوقت و فى أسفارى الشىء الكثير عن هذا الحادث .

كان الجند الذين جاؤوا مع الباشا، و لكيلا يظلوا خاملين، يتمرنون على إطلاق السهام، أو المبارزة بالسيوف أو النبابيت. و كان أبناء البلاد، فى بعض الأحيان، يشتركون معهم فى ألعابهم تلك و لكن ليس بأنواع كثيرة من الأسلحة التى يستعملها المتبارون فى بلادنا، أى الخناجر و السيوف و الرماح، لأن هذه الأسلحة ليست على تلك الشاكلة فى هذه البلاد. فهم يستعملون بدلا منها، النبابيت أو الهراوات، إذ يقترب

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۱۹

الواحد من الآخر ثلاث مرات و لكن من دون مباهاة و تفاخر كما يفعل ذلك المتبارون عندنا قبل أن يبدأوا المبارزة، إذ إن ملابسهم الطويلة تعوقهم عن ذلك. و تراهم يحملون فى اليد اليسرى ترسا يبلغ قطره حوالى قدم واحد يكون مغلفا بالجلد و مخيطا بخيوط الشعر و فى اليد اليمنى يحملون الهراوات و إذ ذاك يوجه الواحد منهم ضرباته فى أول جولة، كما يفعل ذلك الصبيان فى بلادنا. أما فى الجولتين الثانية و الثالثة فهم يتقارعون بالهراوات و على الأخص فى الجولة الثالثة التى تعد الجولة الأخيرة، إذ يرمون تروسهم بمهارة و قد يضرب الواحد منهم سيقان الآخر أحيانا و لكن دون أن يؤذيه. فإذا ما وقع تراجعوا إلى الوراء و انصرفوا.

فهذا النوع من المبارزة كثير الشيوع فى هذه البلاد .

*** بعد أن مكثنا فترة طويلة وصلت عدة سفن قادمة من أعالى نهر الفرات و كانت من بينها السفينة التى مكثنا طيلة هذه المدة فى انتظار وصولها إلينا.

بدأ ربان سفينتنا يوسقها بالحمولة و يعد العدة كيما نبرح ذلك المكان. و فعلت ذلك نفسه سفينتان أخريان كانتا تستعدان للإقلاع سوية معنا، و كانت أحدهما تعود إلى الأتراك و هى موسقة بالقمح وحده تنقله إلى بغداد لندرته هناك بسبب شدة الحر و انحباس المطر.

و لقد ابتعنا عدة أنواع من الفاكهة من أمثال الزبيب و العنب و الثوم و البصل و غيره، كما حملنا معنا شيئا من الذرة لأنها نافعة فى الأسفار إذ تصلح لمزجها مع دقيق الرز و صنع السجق منها أو لعمل الخبز، كذلك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۰

حملنا معنا شيئا من العسل و المواد الأخرى التى نستفيد منها فى السفينة.

ذلك لأنه كان علينا أن نقطع بواسطة النهر طريقا طويلة عبر الصحارى و الأماكن العديدة غير المأهولة مما لا يمكن الحصول فيها على الطعام، إذ لا توجد فنادق على امتداد هذا النهر كما هو الأمر بالنسبة لنهرى «الراين» و «الدانوب» اللذين تكثر فيهما مثل هذه الأماكن التى يتوفر فيها الطعام للمسافرين.

و لما كان ينبغى لنا أن نزود أنفسنا ببعض الأطعمة الساخنة أحيانا فقد تزودنا بعدة أدوات للطبخ (كما هو المعتاد فى مثل هذه الحالات) لطهى اللحم فيها.

كان ربان سفينتنا ما زال فى حاجة إلى المزيد من المسافرين و البضائع التى ثقلها سفينته، و لذلك أرغمنا على المكوث فترة أطول انتظارا لتجار آخرين جاؤوا إلينا بعد وقت قصير من حلب (و كان بينهم بعض الأرمن و البعض الآخر من الفرس، و آخرون من بغداد و البصرة كذلك ركب مع هؤلاء فى ذات السفينة أربعة جنود من الأتراك أرسلوا إلى بغداد لتعزيز الحدود مع فارس. كذلك نقل ربان السفينة بعض اليهود و هم أسوأ من اليهود فى بلادنا و طلب إلينا أن نعنى بهم. و فضلا عن ذلك أجبرنا على أن ننقل معنا بعض الدراويش الذين تمرسوا على الاستجداء و أصبحوا يعتمدون عليه فى معيشتهم فتراهم يطالبونك أن تتصدق عليهم بشىء ما لوجه اللّه و مع ذلك فإذا ما تهيأت لهم أية فرصة انقضوا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۱

عليك و سلبوك ما تحمله معك. و هؤلاء سيئو الخلق كسالى لكنهم أشداء لأنهم يجوبون كل الأقطار، و يتحملون المزيد من الأذى، و لذلك ينبغى للمرء أن يعنى بهم عناية خاصة و لا سيما أثناء الطريق. و مع هذا فإنهم على الرغم من كل ذلك يتمتعون بامتيازات كبيرة فى هذه البلدان. فهم يتظاهرون بالقدسية و العبادة و يؤدون الصلاة غالبا، و يقنعون السذج من الناس بأن اللّه يتقبل صلواتهم قبل غيرهم، و أنهم يمنحون الغير بركاتهم.

على أن الناس ليسوا الآن على استعداد لتصديقهم كما كان يفعل ذلك أجدادهم من قبل. فهم لا يمكثون طويلا فى مكان واحد لأن

حيلهم تنكشف دائما.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۳

الفصل الثامن الطريق الذى سلكناه بالسفينة. التوجه نهرا إلى الرقة. مجيء نجل أمير العرب إلى سفينتنا مطالبا بالإتاوة

بعد أن أوسقنا سفينتنا و السفن الأخرى التى كانت معها، و بعد أن غدت كل اللوازم الضرورية لذلك، صعدنا إلى السفينة فبدأت رحلتها باسم اللّه فى مساء اليوم الثلاثين من آب سنة ۱۵۷۴ م (بعد أن مكثنا هناك سبعة عشر يوما) و نحن نعتزم أن نقطع فى تلك الليلة الثلاثين فرسخا غير أن اثنتين من السفن انسابتا فى واحد من فروع النهر العديدة منذ البداية، و إذ ذاك عانى ملاحونا أتعابا شاقة فى دفعهما إلى الاتجاه الصحيح و هكذا بقينا ننتظرهم و قد أتعبنا الانتظار كثيرا، و عندئذ أمضينا الليلة فى سوق مدينة تدعى (كسرة) تقع على قمة ربوة و على بعد فرسخ من المكان الذى حللنا فيه.

و حين طلع النهار فى صباح اليوم التالى صعدنا إلى السفينة فاستأنفنا السفر و كنا فى البداية محظوظين، إذ أخذت جبال طوروس التى كانت تقع على يسارنا و تمتد إلى ناحية الشرق، تختفى عنا تدريجا، و من ثم

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۴

اتجهنا إلى ناحية اليمين كان النهر فيها يسير وسط صحارى واسعة و مناطق تمثل الأرض العربية ، ثم يتفرع إلى فروع عريضة يصعب على الملاحين تعيين الاتجاه الصحيح الذى يسيرون فيه.

عندما بدأ السير فى النهر لم نكن نتوقع أى خطر نتعرض له لأن السفينة التركية سبق لها أن مرت قبلنا بسلام فى أحد تلك الفروع، لكن السفينة الثانية التى كنا نسير وراءها ما لبثت أن استقرت فوق الرمال لأن ملاحيها أهملوا توجيه سيرها فى المجرى الصحيح فهى لم تنغرز فى المكان الذى استقرت فيه حسب بل و سدت علينا الطريق أيضا و قد أدارها الماء بعنف فوقفت معترضة، و اندفعت سفينتنا فوقها رغما عنا لأننا قريبين منها، لأن سفينتنا كانت تجرى بسرعة لم نستطع معها تغيير اتجاهها.

و قد نتج عن الاندفاع و التيار و الاصطدام بالسفينة الواقعة أن تحطم الجانبان المرتفعان منها فتدفق الماء إلى داخلها و غرقت فى أعماق النهر.

و مع أن سفينتنا لم تصب بأى ضرر إلا أنها لم تستطع مواصلة السير حيث ربطناها بالسفينة الغارقة بغية انتشالها من الماء و بعد جهد شاق بذلناه فى إزاحة الرمال من تحت السفينة الغارقة و فسح الطريق لإخراجها سالمة، استطعنا أن ندفع نصفها إلى الماء العميق أمام سفينتنا، و سرعان ما دفع بها ماء النهر بشدة فارتطمت بسفينتنا و حطمت أحد مجارفها و قسما من جنبها، و لو أن المجذاف الآخر كان قد تحطم لتكرر ذات العطب و الضرر اللذين وقعا قبلا.

و حين كنا على مثل تلك الحالة، و قد تركز تفكيرنا فى الهلاك الذى ينتظرنا سوية لأن ربنا الرحيم قد أراده لنا، وصلنا قرب الشاطىء،

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۵

و اندفعنا فى المجرى القديم للنهر من دون أدنى عائق فأقلعنا قبل أن تقلع السفينة الأخرى، ثم نزلنا إلى البر مباشرة.

نهضنا بعد استراحة قصيرة للعمل على إنقاذ السفينة الأخرى فأنزلنا حمولة سفينتنا و حملنا لها ما كانت تحمله تلك السفينة الواقعة ثم أنزلناها بسرعة إلى الماء.

و فى الوقت ذاته ظهر من وراء الأدغال و شجيرات الطرفاء على ضفتى النهر عدد من الأعراب كان البعض منهم يمتطى ظهور الخيل بينما كان البعض الآخر راجلين و قد أقبلوا إلينا غير هيابين من حرسنا و هم يحاولون، بعد أن غادرنا، سلب ما نحمله من بضاعة.

لكنهم ما إن جوبهوا بالمقاومة، و سمعوا بضع إطلاقات انطلقت من بنادقنا (و لم تكن البنادق معروفة لديهم) حتى تملكهم الخوف،

فأداروا لنا ظهورهم، و ولوا الأدبار مسرعين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

و فى الأخير حاولنا أن نخرج من السفينة بعض الأمتعة الصغيرة فأصبنا فى ذلك نجحا طيبا، ثم ما لبثنا أن نشرنا قلوع السفينة و دفعنا بها باذلين فى ذلك كل ما توفر لدينا من جهد و طاقة إلى أن استطعنا فى النهاية تحريكها و إطافتها على سطح الماء. و مع أن ما ضاع من حمولتها كان ضئيلا فى كميته إلا أن ذلك كان أكثرا قدرا بالنسبة إلى الرز و القماش و النسيج الدمشقى و الصابون و السكر و جذور نبات «الزرنب» التى تستعمل لمعالجة أوجاع الظهر. كذلك حدث تلف كبير ببعض القمح و التين الذى استجداه ركاب السفينة منا.

كان بودنا لو مكثنا زمنا أطول معهم إلى أن تجف أمتعتهم و تصلح سفينتهم ليصبح فى مستطاعهم السفر معنا فى مزيد من الأمن عبر هذه الصحارى، و ذلك أمر أظهرنا استعدادنا التام لإنجازه.

حدث أثناء مكوثنا مع ركاب تلك السفينة و مساعدتنا إياهم أن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۶

اتهمت أنا و رفيق لى، من قبل بعض اليهود علانية بتهمة السكر مع ربان السفينة. و كان غرضهم من ذلك التدليل على أننا كنا من الأجانب و أن يحطوا من منزلتنا و يجعلونا ممقوتين، لأنهم لم يقبلوا- حسب تقاليدهم- تناول الخمر معنا. و لقد نجح أولئك اليهود فى غرضهم ذاك النجاح كله، فما إن علم رجال الدين بهذا حتى حنقوا علينا و أخذوا قارورة الخمر و قذفوا بها فى النهر، ثم ما فتئوا أن أخرجوها من النهر و سكبوا ما فيها من خمر على الأرض. و كان من جراء ذلك أن اغتاظ الجند الذين كانوا يقفون معنا من هذا التصرف فشرعوا يوجهون إلى اليهود أقسى الكلمات تعزيرا و توبيخا و راحوا يهددون كل مسيء بالعقاب. و فى اليوم التالى تلقى الشخص الذى تزعم تلك الحركة، و كان عربيّا تابعا لإحدى فرق الدراويش، عقابا شديدا لحادث تافه وقع منه مصادفة و من دون قصد .

و إذ كانت أمتعتنا لما تزل مطروحة على أرض الشاطىء فقد أمضيت الليل فوق الأكياس إذ جاء دورى فى الحراسة ليلتئذ. كان أحد الأفراد يحمل بيده كوز ماء فطلبت إليه أن يناولنى إياه لأشرب منه شيئا. و حين مد يده بالكوز و هممت أن أتناوله منه، و طأت مصادفة قيثارة أحد الأتراك فحطمتها. و مع أن ذلك التركى كان فى مقدوره أن يثور ساخطا جراء ذلك إلا أنه ما لبث أن هدأ بعد أن علم أن لدى من الصمغ ما أستطيع أن أصلح به القيثارة. و فى الصباح جلسنا سوية فأصلحناها جهد المستطاع. و حين رآنا ذلك الدرويش منهمكين فى إصلاحها أخذ منه الغضب مأخذه لأننا لم نساعد الآخرين فى نشر الأمتعة المبتلة التى انتشلت من السفينة الغارقة، و لذلك تناول القيثارة من بيننا فحطمها و رمى بها فى النهر ثم عاد و هو يتظاهر بتوجيه كلماته نحونا ظنّا منه بأنه سينجح فى هذا مثلما نجح

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۷

فى قضية قارورة الخمر. غير أن صاحب القيثارة ما إن شاهد ذلك حتى تناول من الأرض خشبة كبيرة و راح يهوى بها على رأس ذلك الدرويش و على أطرافه عدة مرات حتى تدفق الدم من رأسه و أذنيه. و اشتط غيظه فى آخر الأمر فسحب بندقيته و حاول أن يضرب بها ذلك الدرويش و عندئذ فصلنا بينهما فتمت تسوية تلك القضية و إحلال الصلح بينهما.

كان منظر ذلك الدرويش مخيفا جدّا بشعره الأسود الطويل المسترسل و كانت تغطى بدنه و رأسه و صدره و ذراعيه ندوب كثيرة أحدثها هو بنفسه لأنها تعتبر من الأمور المفيدة فى نظر تلك الطائفة و غيرها، مما يفعله غيرهم من الأتراك الذين يحتفظون بحروقهم البدنية و ذلك باستعمال جمرات متأججة حمراء أو قطع من الكتان يبلغ سمكها زهاء البوصة يلفونها بقوة فتكون مفرطحة من الأسفل و مدببة من الأعلى على شكل هرم تماما، ثم يشعلون فيها النار و يضعونها على أجسامهم العارية و يدعونها تحترق و هم يتحملون ذلك بالصبر الطويل إلى أن تنفد و تتحول إلى رماد، و عندئذ يلفون حروقهم تلك بقماش من القطن. و يستعمل هؤلاء الطريقة ذاتها لمعالجة الرشح من الرأس أو العين بقصد تجفيفه أو سحبه إلى مكان آخر.

و لـذلك شاهـدت جملـة من هؤلاء يحمل الواحـد منهم زهاء عشـرين من تلك الحروق معظمها على أذرعهم و تبلغ سـعة البعض من هذه الحروق سـعة «الشـلن» بالإضافة إلى الندوب و الجروح الأخرى. و لم أستطع أن أعرف المصدر الذى أخذوا عنه هذه الطريقة اللا إنسانية فى تجريح أجسامهم و تبضيعها إلا أن يكونوا قد أخذوها فى القدم عن رهبان

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۸

(بعل) الـذين اعتادوا أن يجرحوا أجسامهم بالمـدى و الرماح حتى تسـيل منها الـدماء، و ذلك ما اعتـدنا أن نقرأه فى الإصـحاح الثامن عشر، الآية الثالثة من «سفر الملوك» .

و الشـىء الـذى أسـتطيع أن أقرره هنا هو أن هذه الندوب و الحروق الواسـعة فى بدن هذا الدرويش إنما أجريت حسب تقاليد الطائفة التى ينتمى إليها إذ إن هذا الرجل لا يرتدى أية ملابس، لا فى الصيف و لا فى الشتاء، سوى قطعة يستر بها عورته. و بدلا من الملابس يرتـدى أمثـال هؤلاء جلود المواشـى فينامون بها و يسـتخدمونها بمثابـة فراش و غطاء و لباس لهم فى وقت واحـد. و يتظاهر هؤلاء فى تصرفاتهم الخارجية بالصبر و الفضيلة و كأنهم من الأموات بالنسبة إلى هذا العالم حيث يتمسكون بشعائر الصلاة و التذوق و المشاهدة فى الوقت الذى تمتلىء فيه نفوسهم بالخداع و اللؤم و لذلك يصعب وجود أحد يحبهم.

و فـد علينا عدد من رجال الدين ينتمون إلى طوائف متعددة و هم يتميزون بعاداتهم و تقاليدهم المختلفة مثلما هو الأمر فى بلادنا نحن الهولنـديين. و كان من بين هؤلاء شاب قوى البنيـة، حسن التكوين ينتمى إلى طائفة يطلقون عليها اسم «الجيلانية» و لم يكن هؤلاء من طائفة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۲۹

«الأكليروس» بل من «الشـلبية» أى السادة الأغنياء الذين يجدون متعة كبيرة فى السـفر أيام الشـباب و تحت مظاهر القدسية مثل الحجاج الذين يعيشون على حساب الغير فيجوبون بلدانا و ممالك عديدة بقصد المشاهدة و الاطلاع، و التعلم و الإلمام بالتجارب.

كان هـذا الشاب يرتدى صداريّا أزرق اللون يغطى جسـمه، و يتمنطق بحزام من الشاش، و ينتعل نعلين من جلود الشـياه بالشـكل الذى اعتاده أعراب الصحراء.

كـذلك كـان يسـافر معنا رجلان آخران أيضا كان واحـد منهما يضع فى كل من أذنيه قرطا كبيرا سـميكا سـمك الأصبع يتـدلى من شحمة أذنه على كتفه. و كان هذان الرجلان ينتميان إلى طائفة تعرف باسم «القلندرية» . و هؤلاء يحيون حياة قاسية مضنية إذ إنهم من النساك الذين يجوبون القفار و يصلون إلى أى مكان يستطيعون الوصول إليه.

و قـد اعتاد هؤلاء أن يقيموا الصـلوات و الأذان خمس مرات فى اليوم، مثلما يفعل ذلك المؤذنون من فوق مآذن المساجـد. كان أحد هؤلاء ينفصـل عنـا، حين يحين وقت الصـلاة، فيرفع صوته عاليـا و كأنه لا يريـد أن نسـمعه نحن من على ظهر السـفينة حسب بل و أن تسمعه الوحوش و الحيوانات أيضا حتى إذا ما انتهى من صلاته عاد إلينا ثانية و هو ينظر إلينا نظرات ملؤها الجذل و الورع.

أما زميله الآخر فكان درويشا من طائفـة متزمتـة فى تعاليمها فهو يؤدى صـلاته بكل خشوع و حميـة و لا سـيما بعـد أن تغرب الشـمس حيث يفد عليه الآخرون فيقفون سوية فى شكل دائرة ثم يبدأون «صلاتهم»- كما

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۰

كنت أسـمعهم- فى صوت واطىء أول الأـمر ثم يرتفع درجـة بعـد أخرى حيث ترتفع أصواتهم بعبارة «لا إله إلا اللّه» عاليـة تسـمع من بعيد و هم لا ينطقون بعبارة أخرى غيرها و يكررونها و هم يديرون رؤوسهم من ناحية إلى أخرى و كأنهم ينظرون إلى بعضهم البعض ليدللوا على مقدار حبهم بعضهم بعضا، و من ثم يسرعون فى القراءة فلا تسمع منهم فى النهاية سوى كلمة «اللّه» إلى أن يصيبهم الدوار و يتصبب العرق من أبدانهم.

أما الإمام فإنه يبدأ يضرب صدره بقبضة يده و تنطلق منه نغمة غريبة و يظل يردد كلماته تلك إلى أن يغمى عليه و يسقط على الأرض

شبه ميت و إذ ذاك يلقى أصحابه عليه غطاء يدثرونه به و يدعونه راقدا و ينصرفون إلى حال سبيلهم .

و بعد أن يظل الإمام على تلك الحالة وقتا لا بأس به و قد فتن بصلاته أو برؤيته الرؤيا، يعود إلى نفسه فينهض و يجلس أمام القوم مرة أخرى.

و هؤلاء المشايخ و إن كانوا يمارسون شعائرهم هذه بطريقة تفوق، فى نظرهم، ما نص عليه الشرع ليحملوا الناس على الإيمان بهم تبعا لصبرهم و قسوة عيشهم و غيبوبتهم، فإنهم قد يمارسون تحت ستار الطاعة السرقة و الأعمال القذرة كما هو مألوف عنهم. و رغم ما يتظاهرون به من البساطة و عدم إلحاق الأذى بالغير، فإن ما عرف من بدعهم و خبثهم قد

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۱

أفقدهم الاحترام، و لم يعودوا يحصلون على المزيد من الهبات كما كان يحدث ذلك قبلا. أما طريقتهم الغريبة فى أداء الصلاة فإن أبناء دينهم يقولون عنها إن مثل هذا العابد إذا ما غير صوته الذى وهبه اللّه إياه إلى صوت غير طبيعى فإنه يكون بهذا قد تحول من إنسان إلى وحش!

و فى اليوم التالى سارت ملاحتنا سيرا حسنا فوصلنا عند الظهر إلى قلعة حصينة تدعى «قلعة النجم» تقع على الضفة اليمنى من النهر فوق ربوة ضمن أراضى أمير العرب الذى خاض غمار حروب طويلة مع السلطان التركى، و هذا ما استطعت أن أفهمه و لو أننى لا أعرف لغة القوم جيدا. و لم يستطع السلطان أن يلحق الضرر بالأمير العربى لأنه لم يستطع أن يتعقبه فى الصحراء و ذلك بسبب نقص الماء و الزاد. و لقد بادر أكبر أنجال الأمير فتحصن فى هذه القلعة ظنا منه بأنه سيكون بمنجاة من أى هجوم خارجى عليه، و بذلك ارتكب خطأ فظيعا. لأن السلطان ما إن علم بوجوده هناك حتى عقد النية على احتلال القلعة رغم كل المصاعب التى تقف فى وجهه. و لهذا الغرض استنفر كل قواته سنة ۱۵۷۰ م و هاجم القلعة من ثلاثة أماكن فى وقت واحد و استطال هجومه هذا أياما ثم استطاع بهجمة خاطفة أن يحتل القلعة و يقبض على ابن الأمير و أن يأخذه معه أسيرا إلى اسطنبول. و قد قيل عنه إنه قطع رأسه فى السنة التالية.

و هذه القلعة محاطة بأسوار قوية، و فى داخلها برج عال ضخم، و هى لا تزال فى نظرى قوية و إن كانت قد تحولت إلى خرائب و بقيت الثغرات التى فتحت فيها على حالها دون ترميم.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۲

هبطنا أثناء الليل إلى جزيرة صغيرة فى النهر غير مأهولة دون أن يعترضنا معترض، و قد كنا فيها آمنين شر الأعراب، لكننا ما إن تناولنا طعام العشاء و ذهبنا لنرتاح حتى أقبل بعض الأعراب عند منتصف الليل نحونا زاحفين على بطونهم و هم يقصدون بضاعتنا أكثر مما كانوا يريدون زيارتنا، و لما لم يغامروا بالتوجه إلى سفننا قبل أن ينكشف أمرهم لدى حراسنا فقد استقروا عند الشاطىء، و لو لم ينكشف أمرهم لاستطاعوا سرقة بعض الأشياء الثمينة و إن كان من الميسور استعادتها منهم و ذلك لعدم تمكنهم من نقله عبر النهر.

فى اليوم الخامس من أيلول ظهر بعض الأعراب فى الصباح الباكر على الشاطىء، و انتشر عدد كبير منهم إلى مسافات بعيدة، كما أخذنا نشاهد بعض الأفواج كان الواحد منها يضم ما بين أربعين و خمسين فارسا، و قد استنتجنا من ذلك أن مضرب أميرهم غير بعيد عنا. و قد تأكد ذلك لنا حقّا. فحين نزلنا على البر عند الظهر أقبل أصغر أنجال الأمير ممتطيا صهوة جواد أدهم عال يحيط به رجاله و هم يبلغون المائة عدا، و معظمهم يحملون السهام و الرماح المصنوعة من القصب.

كان نجل الأمير شابّا يافعا فى حدود الرابعة و العشرين أو الخامسة و العشرين من عمره، أسمر اللون يعتم بعمامة بيضاء من نسيج القطن تتدلى إحدى نهايتيها إلى الوراء بحوالى ذراع طبقا لعادتهم فى الملبس.

و كان يرتدى عباءة طويلة مصنوعة من جلود المواشى مغطاة بالقماش

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۳

و تمتد إلى ركبتيه، و مثل هذا كان يرتديه أفراد حاشيته بحيث كان يصعب، بهذا اللباس الشائع لديهم، تمييز أحدهم عن الآخر لو لم

تكن حوافى تلك العباءات مطرزة بأشرطة ذهبية كما اعتدنا فى بلادنا أن نطرز حوافى صداريات الأطفال عند الرقبة و الأردان، و لم تكن أردانها طويلة و كانت بعض النقوش ظاهرة فيها.

و لما كانت الإتاوة تعود إلى أمير المنطقة العربية التى يجرى نهر الفرات فيها، فقد أقبل نجله هذا للمطالبة بتلك الإتاوة و تسلمها. و هكذا وجدناه ينزل بجواده إلى النهر و يخوض فيه متجها نحو السفينة التركية أولا ليرى ما تحمله من سلع و لما لم يجد فيها سوى القمح لم يمكث عندها طويلا و عاد إلى سفننا، و كان خدمه الذين يأتمرون بأوامره قد سارعوا فى مساعدته على الصعود إلى السفينة و أجلسوه على حزمة فيها ثم شرعوا يتجولون بين التجار يفتشون سلعهم فيفتحون هذا الكيس و تلك الرزمة و يأخذون من بعضها قليلا أو كثيرا حسبما يشاؤون و لذلك كانوا يتأخرون بعض الوقت قبل أن ينتقلوا من تاجر إلى آخر.

و فى الوقت ذاته جاء القوم بطفل نجل الأمير هذا، و لم يكن ليتجاوز السنتين، إلى ظهر السفينة و كان أحدهم يحمله أمامه على ظهر جواد و يسير به خلف أبيه. و لم يكن الطفل ليرتدى شيئا سوى قميص مصنوع من القطن و فى عنقه أطواق و فى رسغيه و قدميه أساور من الذهب العربى الخالص!.

و أخيرا أقبل خدم الأمير إلينا، أنا و رفيقى، و قد كنا فى مؤخرة السفينة. و قبل أن نطلعهم على شىء من سلعنا شاهدوا بندقيتى و كانت مكسوة بعظم العاج فأخذوها منى فى الحال إلى سيدهم ليرونه إياها، و هم فى منتهى الدهشة و العجب إذ إنهم لم يشاهدوا مثلها فى حياتهم قط.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۴

حمل نجل الأمير البندقية بين يديه، و سر برؤيتها سرورا بالغا، و راح يردد قائلا إنها من صنع بلاد الأجانب، إنها من صنع (الفرنك) ، و ذلك هو الاسم الذى يطلقونه على أبناء البلاد الأجنبية كالفرنسيين و الألمان و الإيطاليين و غيرهم إذ لا يعرفون أية فروق أو مميزات بين بلادنا. و إذ ذاك تقدمت أنا و رفيقى إلى الأمير فأفهمناه أننا قد أقبلنا مؤخرا من تلك البلاد فى طريقنا إلى الهند.

و بعد أن ألمّ الأمير بذلك أخذ يتحدث إلينا برقة، و أمر حاجبه بأن يتركونا و لا يفتشوا أمتعتنا، و أخذ يطرح علينا أسئلة عن أمور شتى ثم التفت إلى رفيقى فانبأه بأنه يظن أن قد رآه قبلا، و كان ذلك حقا إذ كان رفيقى يعيش فى حلب و يتعاطى صياغة الذهب فيها زمنا طويلا، و كان هو و غيره يوفدون من لدن قنصل «فينيسيا» فى حلب إلى الأمير. الذى لم يكن مكانه ليبعد كثيرا عن تلك المدينة، حاملين إليه هدايا من ذلك القنصل كان من بينها ثياب غالية الثمن. و حين كان هؤلاء يفدون على الأمير يقابلون من لدنه بترحاب عظيم و كرم بالغ، و يريهم مشاهد من مختلف الألعاب. و قد يشاهدون لديه عددا كبيرا من الجند الأقوياء الشجعان، و من ثم يعودون منه مثقلين بكرمه، و يعدهم بتوفير الأمن و اللطف لهم و لرؤسائهم. فإذا ما حدث و استعانوا به على الأتراك أقبل على مساعدتهم مخلصا، دون أن يخالجه الشك باتفاقهم معهم، إذ إنهم يقطعون مسافات شاسعة داخل أراضيه إلى أن يصلوا أراضى الأتراك بما فيها اسطنبول و غيرها.

غادرنا الأمير الصغير عائدا إلى مضربه الذى يقوم على تل عال

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۵

وسط سهل لا يبعد سوى ميلين عنا، و أخذ معه بعض رفاقنا ليحدث أباه بما خبره من أحوالنا.

كنت شديد الرغبة فى أن أحظى بمقابلة أبيه و أن أحمل بندقيتى معى، و إن كان علينا أن نسافر عبر صحارى واسعة، فلربما سر بذلك، لكننى لم أجرأ أن أفعل ذلك أمام الجند الأتراك، و اليهود و المتسولين لأننى خشيت أن يغدروا بى و يتهمونى أمام الباشا و القاضى اللذين يستطيعان إنزال العقاب بى رغم براءتى، كما اعتادا أن يفعلا ذلك إزاء الأجانب بل حتى نجاه أبناء جلدتهم. و ما خلا ذلك فقد تذكرت بأن أمير العرب حين كان معسكرا على مقربة من حلب كان بعض رجاله يفدون على المدينة كل يوم لشراء الأغذية و الملابس و غيرها و على أثر ذلك صدرت الأوامر فى حلب تحظر بيع أية أسلحة لهم ينقلونها معهم إلى الصحراء.

و بعد أن انتظرنا أصدقاءنا بعض الوقت عادوا إلينا. و قد منعنا من الذهاب إلى أى مكان فى ذلك اليوم لأن الوقت غدا متأخرا، و على هذا مكثنا فى مواضعنا طيلة الليل.

و لقد قال لنا رفاقنا إن الأمير لم يصدق قولهم حين أنبأوه بأننا قد وفدنا من حلب بل ظن أننا جئنا من «صفد»، و هى مدينة على بعد مسيرة يوم واحد من «صيدا» التى كان السلطان التركى قد سلبها منه قبل مدة قصيرة، و هذا قد يعطيه الحجة فى حجزنا نحن و أمتعتنا، و لذلك راح يصر على رأيه فى هذا، و قال إنه قد يبعث ببعض رجاله إلى حلب مع أحدنا للتأكد من حقيقة أمرنا إلى أن نثبت له، بما نحمله من رسائل، حقيقة المكان الذى جئنا منه، و إذ ذاك سيسمح لنا بمواصلة السفر.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۶

على أن الشىء الذى فهمته فيما بعد، هو أن الأمير لم يفعل ذلك إلا لكى يضغط علينا بقصد الحصول على الهدايا، و هو يتلقاها فعلا، حيث اضطر رفاقنا إلى أن يقدموا له بعض المدى المطعمة بالفضة التى جلبوها من دمشق و كذلك بعض الأقمشة الحريرية الدمشقية .

تحركنا فى السادس من أيلول مبكرين فمررنا بين بواد مقفرة تكثر فيها الخنازير البرية التى كانت تتجمع على شكل قطعان أحيانا. و كانت هذه البوادى تمتد إلى مسافات شاسعة و لهذا لم نشاهد طيلة النهار سوى الأشجار إلى أن حل المساء و وصلنا إلى «القلعة» و هذه عبارة عن حصن و قرية تقع على الجانب الأيمن من النهر، و لا تبعد عن حلب أكثر من مسيرة يومين، و تقوم فى سهل تستطيع من رؤيته أن نعرف المجرى المتعرج الذى كان يسير فيه النهر قبلا- و هذه القلعة ملك لأحد الباشوات و يدعى «جون رولانا» و هو يمتلك بالإضافة إلى ذلك، دارا جميلة فى حلب. و ينعم هذا الباشا بإيرادات وفيرة و له ستون ولدا منهم ستة أو سبعة أولاد يحمل كل واحد منهم رتبة لواء، فى حين يعيش الباقون منهم فى بلاط السلطان التركى.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۷

و لقد أمضينا الليل كله، على الجانب الآخر من النهر فيما وراء هذه القلعة فى أرض خلاء تمتد إلى مسافات بعيدة، و لم نشاهد طيلة اليوم التالى سوى بضعة أكواخ للأعراب متناثرة هنا و هناك، كان كل واحد منها يستند على أربعة أعمدة و يغطى بأوراق الشجر، و فى داخل هذه الأكواخ كان يعيش عدد كبير من الأطفال كنت أعجب غالبا من كثرتهم، و كانوا و هم فى باكر طفولتهم يهرعون إلى النهر و يتعلمون السباحة فيه بصفة جيدة إلى درجة أنهم كانوا يسبحون فى عرض النهر دون خوف.

و حين مضينا فى سبيلنا راح العرب يجيبوننا، و لو لم يحل البعد بيننا و بينهم على الأسئلة و لا سيما عن المكان الذى يقيم أميرهم فيه إذ إنهم يولونه قدرا كبيرا من الا-حترام، رغم تنقلهم و تجوالهم، فهم يظهرون له الطاعة الجماعية بشكل لا- تظهره أية أمة أخرى لرؤسائها، و من هذا نستطيع أن تتأكد بأن أيّا من الأجانب كان يجتاز هذه الأراضى و يحاول أن يرى أميرهم كان يسمح له بذلك شريطة أن يرتدى مثل ملابسهم و أن يصحب أحد المسلمين معه ليدله على الطريق و ليكون ترجمانا له، و إذ ذاك يبدون استعدادهم لإرشاده إلى الطريق الذى يسلكه للوصول إلى الأمير، و يدعونه يمر دونما مضايقة أو تفتيش حين يرون أحد أبناء جلدتهم بصحبته. و هذا هو السبب الذى يدع الكثيرين من العبيد فى أطراف الجزيرة العربية يسارعون إلى الهرب دون كبير عناء أو خطر.

و كانت نساء الأعراب تقبل علينا عادة و هن يحملن اللبن فى صحون واسعة يعرضنه للبيع. و لذلك كثيرا ما كنا ننزل إلى البر فنأخذه منهن و نقدم لهن البسكويت لقاء ذلك بسبب حاجتهن القصوى إلى القمح كما أن مثل هذه المقايضة تسرنا نحن بدورنا.

و لقد اعتدنا أن نأكل هذا البسكويت باللبن وقت الغداء أو العشاء.

و حين يكون اللبن أحيانا كثيفا أو تكون كميته قليلة لا تكفينا، نعمد إلى إضافة كمية من الماء إليه.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۸

و قد تضع الأعرابيات هذا اللبن أحيانا فى أكياس من الكتان فلا يتسرب منها حيث اعتدنا أن نعلقه فى السفينة مدة يومين أو ثلاثة إلى أن يتكثف و يتحول إلى خثارة و عندئذ نستعمله مع البسكويت و البصل أوقات الفطور و أوقات العشاء.

و كنت أغتنم الفرصة حين نزولنا إلى اليابسة فأروح أفتش عن النباتات الغريبة فى المكان. و لقد عثرت على أنواع خاصة من نبتة «الأزهار المحززة» و هى تشبه النوع المعروف منه فى بلادنا لكن ليس لها ذات ميزاته، و نوعا من شجر العجرم من فصيلة ذكرها المؤرخ «كلوفيوس» و هو ذو أوراق سميكة تشبه شجرة «الودنة» فضلا عن السذاب و نوعا غريبا من الصفصاف يسميه السكان باسمه القديم هو «الغرب»، بالإضافة إلى الطرفاء و هى من أنواع كبيرة و عالية تشبه أشجار التوت و النخيل مما يمكن مشاهدتها من بعيد بسبب ضخامتها و ارتفاعها و هى تشبه الطرفاء فى بلادنا لكنها أكثر ضخامة و ارتفاعا، و أوراقها طرية ذات رؤوس وردية الألوان.

و المسلمون فى الغالب يطعمون مواشيهم من الأدغال التى تنمو على ضفاف النهر ذلك لأنه لا يوجد فى الفيافى و الصحارى، حين تكون الأرض رملية هشة و قاحلة، سوى القليل من الأعشاب أو الزرع، مما يجعل الخبز نادرا بين سكانها فلا يرون منه شيئا لمدة طويلة حيث يضطرون إلى تناول أطعمة أخرى كالسمك و الجبنة و اللبن و الودك دون أن يستعملوا الخبز معها. فهؤلاء الفقراء لا يصيبون سوى و جبة بسيطة من الغذاء و مع ذلك فهم أقوياء و فى صحة جيدة و يقضون أعمارا جيدة.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۳۹

و فى المساء و قبل أن يسدل الظلام سدوله، شاهدت على الجانب الآخر من أرض الرافدين حصنا يقوم على تل مرتفع يدعونه «تبيل» يعود إلى أحد الأمراء العرب، و هو حصين و واسع جدّا تقوم على أسواره عدة أبراج، شبيه بقلعة حلب، كما لا حظت ذلك عن بعد.

مكثنا الليل فى جزيرة قريبة من الشاطىء الأيمن، و كدنا أن نتعرض للسرقة لو لم يكن لدينا حراس. و كنا نراقب اللصوص، و نطلق بعض العيارات النارية التى لم نقصد بها إصابتهم بل إخافتهم حسب، ذلك لأننا لو قتلنا أو جرحنا أحدا منهم لارتفع صراخهم، و لربما تجمعوا بالألوف انتقاما منا لرفيقهم و إذ ذاك ينهالون علينا و ينهبون كل ما لدينا من متاع و هم متشوقون لمثل ذلك جد التشوق.

و لقد حدث الشىء ذاته فى اليوم التالى حين نزلنا جزيرة غير مأهولة وسط النهر فلم نطلق عياراتنا النارية فى تلك الليلة كيلا ندعهم يتحسسون مواقعنا و ينقضون علينا، و مع ذلك فحين قررنا أن نظل ساكنين و أن نستريح فى هدوء تام، ألموا بمواقعنا فأقبلوا فى جماعات أكثر من ذى قبل، و اقتربوا بحيث كنا نسمعهم و كانوا يتحدثون إلينا، و إذ وجدناهم جادين فى مهاجمتنا، نهضنا من أماكننا و تهيأنا للأمر و هتفنا بهم بأصوات عالية ننذرهم من مغبة أى اعتداء ينوون توجيهه ضدنا و إلا فسنجابههم بمقاومة أشد مما يتوقعونه، و حين وجدنا أن تحذيرنا ذاك لم يكن مجديا اضطررنا إلى أن نسحب بنادقنا، و كنا نحتفظ بثلاث منها، فأطلقنا الرصاص الذى أخافهم، لأنهم لم يعتادوه، فولوا الأدبار هاربين و تركونا مطمئنين .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۰

و ما خلا هؤلاء كنا نشاهد كل يوم، و نحن سائرين فى النهر، أعدادا كبيرة منهم منتشرين فيه، و البعض منهم يستخدم جلودا منفوخة بالهواء ليقطع بها النهر و لا سيما حين يكون واسعا فى بعض الأماكن و لا يمكن إقامة جسر فوقه حيث لم نر أى جسر إطلاقا. و تراهم يخلعون قمصانهم و هم لا يرتدون شيئا آخر سواها ثم يكورونها و يربطونها بأحزمتهم الجلدية فوق رؤوسهم و يخفون فيها خناجرهم الجميلة العريضة المنحنية التى تشبه المنجل يعلقونها فى صدوغهم.

*** مرّت الليلة التاسعة من رحلتنا فى مرح و قد أصبحنا على مقربة تامة من مدينة «الرقة» التى تعود إلى السلطان التركى . غير أن فرحتنا لم تدم طويلا. فقبل أن نتناول الطعام و بعض الفواكه من أمثال الزبيب و التين و البطيخ لنبرد به غلتنا إزاء وهج الحر الشديد، تعرضنا مرة أخرى لخطر أكبر من الخطر الذى أصابنا قبلا، ذلك أن سفينتنا، و هى الكبرى، ما لبثت أن شلهت فرست على الرمل، و لم نستطع إعادتها إلى الماء، و تسييرها فى الاتجاه الصحيح فيه دون مساعدة الآخرين، و إذ ذاك اضطررنا إلى الاستعانة بالأعراب و لما كان هؤلاء يحملون خناجرهم

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۱

و هراواتهم فلم نطمئن إليهم، و أبقينا قوة من الحرس داخل السفينة، بينما راحت بقيتنا تحاول دفع السفينة و تحريكها و إذ لم نستطع

ذلك حاولنا إفراغ السفينة من حمولتها و سحبها إلى الماء لكننا وجدنا فى مثل هذا الاقتراح مخاطرة بالبضاعة التى نملكها و لذلك استقر الرأى بيننا على أن نسحب السفينة إلى مجرى آخر، و إذ سألنا الأعراب مساعدتنا و وجدناهم جادين فيها و وعدناهم بمكافأة طيبة، على أن يتركوا أسلحتهم جانبا، تخلوا عن تلك الأسلحة و أقبلوا علينا و عندئذ استدعينا الحرس الذين أبقيناهم فى السفينة لمشاركتنا، و بعد جهد نجحنا فى إيصال السفينة إلى الماء العميق، و دفعنا إلى الأعراب ما وعدناهم به من مكافأة، و واصلنا مسيرتنا فى تلك الليلة إلى مدينة «الرقة».

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۳

الفصل التاسع مدينة الرقة

الرقة، و هى من مدن ما بين النهرين، تقع فى الصحراء العربية على نهر الفرات العظيم بين مرتفعين و لذلك لا تستطيع أن ترى أى شىء منها قبل أن تدنو منها، و فى المدينة قلعة يقيم فيها أمير لواء تابع للسلطان التركى و تحت إمرته (۱۲۰۰) من الجنود للمحافظة عليها.

و المدينة واهية البناء غير محاطة بسور، و قد شيدت بعد خراب المدينة القديمة التى كانت تقع فى الجانب المرتفع منها، كما يشاهد ذلك من بقايا سور، و بعض القناطر و الأعمدة القديمة، و بعض الآثار الشاخصة هناك حتى الآن، و منها بناية عالية قديمة لا تزال محتفظة بقوتها و ضخامتها و إن كانت أجزاء كبيرة منها قد تهدمت و تحولت إلى أنقاض.

و يندر أن يرى المرء مثل هذه البناية مما يوحى مظهرها بأنها ربما كانت قبلا مقرا للملوك أو العظماء.

و تقوم بين المدينتين القديمة و الحالية قلعة قديمة و قوية أيضا، فيها حامية تركية، إذ إنها تقع عند تخوم بلاد العرب أو فارس للدفاع عن البلاد من الخطر و الغارات.

و ما خلا ذلك فالمدينة مهدمة و أراضيها خالية و ليس فيها مكان ملائم يستطيع الأتراك أن يمارسوا فيه السباق و اللعب بالعصى و غيرها،

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۴

حيث غالبا ما كنت أجلس على الأسوار المتهدمة، و أنظر إليهم أثناء لعبهم.

و يعزى خراب هذه المدينة فى الدرجة الأولى إلى التتر و ملكهم هولاكو الذى استولى عليها سنة ۱۲۶۰ ميلادية، و ذلك بعد مدة قصيرة من استيلائه على حلب و قلعتها بمساعدة «آجتون» ملك أرمينيا.

و يدعى البعض أن هذه المدينة هى مدينة «رغيس» التى تسمى «أديسا» أيضا حيث بعث «بيوس طوبيا» بولده من نينوى إلى صديقه «غابيل» فى هذه المدينة ليسترد منه النقود التى أقرضه إياها.

و لما كانت هذه المدينة تقع على مسيرة يوم من نهر الفرات فإنها لا يمكن أن تكون هى المدينة المقصودة.

بعد أن نزلنا هناك أقبل علينا ملتزم الكمارك ممتطيا صهوة جواده إلى الشاطىء و طلب إلى ربان السفينة التركية بأن يسلمه الأسلحة و الرماح و القسى لأنها محظورة إطلاقا. و لم نشهد مثل هذا التصرف من لدن موظفى الكمارك قبلا، و لذلك دخل هذا الموظف مع ربان السفينة فى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۵

خصام حاد، و أخذ أحدهما يهجم على الآخر لدرجة أننا لم نستطع فى ذلك الوقت أن نتدخل بينهما مما أدى إلى نشوب جلبة وضوضاء.

و السبب الذى دعا ذلك الموظف إلى مثل هذا التصرف هو أن قافلتنا لم تكن متجهة إلى «ديار بكر»، المدينة التى تبعد مسيرة أربعة

أيام من هنا و تقع على ضفة نهر دجلة السريع الجريان، كيما يستطيع أن يحصل منا على مقدار كبير من الرسوم يستخلصها لنفسه وحده. لكن ربان السفينة، و هو تركى، لم يكن يحمل فى سفينته شيئا سوى القمح و لذلك لم يستطع الموظف أن يحصل منه على شىء، فتركه و أقبل علينا نحن الغرباء و هو يفكر فى أن يصيب منا ما يعوض به عما أصابه من خسران، و أن يخيفنا فى سبيل هذه الغاية.

و لذلك أمضى الليلة فى السفينة معنا و نام بيننا لأنه كان يخشى أن نبادر إلى إخفاء بعض السلع عنه، و كان فى بعض الأحيان يخاطبنا بكلمات غليظة، كما كان يردد قوله «انظروا ليس مسموحا لنا أن ندع الأجانب يجتازون هذه البلاد و لذلك فليس أمامه و الحالة هذه سوى أن يقبض علينا بصفة جواسيس». و هذا هو الأمر الذى اكتشفه دون غيره، و ذلك أمر يكفى لحجز سلعنا و لإرسالنا بتهمة التجسس إلى اسطنبول لنصبح إرقاء لدى سيده السلطان الأكبر!

و بعد أن استمعنا إلى حديثه الخالى من الصواب و العقل، و عرفنا محاولته خداعنا لم نشعر بالخوف أبدا، بل أخرجنا جواز سفرنا الذى حصلنا عليه من باشا حلب و قاضيها و أريناه إياه، و إذ تطلع فيه مليّا تأكد لديه أن ليس فى مقدوره أن يتصرف تصرفا سيئا إزاءنا، و عندئذ ابتعد عنا ساخطا، و شرع يخاصم تجار السفينتين سوية و يطالبهم بدفع ضريبة كبيرة ضجوا بالشكوى المرة منها، لكنه استمر فى مطالبته و لم يقبل بأية شروط معقولة، بل أكثر من هذا حمل مجاديف السفن معه ليحول بذلك دون سفرنا و ليضغط علينا لتلبية طلبه.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۶

و مع أن التجار وجدوه مجدا فيما أقدم عليه إلا أنهم لم يأبهوا به كثيرا، و لذلك بعثوا بواحد منهم فى الحادى عشر من أيلول مع أحد الأعراب إلى ديار بكر حيث يقيم الباشا الكبير هناك، و هو نجل «محمد باشا» ليرفع إليه الشكوى عن هذه المضايقات و العقبات. و ما إن علم موظف الكمرك بذلك حتى تعقب الرجل مع ابنه فى الحال.

لم يستطع رسولنا مواجهة الباشا لأنه كان آنذاك فى مكان آخر يدعى «الجزيرة» و لذلك طلبه رسولنا إلى مسافة ثلاثة أيام من هناك.

و لقد عاد موظف الكمرك و أنبأنا كذبا بأن أوامر الباشا تقضى بأن ندفع له الضريبة بنسبة عشر «دوقات» فى المائة. و رغم ذلك لم يعرف رفاقنا عن هذا الأمر شيئا و لم يثقوا بما قاله، لكنه استطاع أن يخرج أحسن و أعظم جزء من سلعهم قبل أن يقدم إلى السفن لتفتيشها و إن كان البعض منهم قد دفنوا بعض بضائعهم ليلا فى الرمال و لم يعثر الأتراك و لا الأعراب الذين كانوا يمرون فى وضح النهار على أثر لتلك البضائع الدفينة.

و فى صباح اليوم التالى أقبل الموظف مع رجاله ففتشوا بعناية و حذر كبيرين كل شىء لدينا، و كان يحمل أوامر خاصة بذلك، و لكنه لم يعثر على شىء مما توقعه على مقربة من المكان. و حين كان منهمكا فى عمله هذا عاد الرسول الذى بعثنا به فأخبرنا بأن الباشا كان غير ممتن من المعاملة الظالمة التى عاملنا الموظف بها خلافا لأوامر و قوانين رئيسه السلطان الأكبر، إذ احتجزنا مثل هذه المدة الطويلة و منعنا من الملاحة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۷

فى النهر. و لذلك كتب الباشا إلى أمير اللواء الذى فى جهتنا، و أمره- مهددا إياه بالإعدام- بأن يتخذ كل الإجراءات التى تكفل عدم احتجازنا طويلا، و أن يقبض على موظف الكمرك و يبعث به مخفورا إلى اسطنبول ليقدم إلى المحاكمة التى تعقد مرة واحدة كل خمسة عشر يوما.

و لقد خشى الموظف كثيرا مما سمعه لأنه قد يدفع حياته ثمنا لجريمته معنا.

و فى الوقت الذى بقينا فيه محتجزين كالأسرى على ضفة نهر «بابل» و نحن ننتظر بفارغ الصبر ساعة إطلاق سراحنا، غادر شيخ البادية و حاشيته من هناك فى اليوم الحادى و العشرين من أيلول متجها إلى الجنوب فى أعداد كبيرة من رجاله، بحثا عن مرعى أفضل

لمواشيه و خيله و إبله و دوابه، يعوض به عن مكانه السابق و الذى لا يوجد فيه الكثير من القرى و الأسواق التى قد يقيمون فيها طويلا. كما أن هؤلاء الأعراب لا يرغبون فى الاشتغال فى الزراعة، و لا فى التجارة، بل يكتفون بقدر كبير من الماشية و المزيد من الأعشاب لإطعامها و القيام بأودها. و لذلك تراهم حين يصلون إلى جدول تنمو عنده الحشائش و الأدغال يسارعون إلى إقامة خيامهم على مقربة منه و يمكثون هناك إلى أن تضطرهم الحاجة إلى الرحيل و البحث عن مكان آخر غيره.

و عند الرحيل يأخذ الأعراب معهم كل رجالهم و نسائهم و مواشيهم و حاجياتهم حسبما شاهدتهم على تلك الحالة فى هذا الوقت حين أقبلوا على هذه المدينة بأعداد كبيرة، الأمر الذى دفع بالأتراك إلى أن يغلقوا أبوابهم طيلة أربعة أيام، حتى انتهى مرور أولئك الأعراب بالمدينة.

و كنت أراهم و هم على ظهور الخيل مسلحين بالرماح و السيوف و القسى و غيرها. و هم يفعلون ذلك نفسه حين يمتطون ظهور الإبل التى يملكون

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۸

أعدادا كبيرة منها و لا سيما عندما ينتقل شيخهم من مكان إلى آخر كما ذكر لى ذلك البعض منهم، فقد يصل عدد تلك الإبل، بصفة عامة، إلى مائة و خمسين ألف رأس. و لقد شاهدت أنا بنفسى فى إحدى المرات ما بين ثلاثة آلاف و أربعة آلاف بعير. و هذه الإبل من الحيوانات القوية الصبورة الملائمة لحمل الأثقال، إذ إنها تتحمل العطش فى الحر الشديد لمدة ثلاثة أيام متوالية و هى تتبول بين سيقانها الخلفية و لذلك ينبغى على الذين يسيرون وراءها فى القافلة أن يكونوا على حذر تام كيلا تصيبهم ببولها!.

و لما كانت خيول الأعراب أصيلة و نظيفة و مناسبة للركوب، فإنه يندر أن يطعموها أكثر من مرة واحدة فى اليوم، و لو أنهم يمكثون على ظهورها طيلة يوم كامل و يقطعون بها مسافات طويلة من الأرض الخلاء.

و المعتاد أن يجزوا الشعر من أطرافها و ذيولها فتغدو ذيولها تلك أشبه بذيل الأسد. و نساؤهم و أطفالهم يركبون الحمير الصغيرة و الإبل، إذ يجتمع كل ثلاثة أو أربعة منهم سوية فى صناديق ، كما هو مألوف فى بلادنا الأوروبية. و هم سمر الألوان أشبه بالغجر عندنا. و يؤلف العبيد السود زهاء الربع منهم و لكن اختلاف اللون ينجم عن كثرة السفر و التجوال من مكان إلى آخر يكثر السود فيه، و قد يتخلون عن زوجاتهم ليتزوجوا من السود فى المكان الذى يأوون إليه.

و لا يضرب شيخ البادية هنا خيامه دوما إلا فى الحقول و لا يقيم فى أماكن مقفلة أو محاطة، غير أن مثل هذا قليل فى الوقت الحاضر و لا سيما بعد أن نكب بفقدان ولده. و لذلك أخذ يتنقل من مكان إلى آخر

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۴۹

أشبه بسعاة البريد فلا يعرف أحد مستقره. فهو يصعد أثناء الصيف إلى أقصى الشمال بينما ينحدر فى الشتاء إلى الجنوب، و بذلك يتجنب الحر و البرد معا، و يصيب أمتعة وزادا أفضل له و لرجاله و مواشيه. و قد يحدث كثيرا أن يقترب الأعراب فى مسيراتهم هذه من المناطق التركية، و أن يقترب الأتراك، هم بدورهم، من المناطق العربية، و لذلك كانت تنشب بين أميرين كبيرين من الطرفين خلافات تؤدى إلى حروب دموية. و مع ذلك و على الرغم من هذا كله، فقد علمت بأن التفاهم قائم بين الطرفين، إذ تم الاتفاق بينهما على أنه فى حالة دخول سلطان الأتراك فى حرب مع جيرانه، فإن على أمير العرب أن يهب لنجدته و الدفاع عنه، ذلك لأن السلطان حين يكتب إلى أمير العرب يكتب إليه كابن عم و صديق له، و يدفع إليه ستين ألف دوقة سنويّا كمرتب أو أجرة مقطوعة. و فضلا عن ذلك يبعث السلطان إلى شيخ البادية الجديد، الذى يأتى فى أعقاب وفاة الشيخ القديم، بكسوة تحمل شارته بالإضافة إلى الهدايا الأخرى، و الاحتفالات الاعتيادية، و يهنؤوه بوصوله إلى العرش، و يجدد و يؤكد تحالفه معه. و تساهم ديانتهما المشتركة بقسط غير ضئيل فى هذا الشأن، فبالإضافة إلى شعائرهما و النقاط الأخرى المشتركة تتمسك أمتاهما بذات العقيدة. و الأعراب، مثل الأتراك، يتزوجون بنساء كثيرة و لا تعظم الواحدة من نسائهم نفسها أمام الأخرى لأنهن منحدرات من آباء طيبين و لذلك لا تستثنى واحدة

منها- باعتبارها من ذريـة عظيمـة- من النهوض بأعباء العائلـة، و لا تخضع الفقيرة منهن إلى الأخرى لأنها تحـدرت من ذرية فقيرة. فقد كـانت إحـدى زوجـات أمير العرب مثلا- ابنـة رجـل يملـك معملا- للنجارة فى الرقـة فهى و إن كانت من أصل واطىء إلا أنها كانت محترمة مثل بقية الزوجات، و أبوها و إخوتها من الرجال المحترمين، و قد أقبلوا إلينا و أبدوا أسـفهم للأذى الذى أصابنا على يد جابى المكوس.

***

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۰

خلال إقامتنا هناك أقبل علينا شاب عربى نبيل ذو قرابـة مع شـيخ البادية و كان يصـحبه عشـرون عبدا مجهزين بالقسـى و الرماح. كان هذا الشاب يعتم بعمامة بيضاء جميلة و يرتدى قفطانا طويلا بنفسجى اللون مصنوعا من الصوف فى حين كان عبيده حفاة يلبس البعض منهم طرابيش سوداء و ثيابا من النيلـة الزرقاء ذات أردان واسـعة، و يتمنطقون فوقها بأحزمـة جلديـة يعلقون بها خناجرهم المعقوفة كما هى عادتهم فى الملبس.

و حـدث أن كـان البعض منـا ذات مرة فوق أسوار المدينـة العاليـة فشاهـدنا تحتنا منظرا جميلا فى الوادى الـذى يجرى فيه نهر الفرات الكبير، إذ أقبـل إلينـا ذلـك الشـاب النبيـل نفسه فجلس مع حاشـيته قبالتنا و قـدم إلينا بعض الزبيب و الحمص الجاف فتقبلنا منه ذلك شاكرين. و لكى نظهر شكرنا له قدمنا له نحن بدورنا شيئا من اللوز و الجوز و التين و بعض الحلوى التى جلبناها معنا من حلب، فتقبلها منـا بكـل رقـة، حيث شـرعنا كلنا نأكل ذلك سويـة حتى إذا أتينا على ذلك كله، اسـتدعى الشاب أحـد موسـيقييه فأمره أن يعزف لنا مقطعا من موسـيقاه و كانت الآلة التى يعزف عليها شبيهة عند رقبتها بالقيثارة و كنا نتوقع أن نسـمع منها أنغاما نادرة لكننى حين نظرت إليها وجدتها لا تحوى سوى وتر واحد أشـبه بالأوتار التى يسـتعملها العرب فى قسـيهم . ثم شـرع يعزف بعض أنغامهم بفن و لباقة تثير المرء بيسر، و ظل يوالى العزف طيلة ساعتين و رغم طول الوقت فقد سررنا بعزفه كثيرا.

على مقربـة من النهر عثرت على نوع من شـجر الأكاسـيا يحمـل ثمـارا حمراء و غبراء اللون يـدعوها الأعراب بالشوك و الشاموت كما وجدت

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۱

بعض الأشجار الأخرى التى يسمونها بالعاقول، و يذكر «ابن سينا» أن (المن) يسقط بصفة رئيسة فى مقاطعة (خراسان) .

و بالإضافـة إلى ذلـك هنالك عـدد من أنواع الطحالب و أعشاب صـغيرة ذات سـيقان واطئـة ذكرها (ديوسـقوريوس)، و أنواع أخرى غيرهـا وصـفها العـالم كـارولوس كلوفيوس وصـفا صـحيحا فى الفصـل الخـامس و الأـربعين من المجلـد الثـانى من مؤلفه عن «تاريخ النباتات فى البلدان الأجنبية».

و هناك أنواع أخرى لأعشاب لطيفة و غريبة تنمو بكثرة فى الرمال.

و لكل واحـدة من هذه النباتات ما بين خمس و ثمانى سـيقان يدخل أحدها فى الآخر و لها مفاصل كثيرة و لذلك تنمو و هى تزحف فوق الأرض أكثر مما تنمو قائمة. و تنبثق من كل واحدة ثلاث أو أربع أوراق مدورة تشـبه أوراق شـجر السماق أو الزعتر و تظهر فوق كل نبتـة من هـذه نجمـة تشـبه الزهرة البيضاء ذات ست أوراق مدببـة و هى بهذا تكون شبيهة بنبتة (الأورنبثو غالوم) المعروفة عندنا، و كل واحدة منها ذات سوق خاصة، و لم أر فيها أية حبوب و كانت جذورها صـغيرة و نسـيجية و هى مشابهة فى شـكلها للنبتة المتعددة الأوراق التى ذكرها ديوسقوريوس.

و إلى جانب ذلك شاهـدت أنواعا أخرى من الطرفاء العاليـة و الخلنجان و غيرها و كلها تنمو بكميات وفيرة و فى مساحات تمتـد على ضفة النهر إلى أميال عديدة.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۳

الفصل العاشر مدينة دير الزور

تنفيذا للأمر الحاسم و الجيد الذى أصدره الباشا نجل محمد باشا استطعنا أن نتحرر من محتجزنا الطويل فتحركنا ظهر اليوم السابع و العشرين من أيلول فأمضينا عدة أيام و قطعنا مسافات بعيدة و نحن لا نرى على البر ما يستحق الذكر سوى أكواخ قليلة من القش انتشرت هنا و هناك يسكنها الأعراب مع عوائلهم ليحموا بها أنفسهم من الحر و المطر و الندى الذى يكون فى هذه الأصقاع أكثر وقعا.

لقد دهشت من هذه الحياة التى يحياها أولئك الناس البائسون مع ذلك العدد الكبير من الأطفال فى هذه البقاع الرملية الجافة و هم لا يملكون شروى نقير. فقد وجدت هؤلاء الناس يعيشون فى ضنك شديد. و كثيرا ما كنا نشاهد البعض منهم يقبل علينا سباحة فى النهر و يتقبل منا ما نقدمه إليه من مآكل.

و بعد أن استمر ظهور هذه الصحارى الرملية زمنا طويلا اجتزناها فى النهاية إلى تلال مقفرة عالية لم نر فيها أثرا لأرض مزروعة و لا مروج و لا بيوت أو مستقر بل حتى و لا موطأ قدم، ذلك لأن الناس الفقراء الذين يعيشون هنا لا يسكنون البيوت بل يسكنون الكهوف و الخيام كما هى حالهم فى الصحراء.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۴

و نظرا لشدة الحر و الجفاف فقد غدت التربة قاحلة و لذلك فهم لا يستطيعون المكوث فيها طويلا حيث لا توجد قرى و لا سكان و هذا ما يجعلهم يطوفون فى الأرض صعودا و نزولا، و قد يغيرون على القوافل فيسلبونها فى بعض الأحيان.

و هذه الجبال، كما علمت، تمتد إلى نهر الأردن و البحر الميت و البحر الأحمر و غيرها حيث تقوم هضبة سيناءو (حرب) و مدينة (البتراء) التى دعاها النبى أشعيا «بتراء الصحراء».

و الأعراب الذين يعيشون فى هذه الصحارى و فى أطرافها من الرجال المشهورين فى استعمال السهام و القسى و قذف النبال التى يصنعونها من القصب، و هم أناس كثيرو العدد و يخرجون بجماعات كبيرة فى الغالب. فهم من أمة عريقة و هم متحدرون من أولاد «إسماعيل» و بصفة رئيسة من نجله الأكبر (نبايوت) و لذلك أطلق عليهم لقب «النبطيين» المحبين للحرب، و بلادهم هى بلاد النبط التى أتى على ذكرها (يوسفس) فى الفصل الحادى و العشرين من المجلد الأول من كتابه،

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۵

إذ يقول إن أنجال إسماعيل الاثنى عشر قد أنجبهم من زوجته المصرية (و أمه تدعى هاجر) و لذلك سموا باسم (الهاجريين) كما نعرف ذلك فى الفصل الأول و الإصحاح الأول من «الأسفار» و هؤلاء هم من سكان تلك البلاد أيضا، كل هؤلاء كانوا يمتلكون البلاد الواقعة ما بين الفرات و البحر الأحمر و يطلقون عليها اسم بلاد النبطيين و قد يكون (المدينيون) الذين اشتروا «يوسف» من إخوته و حملوه معهم إلى مصر، هم من سكان هذه المناطق أيضا.

و يطلق «بلينى» على نفس البلاد اسم سينا (لأنه ليس فيها من السكان سوى أولئك الذين يسكنون الخيام).

نستطيع أن نستخلص من ذلك كله بأن كلّا من النبى أشعيا فى إصحاحه الستين، و النبى داود فى الإصحاح مائة و عشرين من الزبور، قد تحدثا عن هؤلاء القوم، و لا سيما حين أشار النبى داود إلى خيام بلاد «قيدر» و التى فهم عنها أنها بلاد تستوطنها أقوام تسكن الخيام و إنها قد أخذت اسمها هذا من «قيدر» نجل إسماعيل و كان أبوه هذا، و هو طفل عجيب، قد ولد من فتاة تدعى (هاجر) فرحل قيدر مع أمه يجوبان

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۶

الصحراء. و قد اشتهر بعبارته التى يقول فيها «من أنا؟ إننى فى (مجيئك) و أنا أسكن فى خيام «قيدر».

و فى أيامنا هذه يدعى هؤلاء القوم و غيرهم باسم العرب و قد تعاظم نفوذهم كثيرا تحت زعامة «محمد» (و أمه من أحفاد إسماعيل) فانتشروا انتشارا واسعا فى الأرض. و لقد كان هؤلاء فى عهد داود، أمة قوية جدّا لأن داود كان يتضرع إلى اللّه- كما ورد ذلك فى الزبور الثالث و الثمانين- بأن يعاقبهم و يهلكهم و يشتتهم لأنهم كانوا أعداء له.

أعود الآن إلى حديثنا السابق فأقول بأن الأعراب كانوا يلحون علينا بالسؤال عن المكان الذى كان يقيم فيه أميرهم فى ذلك الوقت. و لذلك كانت لرئيسنا مصلحة فى التعامل معهم و من هنا نستطيع أن نتبين مدى حبهم و احترامهم الشديد لأميرهم .

على أنهم لم يكونوا جميعا ينظرون إلينا نظرتهم إلى أجانب و لم يعتبرونا من الغرباء.

و كثيرا ما كان يحدث فى بعض المناسبات أن نغير زى عمائمنا و نترك طرفا منها يتدلى إلى أسفل مثلما يفعلون أنفسهم ذلك إذ إن هذا يكون بمثابة ظل يحميهم من الحر الذى يشتد كثيرا فى بلادهم. و مع ذلك فإن أى امرىء يستقصى أخبار أميرهم أو يروم الحضور يقدم له بدلة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۷

من الملابس أو غيرها، أو يريد أن يمر به، أو أن يستكرى أحدا منهم ليدله على الطريق إلى مكان ما، أو أن يجتاز بلادهم، لا بد و أن يجد فى الحال واحدا منهم مستعدا للقيام بمثل هذه المهمة و تأديتها بثمن بخس.

على أنه لا توجد بين الأتراك مثل هذه الطاعة. لأنك إن طلبت إلى الأتراك أن ينجزوا لك أمرا ما باسم سلطانهم فإنهم لا يستجيبون إلى ذلك إلا إذا كان مثل هذا الأمر يحقق لهم أرباحا وفيرة، و لو استعنت بأحد الأدلاء من الأتراك لاقتضاك هذا قدرا كبيرا من النفقة أكثر مما يتقاضاه الدليل العربى.

و يتذكر الأعراب سيدهم كل يوم و يندر أن يتحدثوا عن شىء آخر سواه، فيتحدثون عن ثرائه و اتساع ملكه بفخر و مباهاة، لأن جزءا من مملكته يعود إليهم أنفسهم و لهذا فإن عليهم أن يحترموها.

لم ننفق أنا و رفيقى فى هذه الرحلة النهرية شيئا كثيرا، و ذلك لأن المدن كانت على مسافات بعيدة إحداها عن الأخرى، بحيث لا نستطيع أن نبلغها لنتزود منها كل يوم بالحاجيات الضرورية، أو نجوس أماكن الراحة فيها (كما نفعل ذلك فى بلادنا حين نمخر عباب نهرى الدانوب و الراين).

و لهذا السبب كنا مضطرين إلى أن نقنع ببعض الأطعمة الخفيفة أو غيرها، أو أن نكتفى باللبن الرائب و الجبنة و الفاكهة و العسل و ما سواها، فنتناول هذه الأطعمة مع الخبز، و نستمتع بتناولها.

و العسل فى هذه المناطق جيد جدّا و هو من نوع أبيض اللون و يحمله القوم هنا فى القوافل و السفن فى مزاود من الجلد تملأ به، و هم يقدمونه إليك فى أقداح صغيرة، و يضيفون إليه قليلا من الزبدة، و بذلك تستطيع أن تتناوله مع البسكويت.

و كنت حين أتناول مثل هذا الصحن أتذكر «يوحنا المعمدان» و كيف

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۸

بشر بسيدنا، و كيف كان هو نفسه يتناول العسل فى الصحراء مع الأطعمة الأخرى .

و ما خلا ذلك فحين كنا نفكر فى تناول طعام الفطور، كان البعض منا حين ينزل آمر السفينة إلى البر ليلا، يسارع إلى البحث عن حطب فى الوقت الذى يكون فيه البعض الآخر قد حفر حفرة فى الأرض عند الشاطىء فى شكل موقد لنشوى فيه ما لدينا من لحوم. و هكذا تتناول كل جماعة منا ما ترغب فى تناوله أو ما تحتفظ به لديها من طعام. فالبعض منا يطبخ الرز و البعض الآخر يطبخ البرغل و غيره.

و حين يودون تناول خبز طرى، خلال فقدان البسكويت يأتون بالدقيق و الماء فيصنعون منهما عجينا يقطعونه على شكل أقراص واسعة سمكها سمك الأصبع ثم يلقون بها فى موقد محفور فى الأرض، و يغطونها بالرماد و الفحم، و يقلبونها عدة مرات إلى أن تنضج و

تكون هذه الأقراص طيبة الطعم جدّا عند تناولها .

و يحتفظ بعض الأعراب فى خيامهم بصحون من الحجر أن النحاس لصنع الخبز.

فى اليوم الرابع، و هو آخر يوم من أيلول وصلنا عند الظهر إلى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۵۹

نهايـة سلسـلة الجبال و كانت تقوم أمامها و على هـذا الجانب من النهر قلعـة كبيرة فوق تل عال، شـيدت مربعـة الشـكل على يـد أناس يسـمونهم «الصـليبيين» و لها فتحتان تنحـدران إلى النهر فى حين تؤلف الفتحـة الثالثـة طريقا واسـعة إلى الجبل و هـذه القلعة تشـبه فى وضـعها قلعـة «بـادن» بسويسـرا و مع أن القلعـة مهدمـة إلا أن جـدرانها لا زالت قويـة جـدّا سواء فى القمـة أو الجوانب و على الأخص الجـدران المتجهـة نحو الجبل و النهر، و القصد من ذلك هو الحيلولة دون الوصول إليها من ناحيتى النهر و الجبل معا. و لا تزال بعض أبراج المراقبـة قائمـة فيها عنـد الاتجاه نحوها من ناحيـة الجبل، و هذه الأبراج لا تضم سوى ثلاثة أو أربعة جنود و ما سوى ذلك فهى فى شـكل خرائب لاـ تسـكن فيهـا سوى الطيور و الهوام، و قـد ظهرت أعـداد هائلـة من هـذه الطيور على شـاطىء النهر، منهـا «مـالك الحزين» و نوع من البط كبير الحجم زاهى الألوان سـماها (أرسـطو) باسم (بليكان) و سـماها غيره باسم (أونوكروتالى) و قد أشار إليها النبى «صفنيا» فى إصحاحه الثانى عند ما أنذر أهل نينوى و الآشوريين و العرب بالعقاب.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۰

و هناك أنواع أخرى سوداء اللون ذات أعناق طويلة مما شاهدته بكثرة أثناء سـفرتى إلى فلسـطين و لا سيما على مقربة من (عكا) بين الجبال و شاطىء البحر، و يبدو أن هذه أنواع من صقور البحر و هى تعيش على السمك أكثر من أى غذاء آخر.

و على مسافة سـتة أميال إلى الجنوب و عند الشاطىء الآخر لنهر الفرات يقوم حصن آخر يدعى «الصـليبية الواطئة» على ضـفة عالية من النهر. و لما كنا قد مررنا سريعين بهذا الحصن فلم نستطع اكتشافه بشكل جيد.

و لقـد سـررت كثيرا بما عرفته عن هـذين الحصـنين، و عن الطريق الذى يسـلكه حكام الجزيرة العربية أو ملوكها، و لكن اللغة التى لم أكن ألمّ بها جيـدا كانت تعوقنى عن ذلك. و حتى لو كنت قـد عرفت هـذه اللغـة جيـدا، و أجريت ما فيه الكفاية من التحرى عن هذه الأشياء، فلن أستطيع أن أنجز ذلك كله دون خطر التعرض للاعتقال بتهمة التجسس، ذلك لأن القوم سرعان ما يشتبهون بالأجانب فى أى حادث طفيف يحدث، و على هذا فإن التجارة فى هذه الأنحاء لا تمارس من دون المزيد من الخسائر و الأخطار.

شاهدنا فيما وراء الجبال فى هذه الأراضى الواطئة مساحات شاسعة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۱

من الأـرض المزروعـة و فيهـا من السـكان العرب أكثر ممـا شاهـدناه قبلا، و قـد نزل ربان سـفينتنا إلى إحـدى القرى ليشترى لنا بعض الأطعمة لسفرتنا المقبلة حيث اعتاد السكان أن يجلبوا إلينا اللحم و البطيخ لبيعه لنا.

حـدث هنـا فى منتصـف الليـل أن خرج أحـد الجنود الأـتراك إلى شـاطىء النهر للاسـتمتاع و حين كـان منشـغلا بـذلك زحف أحد الأعراب إليه فألقى به فى النهر و هرب قبل أن يتبينه، و راح ذلك التركى يصرخ وسط النهر طالبا النجدة. و لقد سمعت أنا، حين كنت أقوم بمهمة الحراسة فى تلك الليلة، صـراخه فأسرعت و بندقيتى فى يدى و أنا أتعقب صوته حتى وصلت إلى مكانه، و إن كان مظلما إلاـ أننى اسـتطعت أن أتبينه و أن أسـحبه من الماء و آتى به إلى السـفينة. و لقـد سـر جميع الأتراك بـذلك لأننى تحركت بكل قواى لصالحهم فراحوا يزجون على الثناء طوال الطريق إلى أن وصلنا بغداد حيث مقر الحامية التى أرسلوا لتعزيزها.

فى اليوم الأول من تشـرين الأول، و قـد اسـتمرت رحلتنا، أقبل سـعاة البريـد فى الصـباح الباكر إلى جانب النهر و كانوا سـتة من العرب يمتطون الخيول، ليستفسـروا منا عما إذا كان شـيخهم قد رحل من هناك، و أين يمكنهم العثور عليه إذ إنهم كانوا يحملون إليه رسائل من السـلطان و لا بد لهم أن يتعقبوه إلى أن يجدوه. و قد أنبأهم ربان السفينة (و هو الشخص الذى يتوجه كل امرىء بالسؤال إليه) بأننا

قد شاهدناه فى إقليم يدعى (الخابور) و قد ارتحل عنه مع رجاله متوجها إلى الجزيرة العربية و فى مقدورهم أن يعثروا عليه هناك. و بعد هذه الاستفسارات غادرنا السعاة بينما واصلنا نحن مسيرتنا فشاهدنا أمامنا و على بعد، مدينة على الجانب

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۲

الأيمن من النهر تدعى (سكرية) تخضع لحكم أمير العرب قال الأتراك عنها إنه لا يسكنها أحد سوى كبار اللصوص و هم لا يخضعون لأى سيد آخر سوى سيدهم.

و لقد مررنا بهذه المدينة و اتجهنا مباشرة نحو «الدير» و هى مدينة أخرى، فأصبحنا على مسافة ثلاثة فراسخ.

و العرب لا يقيسون المسافات بالفراسخ لأنهم لا يعرفون سوى القليل عنها بل قد لا يعرفونها قط، و إنما يحسبون المسافات بأيام السفر.

و سبب ذلك أن مدنهم تقع على مسافات بعيدة يضطرون إزاءها إلى الغوص فى أعماق الفيافى عدة أيام قبل أن يصلوا إلى تلك المدن.

قبل أن نبلغ تلك المدينة راحت إحدى سفننا تجرى بسرعة نحو جانب واحد متجهة إلى أحد فروع النهر الذى يمر بالمدينة (حيث ينقسم النهر هنا إلى عدة فروع) و سرعان ما غطست فى الطين و توقفت عن السير.

و ما إن رأى الربان ذلك حتى نزل من السفينة التى كان فيها حالا، و أرسل رجاله لمساعدة رجال السفينة المتوقفة. و هنا توفر لى بعض الوقت لفحص النباتات و الأشجار القائمة عند الشاطىء حيث شاهدت الكثير من الطرفاء و نوعا خاصا من الصفصاف يسميه السكان باسمه العربى القديم و هو «الغرب» و هذه الأشجار عالية و تنتشر بكثرة و أغصانها أقوى و أكثر لينا حيث تصنع منها المرابط و المشدات بالشكل الذى نفعله نحن فى بلادنا.

أما شجرة الكينا فهى ذات لون أصفر شاحب و أوراقها من ذات اللون طويلة عرض الواحدة منها زهاء أصبعين. و لما كنت قد وجدت هذا الشجر جافا بلا زهر فلست أستطيع أن أقول شيئا عن أزهاره و أثماره (و قد أشار ابن سينا إلى ذلك فى الفصلين ۱۲۶ و ۶۸۶ من كتابه).

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۳

رفض التركى الذى يقود السفينة الموسقة بالقمح، أن يتوقف إلى أن نخرج السفينة الغاطسة من الوحل، و واصل سفره، و لكن سرعان ما تحطمت سفينته تلك و فقد قدرا كبيرا من القمح الذى يريد إيصاله إلى بغداد التى كان يسميها باسم (بلداك) ليبيعه هناك نظرا لقلة الغلة فيها بسبب انحباس الأمطار و عدم سقوطها طيلة سنتين و نصف السنة. و مع ذلك، و كما قالوا، فإن المطر إذا ما سقط مرتين أو ثلاثا فى السنة كان ذلك كافيا لمسرة القوم و إسعادهم.

بعد أن كافح رجالنا لأكثر من ساعة حتى أفرغوا السفن من حمولتها عادوا إلينا ثانية كيما نبدأ حركتنا فى تلك الليلة إلى مدينة «الدير». غير أن بعض الصخور كانت تعترض طريق السفينة، و كان المرور فيما بينها ينطوى على مخاطرة. و لذلك ما إن فهم بعض ملاحى السفينتين الأخريين عمق الماء حتى اقبلوا لمساعدتنا حيث استطعنا الخروج من المنطقة الخطرة بسلام.

تقع مدينة «الدير»، و هى ليست كبيرة و تخضع لحكم السلطان، على هذا الجانب من النهر فوق مرتفع . و تقوم فيها مساكن حسنة البناء. و قد وقف عدد كبير من الناس لمشاهدتنا و نحن ندخل إلى المدينة و كانت أسوارها و الخنادق المحيطة بها شاخصة للعيان.

و حين وصولنا لأول مرة ظننا أن فى مستطاعنا أن نتفاهم مع موظف الكمرك حول المكس المفروض على سلعنا و نتحرك ثانية، لكننا لم نجده فى المدينة فاضطررنا إلى أن نمكث فيها مدة ثلاثة أيام انتظارا لمقدمه إليها. و فى الوقت ذاته تعرفنا إلى سكان المدينة و قد وجدناهم حسنى الصور أصحاء الأبدان كثيرى الجشع لكنهم مع ذلك كانوا أكثر انتظاما و تأدبا من غيرهم. فقد كانوا يزوروننا من دون كلفة، و يتحدثون إلينا

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۴

برفق، و هكذا وجدنا فرقا شاسعا بينهم و بين غيرهم ممن سبق لنا أن شاهدناهم قبلا.

و حين قصدنا موظف الكمرك وجدناه لم يكن أقل تأدبا من غيره، فقدم لنا صحنا كبيرا من الزبيب و أنواعا أخرى من الحلويات محاطة بقطع من الصابون (كما هى العادة الجارية فى هذه البلاد) و هذا ما اعتاده هو و عائلته أيضا، و فى مقابل ذلك قدمنا له و لجماعته أوراقا بيضاء تقبلوها بشوق و سرّوا بها كثيرا (مثلما يسر الأطفال فى بلادنا حين نقدم لهم شيئا فريدا أو مسرا لهم) و كانوا ينظرون إلى تلك الأوراق و يبتسمون.

و الأرض هنا خصبة غنية بالقمح و الشعير و القطن و غيره بالإضافة إلى البساتين الواسعة الحسنة، و مزارع الخضار المنتشرة على ضفاف الأنهار و التى تضم مختلف الثمار و الأشجار و منها الرقى و الخيار و البطيخ التى توجد بوفرة حيث يستطيع المرء أن يشترى أربعين بطيخة كبيرة بمبلغ (أسبر) الذى يعادل كل ثلاثة منه «معدنا» واحدا أى أكثر من قيمة (البنى) عندنا. و بالإضافة إلى ذلك تكثر أشجار النخيل و الليمون و البرتقال و غيرها مما لم أستطع تمييزه عن بعد.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۵

الفصل الحادى عشر مدينة «عنة»

بعد أن دفعنا الرسم الكمركى إلى «الملتزم» الذى كان على قدر كبير من الأدب بالقياس إلى الموظف الذى شاهدناه فى الرقة، و تزودنا بالحاجيات، وضعنا نصف الحمولة فى سفينتنا كيما نسحبها من الفرع إلى النهر ثانية. و إذ ذاك نقلنا بقية الحمولة إليها فى زوارق صغيرة، و هكذا أقلعنا من هناك فى مساء اليوم الرابع من تشرين الأول فأمضينا الليل كله غير بعيدين عن مدينة الدير.

و فى صباح اليوم التالى استأنفنا رحلتنا فسارت بنا السفينة سيرا حسنا حتى الظهر حين وصلنا إلى مكان ضحل و واسع فى النهر لم يعرف ربابنا كيف يخرج السفينة منه. و إذ كان مضطربا دائب التفكير ظهر على الشاطىء بعض الأعراب فأشاروا لنا إلى المجرى الذى يجب أن نسير فيه لكننا لم نثق بهم لأننا سمعنا قبلا بأنهم قد أغرقوا بعض الأحجار الكبيرة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۶

قبل شهر مضى، و أقنعوا ملاحى إحدى السفن بأن يمروا من هناك، و لم يكتشف الملاحون تلك الخدعة إلا بعد أن تحطمت سفينتهم إثر ارتطامها بتلك الأحجار و غرقت. و ذات الشىء فعله هؤلاء الأعراب مع عدد آخر من السفن تعرضت للخطر نفسه و لم يستطع من كان فيها إنقاذ أنفسهم مما أصابهم إلا بعد عدة أيام.

على أننا حمدنا اللّه و شكرناه إذ خرجنا من ذلك الموضع خلال ساعة واحدة بعد أن سحبنا سفينتنا قليلا إلى الوراء ثم دفعنا بها إلى الماء العميق الغور، مما أثار دهشة أولئك الأعراب.

أما السفن الأخرى التى كانت تسير مع سفينتنا، فمع أنها لم تتأخر طويلا إلا أننا مع ذلك بذلنا المزيد من الجهود لإخراجها من الماء الضحل، إذ كانت تلك السفن أقل طولا و أقعارها مجوفة و هى و إن كانت تستدير بسرعة إلا أنها لم تنزلق على سطح الماء مثل انزلاق سفينتنا ذات القعر المسطح.

و فى وقت مبكر من الغروب شاهدنا على مسافة غير بعيدة فى الجانب الآخر من النهر قلعة تقوم فى سهل تدعى «سيرى» ، ذكر الأعراب عنها أنها قد تهدمت منذ سنين عديدة، و أن نهر الخابور ، و هو من الأنهار الكبيرة نوعا ما، يبدأ من شمالها ثم يمر بها و يكون ماؤه نقيّا أشبه بماء الينبوع ثم يجرى أسفلها بمسافة قليلة ليصب فى نهر الفرات.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۷

كنا نعتقد أننا من هناك سوف نصل «الرحبة» التى تخضع لحكم أمير العرب، إلا أننا توقفنا فى ملاحتنا و إذ ذاك هبطنا على مقربة من القلعة بعد حلول الظلام حيث استأنفنا فى صباح اليوم التالى مسيرتنا إلى المدينة، و كانت هذه كبيرة نسبيّا و تقع على مسافة نصف

فرسخ عن النهر و فى أرض خصبة جدّا و قد مكثنا فيها حتى اليوم التالى لنبيع فيها بعض السلع بينما تجول اثنان من رفاقنا فى داخل المدينة لدعوة التجار فيها إلى المقايضة معهم.

بعد أن أمضينا ذلك اليوم كله تحركنا فى صباح اليوم التالى نحو «شارة» و هى قرية صغيرة تقع على الضفة اليمنى من النهر و على بعد نصف فرسخ عنه و تخضع لحكم أمير هذه المنطقة العربية، و قد هبطنا إليها لندفع الرسم المعتاد. و كنت و أنا فى السفينة أشاهد على جوانب النهر عددا كبيرا من الأشجار و النباتات التى لم أستطع أن أتبين أنواعها لبعدها عنى.

و من «شارة» سارت سفينتنا سيرا منتظما و لأيام عدة. و كان النهر فى الغالب يمر وسط صحارى رملية واسعة كتلك التى مررنا بها قبلا، و هى تمتد إلى مسافات شاسعة لا نستطيع أن ندرك نهايتها، و كلها أراض قاحلة لا أثر للزرع أو الشجر أو النبات فيها. و هذا ما جعل تلك الصحارى تسمى بحق «بحار الرمال» و التى يتوقع المرء أن يجابه فيها بالأعاصير كما يحدث ذلك فى البحار تماما، و تثور فيها أمواج الرمال كأمواج البحار حقّا. و لهذا يعتمد السائرون فى قوافل كبيرة عبر هذه الصحارى على أدلاء

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۸

ماهرين مثلما يعتمد على الربان فى السفينة و الذى يعرف كيف يوجه طريق السفينة بالحك.

و لما كانت الطريق طويلة جدّا فإنهم يتزودون بالمزيد من الأطعمة التى تكفيهم وقتا طويلا مثلما يفعل ذلك المسافرون بحرا، إذ يوسقون الثلث من إبلهم بتلك الأطعمة و اللوازم و لا سيما الماء منها لإرواء أنفسهم و دوابهم منه، إذ لا يمكن العثور على ينابيع الماء فى الصحراء إلا بالاعتماد على الصهاريج التى تعد الآن جافة لأنها تعتمد على ما يسقط فيها من مياه الأمطار.

و لقد أمر السلطان التركى ببناء ثلاثين ألف صهريج من هذه الصهاريج فى الصحراء و عرفت ذلك أثناء وجودى فى حلب. كذلك أمر السلطان بأن تزود هذه الصهاريج بالماء ذلك لأن الجيوش التركية، حين تنتقل من مكان إلى آخر فى الأيام التى يكون الأتراك خلالها فى حرب مع ملوك فارس أو أمراء الجزيرة العربية، لن يعوزها الماء. و حتى إذا ما وجدت أحد الصهاريج خاليا من الماء فقد تعثر على الماء فى صهاريج أخرى غيره.

فى اليوم التاسع من شهر تشرين الأول شاهدنا بعض الأبراج القديمة تقوم على ضفة عالية من النهر عند نقطة تدعى (أنسبى) يقول البعض عنها إنها كانت مدينة شهيرة يوما ما.

فى هذا الموضع يستدير النهر استدارة واسعة لا تخرج السفن منها إلا بعد انقضاء نصف يوم. و لقد شاهدنا أمامنا و على الضفة الأخرى من

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۶۹

النهر عددا من الأعراب يمتطون الخيول. و لما كنا نخشى وقوع أى اعتداء على أموالنا، فقد رحنا نزيد فى حدرنا و نشدد حراستنا كما حدث لنا ذلك فى الليلة المنصرمة.

فقد عهد إلى بالحراسة فى تلك الليلة و إذ ذاك صعدت إلى الجزء الأخير من السفينة كيما أستطيع أن أرقب اللصوص من هناك حالما يقبل أحدهم نحو السفينة، ثم وضعت بندقيتى إلى جنبى (و هذا ما اعتدناه فى كل وقت) و بعد أن استلقيت لففت جسمى بالمعطف الواقى من الجليد ذى الأردان الطويلة لأتقى بذلك سقوط الندى و الصقيع الذى يكثر سقوطهما هنا. و بعد حراسة طويلة غلبنى النعاس فنمت و إذ ذاك أقبل أحد اللصوص فى الماء إلى الموقع الذى كنت مستلقيا فيه فى السفينة فى صمت فأمسك بأحد أردان المعطف، و كانت متدليا إلى أسفل، على أمل أن يسحبه برفق و هو لا يدرى بأننى كنت ملتفا به، و إذ أحسست أن شخصا ما كان يتحرك و أنه يريد سرقة معطفى نهضت فشاهدت رأس اللص و إذ ذاك أمسكت ببندقيتى لأوجه رصاصة إليه، لكنه ما إن رآنى حتى هرب سابحا فى النهر. و استيقظ أفراد الجماعة الذين رقدوا بجانبى و حين استفسروا عن الخبر و أنبأتهم بما رأيته فرحوا لذلك و راحوا يزجون إلى الشكر على حذرى و دقة حراستى.

و فى الوقت الـذى كنـا نخشـى فيه سـطو الأـعراب علينـا ليلاـ تراهم يقبلون فى النهار علينا مع زوجاتهم للتعامل تجاريّا معنا، إذ يسارع ربـان سـفينتنا فى النزول إلى اليابسـة ليسـهل على التجار مهمتهم، و هم الـذين يحملون كل أنواع السـلع معهم من قوالب الصابون إلى خرز الكرسـتال و العقيق الأصـفر، و الأساور الزجاجية من مختلف الألوان التى تلبسها النسوة فى أيديهن و أقدامهن، و أنواع أخرى من اللعب المصـنوعة من الزجاج ذى الألوان الحمراء و الصفراء و الخضراء و الرمادية و كذلك علب البرنز و الرصاص، و الأحذية الطويلة التى تشد بسيور من الجلد و غير

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۰

ذلك مما يقايضونه مع العرب بجلود الماشية و الجبنة و اللبن المجفف و أشياء أخرى، و بالنقود أحيانا.

و لا تختلف سـحنات هؤلاء الأعراب عن سـحنات الغجر كثيرا إلا فى جمال سمرة وجوههم. و هم سريعو الخفة فى أعمالهم. لكنهم لا يعنون بالعمل كثيرا و إنما ينفقون جل أوقاتهم فى الكسل، أو يختصـمون مع بعضـهم البعض بأصوات عالية و ضـجة صاخبة لكن يندر أن يهاجم أحـدهم الآخر. و هم يحلقون شـعور رؤوسـهم فلا يبقون منها سوى القمـة، و يتركون- مثل الأتراك- ضـفيرة طويلـة تتدلى على ظهورهم.

أما ألبسـتهم فتتألف من صـداريات مصـنوعة من نسـيج الصوف ليست لها أردان و تكون طويلـة حتى تصل إلى الركبة، مثل الصدارية التى كنت أنا أرتديها فى رحلتى. و هذه الصداريات مخططة بخطوط سوداء و بيضاء.

و هم يلبسون تحتها قمصانا طويلـة تصل إلى الكعب و تكون مفتوحـة عنـد الرقبـة و هى رمادية اللون غالبا ذات أردان واسـعة يدعونها تتحرك عنـد مـا يسـيرون أو حين يحملون أسـلحتهم للتظـاهر بها، و هم يتمنطقون فوق ثيابهم هـذه بأحزمـة عريضـة من الجلـد تكون مرتفعة. و أنت تكاد لا ترى هذه الأحزمة بل ترى الخناجر المعقوفة التى علقت بها بالشـكل الذى نحمل به نحن الأوروبيون سيوفنا. أما رمـاة النبـال فـإنهم يضـعون أحيانا بعض أسـلحتهم خارج ثيابهم و يتركون صـدورهم عاريـة فى ذات الوقت كيما يسـتطيعوا أن يقاتلوا بطلاقة و من دون أية عوائق.

و الـذين لاـ يسـتطيعون منهم شـراء الأحذيـة يسـتعملون بـدلا عنها أعناقا من جلود يلفونها فوق أقـدامهم بخيوط من الشـعر. و لا يلبس الرجال السراويل بينما ترتدى النسوة سراويل طويلة تمتد حتى الكعب.

و وجوه النساء ليست مغطاة بالحجاب مثلما عليه نساء الأتراك.

و هن يعصبن رؤوسهن بعصائب تميل ألوانها إلى السمرة أكثر من البياض يتركنها معلقة إلى وراء فى شكل عقدة كبيرة.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۱

و حين يرغبن فى التجمـل يحملن مقتنيـاتهن الثمينـة (من خرز العنبر أو المرمر أو الزجـاج المختلفـة الأـلوان) فى قلائـد يعلقنهـا تحت صدوغهن حتى إذا ما انثنين أو تحركن راحت تلك القلائد تضرب وجوههن بل قد تعيقهن أحيانا عن أداء أعمالهن.

أما اللواتى ينتمين إلى طبقـة أعلى، أو يحاولن أن يصـبحن غنيات و جميلات فى ملبسـهن فتراهن يلبسن الأقراط الفضـية و الذهبية فى أنوفهن (مثلمـا يفعـل ذلـك البعض عنـدنا فى بلادنـا الأوروبيـة حين يلبسون قرطـا فى إحـدى الأـذنين) بالإضافـة إلى العقيق الأحمر و الفيروزج، و الياقوت الأحمر، و اللؤلؤ و غيرها. كـذلك تلبس النساء أساور فى أقـدامهن و أيـديهن و بكميات كثيرة أحيانا حتى إذا ما تحركن أو خطون راحت تلك الأساور تعلو و تهبط فى أيـديهن و أرجلهن محدثة أصواتا مسـموعة، و تلك من الأسـباب التى دعتنى أسهب فى التحدث عن سكان هذه البلاد و الصحارى بالصفة التى وجدتهم عليها.

*** بعد أن اجتزنا صـحراء واسعة أخذنا نقترب من مدينة (عنه) و قد هبط ربابنا إلى اليابسة ليلا و فى مكان جميل يبعد زهاء فرسخ و نصف الفرسـخ عن المدينـة، حيث أمضـينا الليلـة فى ذلك المكان، لأنه كان من الخطر علينا جـدّا أن نواصل الملاحة فى النهر بسـبب سرعة تياره و وجود بعض الصخور فيه.

تشتهر هذه المدينة بجمالها و ذلك لكثرة الأشجار المثمرة فيها من أمثال الزيتون و الليمون و البرتقال و الرمان و الليمون الحامض و كذلك أشجار النخيل التى لم أر لها شبيها بما شاهدته من أمثالها فى سفراتى.

فقد كانت هذه النخيل سميكة و صلبة للغاية. و حين ذهبت مع بعض من رفاقنا إلى المدينة وجدنا كميات كبيرة من الفواكه لم تعجبهم إطلاقا و قد رأينا بينها نوعين من هذه الفواكه التى اعتادوا جلبها إلى بلادنا، أحدهما

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۲

أحمر اللون و الآخر أصفره أطلق عليهما «سيرابيو» اسم «هيرون» و ذلك فى الفصل التاسع و الستين من كتابه، و مع أنهما أقل حجما مما هو معروف لدينا إلا أنهما من نوع جيد و ذى طعم لذيذ.

فى صباح اليوم التالى تركنا أمر السفينة إلى ربانها و توجهنا نحو المدينة و قد شاهدنا و نحن فى الطريق إليها أشجارا مثمرة وفيرة إلى درجة أننا لم نصدق ما شاهدناه بعد أن أقبلنا من تلك البرارى القاحلة التى كانت تمتد من «الدير» القريبة من حلب إلى مثل هذه الأرض المزروعة.

فقد بانت لنا أمام المدينة حقول من القطن الطرى و الكثيف مما قد لا يجد المرء أمثاله فى مكان آخر، إضافة إلى حقول القمح الزاهية التى علت سنابلها و نضجت و حان وقت حصادها، فضلا عن الأشجار القائمة حواليها و المثقلة بالثمار، مما جعل تجوالنا فيها مبهجا.

و لم أر فى الطريق من النباتات الغريبة سوى ما شاهدته فى حقول القمح من نبات (الماش) العربى الذى أشرت قبلا و الذى يظن عنه أنه هو نبات (كوركوروم) الذى ذكره «بلينى». كذلك رأيت نبتة أخرى تشبه السمسم إلا أن ساقها أطول و أمتن، و أوراقها أخشن و أكثر عددا، شبيهة بأوراق الصفصاف فى الطول و اللون، و هى تحمل أزهارا صفراء اللون ذات عروق حمراء أو بنية اللون تنتهى بعقد طول الواحدة منها بقدر الأصبع و بمقدار سمكه و مدببة عند الرأس، و لها خمسة أصناف تحوى البذور التى تشبه نوعا من الخباز الذى يسمى «أبوتيلون» .

*** و لقد استفسرت كثيرا عن هذه النبتة فلم أجد لها اسما آخر غير

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۳

الاسم الذى يطلق عليها و هو اللوبياء الهندية ، و لكن طبقا لمعلوماتى أعتبر هذه النبتة هى «الفل» التى أشار إليها «ثيوفراستس» فى أماكن عديدة من كتابه.

يقسم نهر الفرات مدينة (عنه) إلى قسمين، بل بالأحرى إلى مدينتين، إحداهما ليست كبيرة لكنها محصنة تحصينا جيدا بأسوار قوية لا يمكن الدخول إليها إلا بواسطة الزوارق و هى تخضع للأتراك.

أما القسم الثانى فيقع على الضفة اليمنى من النهر و يخضع لأمير الجزيرة العربية و هو واسع لكنه غير محصن جيدا بالأسوار و الخنادق، و لذلك فإن فى مستطاع المرء أن يدخل إليه و يخرج منه ليلا مثله فى ذلك مثل بقية المدن الأخرى التى تتبع نفوذ الأمير العربى.

و يدعى هذا القسم من المدينة و الإقليم الذى يقع فيه (بالقائم) و يبعد مسيرة خمسة عشر يوما عن حلب. و هناك طريق جيدة تمتد إلى النهر و لذلك فقد أمضينا ساعة فيه قبل أن نصل إلى منزل ربان سفينتنا و الذى يقع على مقربة من المرسى الذى رست عنده.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۴

و جدران هذا المنزل مشيدة بالآجر و الحجر تشييدا جيدا و هو واسع و لا يرى المرء أحدا على الجانب الآخر منه إذ تقوم فيه حديقة واسعة تضم أشجار النخيل و الليمون و البرتقال و الرمان و هى مثقلة بالثمار و على الطرف الآخر من النهر لم أشاهد شيئا سوى أكواخ تشبه الأكواخ الصينية قائمة فوق التلال.

و قد لاحظت و نحن فى طريقنا إلى عنه أن بعضا من جماعتنا (و كنت أجنبيّا بالنسبة إليهم) قد تخلوا عنى، و شرعوا يقنعون ربان

سفينتنا، و هو من أبناء هذه المدينة، بأن لا يأذن لى بمشاهدة معالم المدينة، و أن يتهمنى أمام حاكمها بالتجسس زاعما بأننى كنت أشاهد كل المدن و الأماكن بدقة، و أننى كنت أفكر فى خيانتهم حالما تحين لى الفرصة، و أنهم سيخيفوننى بهذه الوسيلة و يحصلون بذلك على رشوة طيبة منى فى النهاية. و فعلا ذهب البعض منهم إلى نائب الباشا و طلبوا إليه أن يرسل أحد خدمه معهم، و كان هذا الخادم قد التقى بى فى أحد الشوارع الطويلة و هو يحمل فى يديه أغلالا و أصفادا من الحديد كانت تتدلى من يديه إلى الأرض فاقتادنى معه و إذ ذاك أحسست بنواياهم السيئة تجاهى و بما كانوا يعتزمون تنفيذه ضدى. و ذهبت مع خادم الحاكم لأرى ما سيفعلونه معى، حتى إذا وصلوا إلى المرسى أمرونى أن أصعد إلى السفينة، و أن أمكث فيها و أتلقى الأوامر منهم. و أخيرا اتفقوا فيما بينهم و أخبرونى على لسان واحد منهم، كان يمتطى جوادا و يرتدى صداريّا من الفراء بأننى إذا كنت أريد حريتى فعلى أن أدفع إلى نائب الباشا مبلغ خمسمائة دوقة. و حين قلبت الأمر على وجوهه و وجدت نفسى بأننى قد غدوت وحيدا، و أن هذه الطلبات ليست معقولة، و رأيت نفسى فى مثل هذا الحرج و الخطر، فكرت أن هناك حاكما آخر فى القسم الثانى من عنه الذى يقع على الضفة الثانية من النهر، و أن هذا الحاكم تركى و أستطيع أن أرفع شكواى إليه ضد مطاليبهم الجائرة هذه، و لا سيما بعد أن فقدت كل

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۵

أمل فى الحصول على عون منهم. و لذلك تزودت بجواز سفرى، و أعددت ملابسى كيما أستطيع السباحة فى النهر و الخلاص من أيديهم إذا ما حاولوا مهاجمتى و إلقاء القبض علىّ.

و أخيرا، و حين كانوا ينتظرون جوابى و النقود التى طلبوها منى أنبأتهم بما صممت على تنفيذه و ذلك بكل بساطة و وضوح، فانتابهم جراء ذلك خوف أشد من الخوف الذى أثاروه فى نفسى قبلا- و عندئذ أيسوا من الحصول على بغيتهم الظالمة و لم يحصلوا من الخمسمائة دوقة التى طلبوها سوى دوقة واحدة دفعوها إلى خادم الحاكم تخفيفا له عن المتاعب التى تحملها فى سبيل ذلك.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۷

الفصل الثانى عشر الطريق الذى سلكناه من عنه إلى بابل القديمة عبر المدن القديمة المسماة حديثة و جبة و هيت

بعد أن انتهت الكارثة التى كادت تقع على رأسى، و بقوة من اللّه العظيم منحنى إياها و أسر بها إلى لأفعل ما فعلت، غادرنا (عنه) فى الرابع

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۸

عشر من تشرين الأول. كان يمتد أمامنا ريف مخضوضر مثمر تناثرت فوقه بعض الدور الجميلة هنا و هناك بشكل متقارب، فما نكاد نمر أمام واحد من هذه الدور حتى نشاهد الثانى ببساتينه و حدائقه التى تحيط بها أشجار النخيل الجميلة و أشجار أخرى غيرها مما لم أستطع تمييزه منها لأنها كانت تمتد إلى مسافات بعيدة، و على هذا المنوال لمسنا تغييرا كبيرا. فالفيافى المقفرة التى كانت تضم مساحات شاسعة حتى النهر تكاد لا ترى شجرة واحدة فيها طيلة مسيرة يوم واحد، هذه الفيافى قد تحولت فى نهاية مدينة عنه إلى أرض خصبة، فغدت الرحلة خلالها مفرحة جدّا سيما و أننا لم نعد نخشى من خطر الأعراب علينا. على أن ربان السفينة كانت تبدو عليه علائم الاضطراب الشديد لأن النهر كان عند الضفاف مغلقا عادة بصخور كبيرة تجعله يرتفع عاليا و ذلك بسبب وجود عدد كبير من مكائن أو دواليب الماء الضخمة المرتفعة حيث تطرح تلك الصخور فى النهر كيما تحصر الماء فيندفع بقوة إلى تلك الدواليب و يحركونها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۷۹

و غالبا ما يحدث أن تقوم اثنتان من هذه المكائن فى موضعين متقاربين فتشغلان بذلك مساحة واسعة من النهر بحيث كان يصعب علينا المرور بسفينتنا خلالها إلا بحذر شديد من جانب الربان لنستطيع المرور دون التعرض إلى خطر الاصطدام.

و السبب فى وجود هذا العدد الكبير من هذه المكائن هناك أن النهر لا يفيض (كما هو شأن نهر النيل) فيغمر الأراضى، و لأن المطر لا يسقط فيها بكميات تكفى لإنبات البذور و زراعة البساتين، و لذلك يقدم أهل هذه البلاد على إنشاء هذه المكائن و الدواليب المائية حيث تقام كل ثلاثة أو أربعة منها مجتمعة، الواحدة منها خلف الأخرى فى عرض النهر فتدور ليل نهار، و بذلك ترفع الماء من النهر و تفرغه فى قنوات خاصة أعدت لهذا الغرض و بقصد إرواء كل الأراضى.

و لكن إذا لم تكن الأرض ملائمة، و كان الشاطىء مرتفعا كثيرا يحول دون نصب هذه المكائن، فإن القوم يعتاضون عنها بآلات أخرى يديرها زوج من الثيران لرفع الماء من النهر فى أوعية جلدية كبيرة تكون مفرطحة فى القسم العلوى، و ضيقة عند القعر.

و تمتاز هذه الأراضى بكثرة ثمارها. ذلك لأننا سرعان ما وجدنا كميات كبيرة من الفواكه اللذيذة التى ابتعناها بقليل من النقود، و كان من بينها البطيخ الشهى الطعم جدّا.

و حين تقدمنا فى مسيرتنا شاهدنا الأراضى القائمة على ضفتى النهر و قد زرعت كلها بالذرة التى يكثر السكان من زراعتها بكميات أوسع من الحنطة أو الشعير إذ إن الرمال العميقة الغور تحول دون زراعة الحنطة فيها بشكل جيد. و قد وجدنا هذه الذرة قد حان حصادها بل إنها حصدت فعلا فى أماكن أخرى قبل هذا الوقت. و تشتهر الذرة بسوقها العالية التى يبلغ ارتفاع الواحدة منها ما بين ستة و ثمانية أذرع، و أوراقها أشبه بأوراق القمح الهندى أو قصب السكر. و قد تناولته لأول مرة و وجدت السكان

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۰

المحليين يعلكونه مثلما يعلكون قصب السكر لأنه يحوى عصارة حلوة لطيفة و لا سيما فى القسم الأعلى من القصبة بينما تستقر العصارة فى قصبة السكر فى القسم الأسفل منها، و هم يسحبون هذه العصارة منها.

و شاهدت رؤوس هذه الذرة البيضاء اللون و وجدتها كبيرة على خلاف الذرة الإيطالية. و هذه الرؤوس مكونة من حبوب بيضاء تلتصق كل حبة منها بين ورقتين و تكون فى بعض الأحيان مضغوطة من الجوانب.

و يصنع من هذه الذرة خبز و كعك لذيذ الطعم، و البعض منه رقيق أشبه بالورق لا يزيد عرض القرص الواحد عن أربع بوصات و طوله ست بوصات و سمكه بوصتان و هو يبدو رمادى اللون.

و السكان المحليون لا يزالون يسمون هذه الذرة باسمها العربى القديم «الذرة» التى أشار إليها (الرازى) لأنه قرأ عنها كثيرا فى مؤلفات المؤرخين.

*** سارت رحلتنا سيرا حسنا جدّا و أخذ التجار معنا يمضون أوقاتهم فى اللهو. فالبعض منهم كان يلعب لعبة تسمى (الثمانية عشر) و آخرون كانوا يلعبون الشطرنج التى يلعبها الأعيان، و غيرهم كانوا يمضون الوقت فى القراءة و الإنشاد. و كان من بينهم تاجر من البصرة اعتاد أن يرتل «القرآن» عدة مرات و بصوت عال و لطيف جدّا. و لقد كنت أشعر بمسرة كبيرة و أنا أنصت إليه، و مع ذلك فلم ينغمر اللاعبون فى لهوهم إلى الحد الذى يجعلهم ينسون أداء الصلاة و لا سيما حين يدعوهم المؤذن، بصوته العالى، إلى أدائها سواء فى السفينة أو خارجها فى الصحراء حين يحين وقت الصلاة.

و لقد وجدت بين بعض المسلمين غيرة على الدين، و التزاما به أكثر مما هو موجود لدى البعض الآخر منهم. و إن كان المسلمون عامة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۱

يمارسون ذات الشعائر، عند إقامة الصلوات. فهم جميعا يؤدون الصلاة خمس مرات كل يوم، ثلاث منها فى النهار، تبدأ الأولى عند الظهيرة، و الثانية حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر و الثالثة حين تغرب الشمس.

أما صلوات الليل فاثنتان، الأولى منهما قبل أن تشرق الشمس بساعة و نصف الساعة، و الثانية بعد الغروب حين يصفو الجو و تطلع النجوم.

و لم يكن الظلام، و لا الخطر الـذى قـد يلف الموقع، أو عـدم ملاءمـة الوقت، ليمنع المسـلمين من النهوض فى وقت يكون فيه سواهم غـارقين فى النوم، و الهبوط من السـفينة إلى الأرض الخلاء لإقامـة الصـلاة فيها برهبـة و خشوع. فقـد كنت أراهم غالبا و كأن الـدموع تنحدر من مآقيهم.

و لاـ بـد لى من الاـعتراف هنا بأن المسـلمين يتمسـكون بشـعائر دينهم، و يحافظون عليها أكثر من أيـة أمـة أخرى، و أن هـذه الشـعائر تردعهم عن تناول الخمور، و تأمرهم بالتقشف، و العكوف على أداء الصلوات.

*** فى الثامن عشـر من الشهر وصلنا إلى «حديثة» و هى مدينة جميلة و كبيرة قديمة البناء تخضع لشيخ البادية، و يقسمها نهر الفرات، مثل عنه، إلى قسمين، يقع القسم الأكبر منها على الجهة اليمنى من النهر.

فى هـذه المدينـة دفع ربان السـفينة إلى موظف الكمارك مبلغ صايين (و الصاى يبلغ حوالى ثلاثة بنسات فى بلادنا) و من ثم اسـتأنفنا الملاحة ثانية كيما نستطيع أن نبلغ مدينة «جبّه» ليلا.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۲

كـان ربان السـفينة نشـطا و حمسا أكثر من ذى قبل. و كان يحث ملاحيه على مواصـلة الجـدف، و لا سـيما حين يكون النهر عريضا و عميقا أشـبه بالبحر، و هكذا وصـلنا، بعد حلول الظلام بقليل إلى «جبة» و هى مدينة حسنة البناء تعود إلى الأتراك و يقسمها النهر أيضا إلى قسمين يقع أحدهما وسط النهر على أرض مرتفعة يقوم فى قمتها حصن و بذلك تكون المدينة محصنة تحصينا قويّا.

أمـا القسم الثانى و هو أكبر من الأول فإنه يقع على الشاطىء الأيسـر فى أرض العراق و يضم بساتين كثيرة يملكها أصـحاب الـدور، و هى غنيـة بأشـجار النخيل، و لـذلك أنفق التجار نصف النهار فى هـذا القسم لشـراء التمر و التين و اللوز لينقلوه معهم إلى الخان، و قد فعلوا الشـىء ذاته فى «هيت» و هى مدينة كبيرة أخرى تقع على الضـفة اليمنى من الفرات فوق أرض مرتفعة، و قد بلغناها فى العشـرين من تشرين الأول و فى وقت حسن من الليل.

و يقـايض التجـار هـذه الأثمـار التى يشترونهـا بقوالب الصابون و السـكاكين و الورق و غيره، و تلك هى السـلع التى يطلبها أهل هـذه المدن منهم. و لقد أعطيناهم صحائف من الورق الأبيض تقبلوها بفرح كبير و شكرونا على ذلك كثيرا.

و بعـد أن أكتفى تجارنـا من شـراء هـذه المـواد، و دفـع ربـان سـفينتنا الرسم المطلوب، أقلعنـا ظهر يوم الحـادى و العشـرين من الشـهر مستأنفين رحلتنا.

و فى المساء شاهدنا على الجانب الأيمن من النهر طاحونة كما

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۳

شاهـدنا أخرى مثلها صـباح اليوم التالى، و جملـة من الجدران و الأبواب و القناطر القديمة، عرفت منها أنه كانت تقوم فى هذا المكان قبلا إحدى المدن. و قد علمت أن تينك الطاحونتين كانتا تسـتعملان لطحن بارود البنادق للسـلطان التركى. و كان هذا البارود يرسـل إليه فى قوافـل مع سـلع أخرى عبر الأراضـى التابعـة لأـمير العرب، حيث ينبغى للسـلطان، مثـل بقيـة التجـار، أن يـدفع الرسم عن ذلك البارود.

و بارود المدافع هذا لا يصـنع من ملح البارود مثلما يجرى ذلك عندنا فى أوروبا و إنما يسـتخرج من عصير شجرة من نوع الصفصاف يسـميه الفرس (فير) بينما يـدعوه العرب باسم «الغرب» كما أشـرت إلى ذلك قبلا. فهم يقطعون الأغصان الصـغيرة من هذه الأشـجار و أوراقها فيحرقونها و يحولونها إلى مسحوق يلقون به فى الماء إلى أن تنفصل ذرات الملح عنه و إذ ذاك يصنعون منه بارود المدافع، و مع ذلك فهذا البارود ليس قويّا كالذى نصـنعه نحن فى بلادنا. و لقد أكد ذلك المؤرخ «بلينى» فى الفصل العاشر من الجزء الحادى و الثلاثين من كتابه إذ قال «إن الناس فى الأيام السالفة كانوا يستخلصون «النيتر» من أشجار البلوط».

و ذلك أمر محقق فعلا لأن استعمال البارود فى تلك الأيام لم يكن واسعا قبل أن تخترع المدافع مثلما هو عليه الآن.

كذلك شاهدت على ضفاف النهر الغالية كثيرا من نبات (الحنظل) لم أستطع أن أتحقق منه عن بعد، إلا أنه لا يزال حتى الآن معروفا لدى السكان باسمه العربى القديم و هو «الحنظل».

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۴

بعد أن مضينا فى ملاحتنا عدة أيام و فى ماء حسن التيار وصلنا أخيرا ليلة الرابع و العشرين من تشرين الأول إلى «الفلوجة» و هى قرية صغيرة تحمل هذا الاسم الذى يطلق على المنطقة كلها أيضا.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۵

الفصل الثالث عشر بابل القديمة هى عاصمة كلدة، و موقعها ، كيفية بقائها حتى اليوم

تقع مدينة الفلوجة فى الموقع الذى كانت تقوم فيه قبلا مدينة (بابل) القديمة عاصمة كلدة. و يقع بناؤها على بعد ربع فرسخ. و منها يتوجه من يريد السفر بطريق البر إلى مدينة بغداد الشهيرة التى تقع شرقا على نهر دجلة و على مسيرة يوم و نصف اليوم.

و فى هذا الميناء يقع المكان الذى كانت تقوم فيه مدينة بابل. و لكن فى الوقت الحاضر لا يرى و لا منزل واحد هنا نستطيع أن ننقل إليه سلعنا و نمكث فيه إلى أن يحين وقت الرحيل. و لذلك اضطررنا إلى أن نفرغ بضاعتنا فى مكان مكشوف و كأننا وسط الصحراء، و أن ندفع الرسوم تحت السماء التى تعود إلى الأتراك!

و هذه البلاد جافة قاحلة لا يمكن زراعتها و هى مقفرة بدرجة رحت معها أشك كيف كانت هنا فى يوم من الأيام مدينة قوية بل أشهر و أعظم مدن العالم هى بابل التى تقع فى أرض شنعار المبهجة المثمرة، لو لم أكن أعرفها بموقعها، و بالآثار القديمة القيمة التى ما زالت قائمة و قد أصابها الدمار.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۶

فقبل كل شىء كان هناك الجسر القديم الذى كان يمتد فوق نهر الفرات و الذى سماه النبى «باروخ» باسم (سود) و ذلك فى إصحاحه الأول، حيث لا تزال بعض قطع الجسر و قناطره باقية حتى اليوم على مسافة قريبة شمالى المكان الذى هبطنا إليه و قد شيدت هذه القناطر من الآجر و هو من نوع قوى و مدهش. ذلك لأننا منذ أن قدمنا من مدينة «البير» إلى هناك، لم نر على النهر حتى و لا جسرا واحدا. و لهذا أقول إنه من المدهش أن يبنى مثل هذا الجسر فى مثل هذا الموقع الذى يبلغ عرض النهر فيه مسافة نصف فرسخ فضلا عن عمق النهر فى هذا المكان.

و على مقربة من الجسر أكوام من القار البابلى لطلاء السفن به، و هو يكون صلبا فى بعض الأماكن بحيث تستطيع أن تمشى فوقه، لكنه فى أماكن أخرى جلب إليها حديثا يكون رقيقا و تظهر عليه آثار كل خطوة تخطوها عليه .

و على مقربة من قرية الفلوجة و أمامها يقوم تل يمثل القلعة التى كانت قائمة فى السهل حيث لا تزال تشاهد أنقاض تلك القلعة التى تهدمت و خلت من ساكنيها.

و خلف القرية يقوم برج بابل الذى بدأ أولاد نوح (و كان أول من سكن هذه الأصقاع بعد «الطوفان») ببنائه صعدا إلى السماء.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۷

فنحن لا نزال نشاهد هذا البرج الذى يبلغ قطره نصف فرسخ، لكنه قد تهدم وغدا واطئا و سكنته الهوام، و اتخذت لها فيه جحورا. إذ إن المرء لا يستطيع أن يقترب إلى أقل من نصف ميل منه إلا خلال شهرين من أشهر الشتاء لا تخرج الهوام فيهما من جحورها .

و من بين هذه الهوام نوع يسميه الفرس (ايغلو) و هو سام جدّا كما أخبرونى بذلك و هو أكبر من «العظاية» أو «الضب» المعروف عندنا و له ثلاثة رؤوس و تكسو جلده بقع ذات ألوان عدة. و هذه لا تسكن البرج وحده بل القلعة أيضا و هى ليست مرتفعة كثيرا. و كانت توجد تحت القلعة بئر للماء و لذلك فلا تستطيع هذه الهوام أن تعيش فوق التل و لا تجرؤ على شرب الماء الذى ترده الماشية .

و على مسافة فرسخين نحو المشرق من الفلوجة تقع مدينة «تراكست» القوية التى كانت تدعى قبلا باسم «أفاميا» التى أشار

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۸

إليها «بلينى» فى الفصلين السادس و العشرين و السابع و العشرين من الجزء السادس من كتابه. و قد وردت فى الإصحاح الثانى من «سفر الخليقة» إشارة إلى أن الفرات و دجلة هما من أنهار الفردوس العظيمة، و إنما يلتقيان على مسافة غير بعيدة فيؤلفان نهرا واحدا .

و مدينة «تراكست» محاطة بخنادق و يمكن الدفاع عنها جيدا و ذلك لوجود قلعتين قويتين تقع كل واحدة منهما على طرف من أطراف المدينة و هى تعتبر مدخل مملكة فارس. و هناك كثير من المدن الأخرى تتبع مملكة فارس و لا تبعد عنها كثيرا من أمثال «أرثوسيا» و «الأجمة» اللتين تقعان فى الطريق إلى ماذى و كذلك مدينة «جوخى» التى تقع

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۸۹

على الجانب الآخر من دجلة بمسافة فرسخ و نصف، و مدينة «اكست» على بعد فرسخين فى الطريق الذاهب إلى فارس.

*** أمضينا اليوم التالى، و هو الخامس و العشرون من شهر تشرين الأول، فى شراء بعض الإبل و الحمير لننقل عليها بضاعتنا. و بعد أن أنهينا استعدادنا، رحلنا فى صباح اليوم التالى مع القافلة برمتها متوجهين إلى بغداد.

كان الطريق فى البداية وعر جدّا، ملىء بالأحجار و الأنقاض المتساقطة فيه، و لكن بعد أن اجتزنا مدينة «دانيال» و قلعتها، أخذنا نجتاز صحراء قاحلة لم نر فيها سوى الأشواك، و لم نشاهد هناك بشرا و لا حيوانات و لا كهوفا أو خياما، و لذلك كان يصعب كثيرا على الرجل الذى لا يعرف معالم الطريق أن يستدل به و يسير فيه. و هذا ما لاحظته كثيرا بالنسبة إلى دليلنا الذى كانت الحيرة تنتابه عدة مرات (بسبب عدم وجود إشارات تدل على الطريق أو عدم العثور على بشر أو حيوان فيه) فى تعيين السبيل الذى ينبغى له أن يسلكه. و لذلك كان فى بعض الأحيان يسلك أحد الطرق ثم لا يلبث أن يتركه ليأخذ آخر غيره و القافلة تسير فى إثره.

و كنا، و نحن نسير فى هذا السهل، نشاهد الكثير من الأبنية القديمة الكبيرة العالية المنتظمة و الحصون الشاخصة وسط الرمال، و هى جميلة الشكل متقاربة إحداها من الأخرى على غرار ما نعثر عليه فى الأودية، رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد ؛ ص۱۸۹

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۰

و قد انتشرت هنا و هناك، و حل الخراب فى كثير منها فتركها أنقاضا، و كانت ترى على البعض منها رسوم جميلة تستحق المشاهدة و التمعن.

كانت هذه الأبنية تقف مهدمة مخربة لم يبق منها سوى أبراج «دانيال» التى شيدت كلها من الحجر الأسود و هى لا تزال مأهولة حتى اليوم.

و هذه الأبراج فى بنائها و ارتفاعها تشبه أبراج كنيسة «الصليب المقدس» أو كنيسة «القديس موريس» فى اوغسبرغ فأنت لو صعدت فوق هذه الأبراج لشاهدت برج بابل القديم، و تل القلعة مع بقية الأبنية بوضوح و اطلعت على وضع المدينة القديمة اطلاعا تامّا.

بعد أن أمضينا اثنتى عشرة ساعة فى هذه الأرض الموحشة الصلبة و التى كلت إبلنا و حميرنا فى قطعها من وطأة الأثقال التى كانت تحملها، توقفنا عن السير عند أحد المرتفعات للاستراحة فبقينا على هذه الشاكلة إلى أن انتصف الليل و عندئذ استأنفنا مسيرتنا كيما نصل بغداد قبل أن تشرق الشمس.

و فى الوقت الذى أنخنا فيه ركائبنا هناك، رحت أمعن النظر فى المرتفع الذى نزلنا عنده فلا حظت وجود مرتفعين أحدهما خلف الآخر يفصل بينهما خندق، و هما يمتدان سوية أشبه بجدارين متوازيين لمسافة طويلة إلى أن ينتهيا عند مواضع تشبه الأبواب مما حملنى على الاعتقاد بأنهما كانا جدران مدينة قديمة قال المؤرخ «بلينى» عنها إن ارتفاع جدرانها يبلغ مائتى قدم، و إن عرض الواحد من تلك الجدران خمسون قدما، و إن الفتحات الموجودة فيها كانت تؤلف قبلا أبواب تلك المدينة التى بلغ مجموعها مائة باب من

الحديد، و ذلك قول صائب لأننى شاهدت بنفسى الجدران القديمة التى غطتها الأتربة و قد بدت ظاهرة للعيان بكل وضوح، و هكذا وجدنا أنفسنا عند جدران مدينة ملكية شهيرة فيما مضى و قد تهدمت أبنيتها الفخمة المجيدة و غطتها الرمال، و لذلك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۱

فإن من يجوسها يأخذه العجب و الدهشة إذ يروح يتذكر المجد الذى أصابته و الملوك العظام الذين حلوا فيها من أمثال نمرود و بيلوس و من بعدهما الملك مردوخ و خلفه «بيلانصر» و هو من ذريته الذى جاء فى النهاية، و كيف تحولت قصورها و بساتينها إلى خرائب و قفار إلى درجة أنه حتى الرعاة كانوا يخشون أن ينصبوا خيامهم هناك و السكن فيها.

إنه لمثل مرعب و مخيف لكل الطغاة و المتجبرين هذا المثل الذى تقدمه بابل لهم كيما يتحققوا بأنهم إذا لم ينصلحوا و يتخلوا عن طغيانهم و يتوقفوا عن قتل الأبرياء بالحروب و السجون و بالأوبئة القاسية اللا إنسانية، فإن اللّه الجبار سوف يقضى عليهم و يعاقبهم بغضب منه، لأن اللّه غيور و لا يحتمل غرور الطغاة طويلا، و لا يترك المسيئين من دون عقاب، فلا بد أن يحقق فيهم نبوءاته مثلما فعل ذلك بأهل بابل المتجبرين حيث أنذرهم كل من أشعيا (فى إصحاحه الثالث عشر) و أرميا (فى إصحاحه الحادى و الخمسين) .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۲

و إذ مررت بهذه الآثار وجدت العاقول قد نبت فى الرمال المحيطة بها كما وجدت أنواعا كثيرة و غريبة من نبات الحنظل.

و حين حل المساء و أرخى الليل سدوله كان المكاريون الذين يسوقون دوابنا قد أتموا استعداداتهم لمواصلة الرحلة، فأعد كل شىء بانتظام و استعد كل فرد من أفراد القافلة للسفر فى غضون ربع ساعة.

و على الطريق شاهدت آثارا أخرى و لكن حلول الظلام لم يمكننى من رؤيتها جيدا. و هكذا واصلنا مسيرتنا فى الظلام كيما نستطيع أن نبلغ بغداد قبل أن يطلع النهار بساعتين.

فى صباح اليوم التالى، و هو السابع و العشرون من تشرين الأول، نزلنا أنا و واحد من جماعتنا فى منزل أحد التجار المشهورين الذين ينتسبون إلى حلب و كان قد عاد مؤخرا من الهند.

و لقد استقبلنا ذلك التاجر استقبالا حسنا و رقيقا فمكثنا فى بيته أربعة أيام حين حصلنا على حانوت فى الحوش الواسع العائد للباشا التركى و الذى يقع فى المدينة الأخرى القائمة على الضفة الثانية من نهر دجلة حيث انتقلنا إليه .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۳

الفصل الرابع عشر مدينة بغداد تدعى بالداهك موقعها، نباتاتها الغريبة، مواصلاتها القديمة

تقع مدينة بغداد العائدة إلى الامبراطور التركى عند الطرق النائى جدّا من مملكته على ضفاف نهر دجلة سريع الجريان فى سهل واسع، و هى أشبه بمدينة «بازل» على نهر «الراين»، لكنها ليست جيدة البناء، لأن شوارعها ضيقة، و كثيرا من منازلها زرى البناء، يقتصر البعض منها على الطابق الأول حسب، بينما تحولت منازل أخرى غيرها إلى خراب.

و مثل هذا ينطبق أيضا على المساجد التى كانت لقدمها تبدو سوداء ، و قد تهدمت بحيث يصعب عليك أن ترى واحدا منها سالما، فى حين لا يزال هناك عدد من الكتابات العربية القديمة أو الكلدانية محفورة على الجدران . و كذلك توجد فى المدينة آثار كثيرة واضحة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۴

لكننى لم أستطع ليس قراءتها فحسب، بل لم أجد من يستطيع أن يترجمها لى.

هنالك بنايات تستحق المشاهدة من أمثال مقر الباشا التركى، و سوق البضائع الذى يقع خلف النهر فى المدينة الأخرى ، و الحمامات التى لا يمكن مقارنتها بحمامات حلب و طرابلس، لأن أراضيها و جدرانها مطلية بالقار الأمر الذى جعلها تبدو سوداء معتمة حتى فى

وضح النهار، لأنها لا تصيب سوى الشيء القليل من النور.

هنالك مدينتان إحداهما تقع فى هذا الجانب و هى مفتوحة تماما بحيث يستطيع المرء أن يدخل إليها و يخرج منها ليلا من دون أية مضايقة، غير أن هذه المدينة تعتبر فى الواقع قرية كبيرة أكثر منها مدينة.

أما المدينة الأخرى فتقع على الطريق الذى يمر إلى فارس عند تخوم مملكة آشور و هى محصنة تحصينا جيدا بالأسوار و الخنادق و لا سيما على امتداد نهر دجلة حيث تقوم بعض الأبراج، و منها برجان يقومان عند الأبواب التى تؤدى إلى جهة النهر، لحمايتها. و بين هذين البرجين تقع أسوار المدينة القديمة العالية. و فى أعالى هذه الأبراج حفرت كتابات مسطحة بحروف ذهبية يبلغ طول الحرف الواحد منها قدما. و لقد حاولت جاهدا معرفة معانى هذه الكتابات لكنى لم أظفر بذلك لعجزى عن فهمها، و لانعدام المترجمين مما اضطرنى إلى التخلى عنها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۵

و على مقربة من هذه الأبراج يقوم جسر مصنوع من الزوارق يمتد فوق دجلة ليصل إلى المدينة الأخرى.

و النهر فى ذلك الموقع عريض يشبه نهر الراين عند مدينة ستراسبورغ و بسبب سرعة جريانه يبدو لون النهر داكنا يبعث منظره الكآبة فى النفس و قد يجعل المرء يحس بالدوار.

و على مسافة غير بعيدة فى أسفل المدينة، يلتقى هذا النهر بنهر الفرات و لذلك يجريان مختلطين فى الخليج ابتداء من مدينة البصرة التى لم تكن تبعد أكثر من مسيرة ستة أيام من هناك إلى جهة الشرق.

و هاتان المدينتان اللتان تقعان على نهر دجلة كانتا قد شيدتا قبل سنين عديدة من أنقاض مدينة بابل المتهدمة ذلك لأن واحدة منها، و هى التى تقوم على الجانب الآخر من النهر، قد عرف عنها أنها مدينة سلوقية البابلية .

كما يمتد على هذا الجانب من النهر واد فسيح يعتقد بأن مدينة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۶

طيسفون تقع فيه. و قد أكد «سترابو» ذلك فى الجزء الخامس عشر من كتابه عند ما أشار إليها بقوله «إن بابل كانت عاصمة آشور قبلا و بعد خرابها قامت مدينة سلوقية على نهر دجلة حيث تقوم على مقربة منها قرية كبيرة كان ملك الفرثيين قد اتخذها مقرّا شتويّا له» .

كذلك أشار بلينى فى الفصلين السادس عشر و السابع عشر من الجزء السادس من مؤلفه إلى أن مدينتى سلوقية البابلية و طيسفون قد شيدتا خارج خرائب مدينة قديمة، و أن نهر دجلة يمر بينهما.

و تقوم فى سلوقية و فى مكان واسع منها، قلعة ليست محصنة لا بالأسوار و لا بالخنادق، كما أنها ليست كاملة البناء من الداخل، ترى أمامها بعض قطع من المدافع الكبيرة ملقاة فى الطريق و قد علاها الصدأ .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۷

و فى هذه القلعة يسكن الباشا التركى و الذى ما إن علم بمقدم اثنين من الغرباء إلى منطقته حتى بعث يطلب حضورنا إليه، فأحضرنا رجاله أمامه، و كان معنا أحد الأرمن ممن عرفناه قبلا فى مدينة حلب، كى يساعدنا فى هذه المقابلة و يكون بمثابة ترجمان لنا و يعطى الباشا معلومات طيبة و وافية عنا.

حين دخلنا غرفة الباشا، و هى اعتيادية جدّا و إن كانت قد فرشت بالسجاد الفاخر، و زينت ببعض الزخارف، أدينا له الإجلال و الاحترام، و وجدناه يجلس ملتفا بعباءته الطويلة الصفراء الثمينة. و عن طريق أحد أتباعه، الذى كان يتحدث بالفرنسية و إن لم يكن يفهمها جيدا، سألنا عن الأماكن التى أقبلنا منها، و البضاعة التى جلبناها معنا، و الجهة التى نقصدها. و بعد أن أجبناه عن كل سؤال طرحه علينا لم يقنع بأجوبتنا، و أمرنا بأن ننسحب إلى وراء، و أن نمكث إلى أن نسمع قراره بشأننا.

لقد فهمنا ما كان يقصده من وراء ذلك تماما. فهو يريد أن يحصل منّا على شيء من الهدايا، لكننا تظاهرنا بأننا لم نفهم قصده، و إنما

أريناه جوازات سفرنا موقعة من لدن باشا مدينة حلب و قاضيها. و لقد تناولها منّا و راح يقرؤها و يمعن النظر جليّا فى ختمى الباشا و القاضى اللذين اعتادا أن يغمسا الختم بالحبر فأصبح الجواز ملطخا بالسواد نتيجة ذلك.

و حين وجد الختمين صحيحين و لم يبق لديه ما يقوله، سمح لنا بالانصراف، و إذ ذاك قدمنا له الاحترام ثانية فخطونا خطوات إلى وراء و غادرنا مسكنه، ذلك لأنك لو أدرت ظهرك لأى شخص تقابله، حتى و إن كان ضعيفا، لعد ذلك إهانة كبيرة له، و قلة أدب و غلطة منك.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۸

و يحتفظ هذا الباشا بحامية كبيرة فى بغداد لأنها تقع عند تخوم «سوسيانة» و ماذى و غيرها من الولايات التى تعود إلى ملك فارس، فى حين لا يمتد نفوذ «السيد الأعظم» إلى الشرق من هذه الولايات، إذ إن أكبر ممالكه تتألف من الصحراء العربية المقفرة التى لا يسيطر الأتراك إلا على جزء منها، بينما يخضع الجزء الأكبر لنفوذ أحد الأمراء العرب.

بعد أن أذن لنا الباشا بالانصراف عدنا إلى النزول ثانية، فابتعنا- حين مررنا بأحد الأسواق- بعض الأطعمة لتناولها و لكى نعد وجبة العشاء، ذلك لأنه لا توجد فى هذه البلاد فنادق يستطيع المرء أن يأوى إليها، و أن يجد فيها الطعام مهيئا للزبائن الذين يفدون مصادفة، بل إن على المرء أن يذهب إلى حانوت الطباخ الذى يتوفر عدد من أمثاله فى الأسواق.

و ما عدا ذلك فكل امرىء يطبخ لنفسه ما يريده من طعام دون أن تكون هنالك أبواب أمام غرفته، و إنما توجد مدخنة لهذا الغرض. و لذلك حين يأزف وقت إعداد الطعام فى المساء و الصباح، تشاهد فى أروقة المكان عدة نيران تم إيقادها فيه.

و حين شرعنا نتناول الطعام اضطررنا بسبب عدم وجود موائد أو كراسى أو مقاعد، إلى الجلوس على الأرض التى ننام عليها ليلا، و لذلك لم تعد عباءاتنا نافعة لنا، لأننا كنا نستعملها بدلا من الفراش و لا سيما فى أيام الشتاء لكى نستدفىء بها. و مع ذلك فلم يكن الشتاء شديد البرد فى هذه البلاد و قد نستنتج من هذا أن الأزهار المعروفة فى بلادنا من أمثال

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۱۹۹

«النرجس» و «البصل البرى» و «البنفسج» و غيرها تكون مزدهرة تماما فى شهر كانون الأول، كما أن إقبال الزراع على حراثة الأرض فى مثل هذا الوقت جعلنى أحكم بأن شتاءهم يشبه ربيعنا.

لمست أثناء وجودنا فى بغداد و تجوالنا فيها أن الفاقة لا زالت جد ظاهرة فيها، و أنها قد تتعاظم و تزداد إذا لم تسارع المدن القائمة على دجلة و الفرات- و لا سيما مدينة الموصل التى كانت تعرف قبلا باسم نينوى- إلى إرسال كميات كبيرة من المؤن مثلما تفعل ذلك ديار بكر و غيرها التى ترد منها المؤن مصادفة، ذلك لأن معظم أراضيها تقع ما بين النهرين، و لهذا السبب لا تحصل على شىء من تلك التجهيزات، و لأن ما ينمو فيها لا يكفى لسد حاجتها، و من هنا تتجلى أهمية هذين النهرين بالنسبة إلى بغداد، لأنهما لا يزودناها بالمؤن كالقمح و الشعير و الشراب و الفاكهة و غيرها حسب، بل يجلبان لها الكثير من السلع التى تحملها إليها سفن كثيرة ترد كل يوم. و لذلك نرى فى هذه المدينة مستودعات كبيرة للسلع، نتيجة لموقعها الملائم، يتم جلبها بطريق البر و البحر من أنحاء الدنيا العديدة، و لا سيما الأناضول و سوريا و أرمينيا و اسطنبول و حلب و دمشق و غيرها كيما يتم نقل هذه السلع ثانية إلى الهند و فارس و غيرهما.

و قد حدث فى اليوم الثانى من تشرين الثانى سنة ۱۵۷۴ م حين كنت فى بغداد، أن وصلت إليها خمس و عشرون سفينة موسقة بالأفاوية و العقاقير من الهند، بطريق «هرمز» و البصرة التى تعود إلى سلطان الأتراك و تقع عند الحدود، و هى أبعد نقطة يمتد إليها نفوذ السلطان فى الجنوب الشرقى و على بعد مسيرة ستة أيام من هنا. و من البصرة تنقل السلع فى سفن صغيرة تجلبها إلى بغداد حيث تستغرق السفرة حوالى أربعين يوما.

و هذا الطريق البحرى و البرى يعود إلى ملكى العربية و فارس و لكل منهما مدنه و حصونه على حدود بلاده و يستطيعان سد هذا

الطريق. و رغم ذلك فإنهما يتراسلان بانتظام و يستخدمان الحمام الزاجل و لا سيما فى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۰

البصرة حين تتطلب الضرورة إرسال هذا الحمام برسائل إلى بغداد.

و حين تصل السفن الموسقة بالسلع إلى بغداد يهيئ التجار، و على الأخص تجار الأفاوية الذين ينقلونها عبر الصحراء إلى تركيا، أماكن خاصة لهم فى البساتين على مقربة من مدينة طيسفون حيث يقيم كل واحد منهم فى خيمته ليضع الأفاوية فى أكياس حفاظا عليها إلى أن يتحركوا كلهم سوية فى شكل قافلة، و لذلك يخيل لمن يراهم من بعيد أنهم جنود، و ليسوا تجارا، و أن ما يشاهده سلاحا و ليس بضاعة تعود للتجار.

و لقد توهمتهم أنا على هذه الشاكلة قبل أن أقترب منهم و أتبينهم جيدا.

و بعض أولئك التجار الذين جاؤوا مع تلك السفن قد أقبلوا على النزل الذى كنا ننزل فيه مباشرة، و كان من بينهم تاجر مجوهرات جلب معه عدة أحجار كريمة مثل الماس و العقيق الأبيض و الذى يصنعون منه مقابض ثمينة للخناجر، و كذلك الياقوت الأحمر، و العقيق الأصفر و غيرها. و قد حصل على النوعين الأولين من بمباى أما البقية فقد جلبها من جزيرة سيلان حيث أرانا عدة أنواع جميلة منها.

و يحمل التجار هذه المجوهرات معهم فى قوافل كبيرة و يحتفظون بها بشكل خاص لا يمكن العثور عليها من قبل دوائر الكمرك كيلا تصادر

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۱

منهم، و ذلك ما يسعى إليه الباشا بكل ما لديه من قوة و سلطان. فالأتراك لا يحبون الأحجار الكريمة لأنها تكلفهم أموالا، فهم جشعون بصفة غير اعتيادية حيث لا تجد إلا قلة منهم يقتنونها، لكنهم إن استطاعوا الحصول عليها بلا ثمن بطريقة المصادرة فإنهم يحبونها حبّا جمّا و يحافظون عليها بحرص شديد.

و يحتفظ هؤلاء التجار فى بيوتهم بمجوهرات أخرى يبعثون بها ثانية إلى الهند كالمرجان و الزمرد اللذين يكثر الإقبال على شرائهما فى مصر، و كذلك الزعفران و التوت و الكرز، و عدة أنواع من الفاكهة كالزبيب و التمور، و التين و اللوز و غيرها.

و لكن فوق هذا كله يصدرون الخيول الجميلة فيرسلون عددا وفيرا منها إلى الهند عن طريق فارس، و لكن معظمها يرسل بطريق هرمز حيث يتلقى ملك البرتغال كل سنة مبلغا طيبا من المال بصفة رسوم تبلغ أربعين دوقة لكل رأس من الخيل، ذلك لأن الذين يستوردون الخيول، كما أنبئت، يدفعون نصف الرسوم عن سلعهم الأخرى إلى دائرة الكمارك و من ثم يبيعونها بأرباح طيبة.

و بعض هذه الخيول تصدر، بسبب جمالها و أصالتها، إلى سوريا و الأناضول، و إلى بلادنا فى أوروبا حيث تباع أو تهدى إلى الأمراء و غيرهم من الشخصيات البارزة.

و تطعم الخيول فى هذه البلدان، الشعير و الكلأ، فيوضع هذا العلف

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۲

فى أكياس تعلق فى عنق الحيوان، و مثل هذا يجرى أيضا بالنسبة إلى الحمير، على نقيض ما نفعله نحن فى بلادنا الأوروبية.

و نظرا لقلة الشعير و الحشائش فإنهم يفرشون لهذه الخيول فى بعض الأحيان، قطعة من الأرض بالقش، ثم يجمعونه فى أكوام لتنظيفه و استعماله مرة أخرى.

حين يصل بعض التجار المسيحيين من بلادنا إلى هرمز- و هذا لا يقع إلا نادرا- فلا بد لهم من الحصول على مساعدة من الأتراك و العرب، و لا بد من ظهورهم أمام موظفى ملك البرتغال الذين يعينهم ليقدموا لهم شكاواهم عما حدث لهم، و الضرر الذى أصابهم. و إذا ما حدث أن أخفى هؤلاء من ذلك شيئا حل العقاب بهم أنفسهم.

و إذا ما ظهر أن واحدا منهم قد غش نقوده فإن رفاقه من التجار من ذات الملة يلقى بهم فى السجن و لو أنهم كانوا غير مذنبين و لا يعرفون عن عملية الغش شيئا. و إذا قتل أحد المسيحيين بينهم يقتل ثلاثة أو أربعة منهم مقابل ذلك طبقا للأسلوب المتبع و يفقدون حياتهم مقابل كل مسيحى يقتل. و على هذا فحين يجتمع تجار من أمم مختلفة فى إحدى البواخر للسفر إلى الهند عن طريق «هرمز»- و التى يجب أن يهبطوا إليها و إلا صودرت بضاعتهم- فإنهم يصعدون إلى الباخرة و كأنهم غرباء تماما، و يحذر الواحد منهم الآخر، و لا يتحدثون إلا قليلا، و قد لا يتحدثون بشىء، و لا يكشف أحدهم هويته للآخر، و هكذا يتحمل كل واحد منهم العزلة إلى أن يقطعوا منتصف الطريق ثم يشرعون بالتعارف فيما بينهم.

و لقد علمت أيضا أن حاكم البرتغال فى الهند كان يستخدم- لغرض

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۳

إظهار القوة و القدرة على الحرب- عددا من الأمراء الهنود الأقوياء الذين يؤلفون قوة تعدادها خمسة آلاف رجل.

كما أنه أرسل بعض «اليسوعيين» إلى تلك البلاد لينشروا ديانتهم بين سكانها و لينشئوا فيها محاكم التفتيش الأسبانية .

يحب التجار التعامل مع الهنود لصدقهم فى التجارة و اهتمامهم بها. و لقد عرفت فى بغداد عددا كبيرا من أولئك الهنود و غيرهم من الأقوام الأخرى كالعرب و الأتراك و الأرمن و الأكراد و الماذيين و غيرهم، و لكل منهم لغته الخاصة، غير أن الفئة الرئيسة بينهم تتألف من الفرس .

*** حين كنت فى بغداد وصلت قافلة من الفرس تتألف من ثلاثمائة رجل مع إبلهم و خيولهم و هم يقصدون مكة لزيارة قبر «محمد» الذى يعتبرونه رجلا معظما جدّا عندهم، بالإضافة إلى رفيقيه «على» و «عمر» اللذين كانا يسكنان تلك المدينة.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۴

و لهؤلاء الفرس لغتهم الخاصة التى تختلف تماما عن التركية و العربية. فهى مفهومة من قبل الأمم الشرقية الأخرى، و لذلك يضطر هؤلاء إلى التفاهم مع الفرس بطريق الإشارة أو بوساطة المترجمين.

و للفرس صفاتهم المميزة لهم أيضا. فهم يحسنون ركوب الخيل، و يرتدون سراويل طويلة فضفاضة تساعدهم على الحركة، و يحسنون تجهيز أنفسهم بالبنادق و القسى و النبال.

و بدلا من استعمال المهماز، يستعملون- كما هو شائع فى هذه البلاد قطعة حديد مدببة يبلغ طولها بوصة و نصف البوصة يثبتونها فى الجزء الخلفى من أحذيتهم.

و يطلق على الفرس اسم «الأتراك الحمر» و هذا ناشىء- كما أعتقد- عن وضعهم علامة حمراء فى عمائمهم أشبه بأشرطة قطنية مصبوغة بلون أحمر تمييزا لهم عن الأقوام الأخرى. كذلك يمكن تمييزهم بصداريهم الصوفية الغبراء اللون، ذات الضفائر المتدلية على الظهر حتى الركبة.

و هم من الشعوب الشجاعة، و تقاطيع وجوههم لطيفة، و هم مؤدبون فى معاملاتهم مع الغير، شديد و المساومة، و لذلك تراهم- قبل أن يعقدوا أية صفقة- ينفقون الوقت الطويل قبل التوصل إلى اتفاق، و هذا ما شهدته بنفسى عدة مرات.

و من بين السلع الأخرى التى يتاجر بها الفرس، السجاد الفاخر من أنواع عديدة، و غيره من المنسوجات القطنية التى يتفننون فى صنعها تفننا كبيرا و يحذقونها حذقا واسعا.

أما بالنسبة إلى المصنوعات الأخرى كالذهب و الفضة فإنهم لا يعرفون عنها سوى الشىء القليل فهم أقل إلماما بصياغة الذهب، و هم يحبون المهرة من الصناع المسيحيين فى شتى الصناعات و يعاملونهم بكل أدب.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۵

و لا يجيز الأتراك لنسائهم دخول المساجد، و الظهور فيها علانية مثلما يفعل الفرس ذلك .

و لقد نشبت بين الأمتين التركية و الفارسية حروب كبيرة و خصومات شديدة، و مع ذلك فإن أيّا منهما لا تهاجم الأخرى فى أوقات السلم، و لا تغير على حدودها، مثلما يفعل الأتراك ذلك فى «هنغاريا» .

و بعد أن أجريت المفاوضات بين الأتراك و الفرس، و حققت إيرادا كبيرا للسلطان، أصبح فى مستطاع الأتراك أن يتاجروا داخل الأراضى الفارسية، و أن يتجولوا فيها بأمان.

كذلك علمت أنه يعيش هنا و فى فارس عدد من المسيحيين من بينهم أتباع يوحنا بريستر Prester John و الطريق الذى وصل به هؤلاء إلى فارس يتلخص فى أن ملك فارس توصل قبل اثنتى عشرة سنة، إلى اتفاق مع «يوحنا» بريستر ضد الأتراك. و لما وجد يوحنا أن من غير الملائم أن يتحالف مع ملك من غير دينه بعث برسالة إلى ملك فارس

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۶

يرفض فيها التحالف معه إلا على شرط واحد هو أن يعتنق ملك فارس و رعاياه الدين الذى يعتنقه يوحنا. و قد وافق ملك فارس فى النهاية على هذا الشرط، و إذ ذاك بعث إليه يوحنا بواحد من بطارقته و معه بعض القسس لأداء تلك المهمة.

و توجد الآن فى فارس أكثر من عشرين مدينة معظم سكانها يدينون بدين يوحنا و هم يحتفظون بكتبهم المقدسة، و أهم تلك الكتب يضم بعض رسائل القديس توماس .

و ما عدا ذلك فإن البطريق قد أوضح بأن هؤلاء لم يعودوا يؤمنون بالخرافات، و أنهم يعتقدون بأن الطهارة ليست ضرورية لأن أعداءهم من الأتراك يتمسكون بها، و لهذا السبب ذاته فهم لا يكرهون الحيوانات المحرمة، و يأكلون لحم الخنزير و يشربون الخمر، و على هذا الأساس أخذت الديانة المسيحية تنتشر فى فارس يوما بعد آخر أكثر فأكثر، و أخذ الفرس، طبقا لتقاليدهم، يتنصرون، و يعترفون بالأب و الابن و روح القدس!

و يمكن تمييز هؤلاء المسيحيين عن غيرهم فى أنهم يرسمون صليبا أزرق اللون على الساق اليسرى فوق الركبة بقليل، و هم يصنعون العشاء الربانى للكبار و للصغار معا، لكنهم قبل أن يتناولوه يغسلون أقدامهم فى قنوات من الماء تجرى داخل الكنائس و من ثم يجلسون مع رؤساء المدينة الذين يفدون عليهم و إذ ذاك يطبع كل واحد منهم على وجه الآخر قبلة الحب، و يقرأون بضع كلمات من تعاليم المسيح ثم يتناولون العشاء.

و هم لا يسمحون بالصور فى كنائسهم، لكنهم يستعملون القيثارات

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۷

و المزامير حين يعزفون الموسيقى. و هذا يحدث بصفة رئيسة فى بلاط ملك سمرقند حيث يوجد أحذق الموسيقيين هناك. و يقال إن سام بن نوح هو الذى بنى هذه المدينة و لذلك سميت باسمه .

و مما علمته عند عودتى، أن طهماسب ملك فارس كان له ثلاثة أولاد و بنت واحدة، و قد قطع رأس ولده الأكبر لأنه كان يسعى إلى الظفر بتاج أبيه، و عند وفاة طهماسب تزوجت ابنته من أحد رجال البلاط أما ولداه فباقيان على قيد الحياة، و قد انتخب الأوسط و يدعى «إسماعيل» خلفا لوالده فى الوقت الذى وصل فيه الامبراطور التركى الحالى «مراد» إلى العرش.

و كان إسماعيل هذا، و هو شاب، كله شجاعة و ذكاء فى أساليب الحرب. و حين كبرت سنه تضاعف حقده على الأتراك، و بلغ ذلك درجة أنه قرر، حتى فى حياة والده، أن ينتقم منهم، و على هذا الأساس توجه بعدد كبير من رجاله إلى مناطق الحدود للاستيلاء على بغداد.

و حين كان يعد العدة لهذا الهجوم هرب بعض من قواته و أعلموا باشا بغداد بما كان ذلك الشاب ينويه و يخططه، و إذ ذاك سارع الباشا إلى التسلح على عجل لمقاومته.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۸

و عند ما أقدم ابن الملك على تنفيذ مخططاته انقض عليه الباشا بعدد كبير من الرجال لا قبل له بهم، و هكذا لم يهزم ابن ملك فارس و حسب بل وقع أسيرا و إذ ذاك هدده الباشا بأنه سيقطع رأسه إذا لم يفكر أبوه جديا فى الأمر و يقدم على افتدائه بإعادة مدينة «أوريس» .

و هكذا لم يكن أمام الملك إلا أن يعمل ما فيه الكفاية للحفاظ على سلامة ولده، و التعهد بعدم الإقدام على أية استفزازات أو حروب أخرى ضد الأتراك .

و قبل أن أبدأ رحلتى فى آذار ۱۵۷۴ م وصلت إلى حلب أنباء تقول إن حوالى خمسة و عشرين ألفا من الأتراك كانوا قد قتلوا فى أطراف

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۰۹

فارس و الجزيرة العربية لكننى لم أعرف المكان الذى وقعت فيه هذه المعارك، لأن الأتراك يعمدون إلى إخفاء ما يعانونه من إصابات بحيث لا يسمع بها أحد بأية وسيلة. أما إذا كانوا هم المنتصرون فلا يظلون صامتين بل ينشرون أنباء انتصارهم على نطاق واسع.

*** و لنقصر الحديث على بغداد فنقول إننى وجدت فيها عددا كبيرا من المرضى و العرج، و إنك لا تدهش أن تجد مثل ذلك العدد الكبير من العرج الذين يتجولون فى الشوارع. و مع كل ذلك فلم يستطع ملك فارس أن يربح الحرب فى النهاية، أو أن يقدم على إثارة حرب جديدة و من مسافة نائية، لأن موارده ليست كبيرة بالدرجة التى تمكنه من تعبئة اللوازم و المؤن و تهيئتها لجنده و موظفيه، كما أنه لا يستطيع فى وقت الحرب أن يدفع لهم مرتباتهم مثلما يفعل ذلك أيام السلم، لأن رعاياه معفوون من كل الرسوم و الضرائب طبقا للامتيازات القديمة، و لأنهم لا يتسلحون للدفاع عن أنفسهم إلا حين يدعوهم الملك للذود عن بلادهم و أملاكهم ضد هجوم يوجهه الأعداء نحوهم.

حين كنت اسأل أكثر من شخص واحد عما إذا كان من الأوفق لنا، أنا و رفيقى، أن نسافر بطريق النهر إلى «هرمز» أم بطريق البر عبر بلاد فارس إلى الهند، لم نكن نفكر فى شىء سوى أن نبدأ سفرتنا و نمضى قدما. و حين كنت أفكر فى ذلك وصلتنى فجأة رسالة استدعيت بها للعودة إلى حلب، الأمر الذى زاد فى قلقى كثيرا و لا سيما حين أعدت فى ذاكرتى مرأى القفار و الصحارى التى قطعتها إلى أن بلغت المدن الشرقية التى تستحق المشاهدة فعلا.

و على هذا، و بعد أن قلبت الأمر مليّا، اتفقت مع رفيقى على أن يواصل هو رحلته، بينما ينبغى على أنا، و بسبب الرسالة التى تلقيتها و ليس لى عائق سواها، أن أعود ثانية، و قد زودته بكل ما يحتاج إليه من

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۰

لوازم لمواصلة سفره، حيث رحل فعلا بعد يومين مع تجار آخرين فى إحدى السفن إلى البصرة.

و لم يطل الوقت حتى تلقيت نبأ مفجعا عنه، فقد قيل إن السفينة التى استقلها من البصرة إلى «هرمز» قد تحطمت بعد أن داهمتها عاصفة شديدة على مقربة من جزيرة «البحرين» فى الخليج العربى الذى يكثر فيه اللؤلؤ الشرقى، و إنه مع عدد من التجار بينهم جماعة من أبناء التجار الأغنياء فى «حلب» قد ماتوا غرقا.

كان على أن أعود إلى حلب فى قافلة كبيرة. و لما كانت مثل هذه القافلة ستأخذ طريقها عبر الصحراء الرملية الواسعة فى مسيرة قد تستمر زهاء أربعين يوما أو نحوها، و حيث لا نستطيع خلالها أن نمر بأكثر من نقطتى كمارك نتزود منهما باللوازم و الماء و غيره من الضروريات الأخرى، لهذا السبب استقر رأيى على أن أسافر بطريق تمر بأماكن مفيدة و بمدن شهيرة كيما أرى و أتعلم و أطلع على أمور أخرى. و على هذا الأساس مكثت فى النزل الكبير مدة أطول إلى أن ألتقى ببعض رفاق السفر.

و فى الوقت الذى مكثت فيه هناك تعرفت إلى أحد التجار من سكنة مدينة حلب، كان قد رحل عدة مرات إلى الهند، و قد أنبأنى بأن

«اليسوعيين» ضرعوا فى إقامة محاكم التفتيش الصارمة فى الهند، و لا سيما فى مدينة «غوا» التى يعتبرونها ملائمة لهم، و أن الذين لا يخلعون

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۱

قبعاتهم حين يمرون بصور العذراء التى علقت فى شوارع عديدة فى المدينة يلقى بهم فى غياهب السجون.

و قد استنكر ذلك التاجر هذا الأمر بشدة، كما تحدث عن المسيحية بشكل أعجبنى، و لذلك أحببته و رغبت فى السفر معه لأنه كان يعاملنى برقة و عناية و كأننى ولده.

و عند ما علم بأننى طبيب رغب أن يقدمنى إلى الباشا و كان مريضا فى وقت كان فيه طبيبه الخاص من أصدقائه الحميمين.

و لما كنت قبل هذا قد علمت بأن آخرين أقدموا على مثل هذا العمل لم يجازوا إلا بالشر و لا سيما من قبل الذين تقدموا لعلاجه، لذلك لم أقدم على هذا الأمر لأننى كنت أخشى أن أقابل بذات الجزاء بدلا من الثواب و أفقد حريتى، و لذلك شكرت التاجر على عطفه و رقته، و لو لا هذا الأمر لأخذت بنصيحته على الرغم من عدم وجود صيدليات يمكن التزود منها بالأدوية.

غير أننى استطعت أن أشترى بعض المواد من أصحاب الحوانيت حيث جمعتها من أماكن متعددة، لأنه كان يصعب على أن أجدها لديهم متوفرة فى وقت واحد. كذلك استقطرت الزيوت من الجوز، و هو نوع جيد و متوفر بكثرة، و من الفستق الذى يحتفظ به السكان و يأكلونه مثلما نأكل نحن الأنواع الصغيرة من الجوز فى بلادنا.

و لقد تناولت هذا الفستق فوجدته جافّا غير مستساغ. و هذا النوع يسميه العرب باسم «بطم» أما الفرس فيسمونه تربيك.

و لقد شاهدت نوعين منه بحجم كبير و آخر صغير. و الكبير منه يشبه جوزة الفستق لكنه أقل استدارة و أقصر طولا. أما النوع الصغير فهو ذو قشرة صلبة تشبه حبة الحمص الكبيرة و هذه تماثل فى شكلها النبتة المعروفة باسم «قرن الغزال» أو الذرة الهندية.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۲

و ينمو الكثير من هذه فى «ايجنيا» و فى فارس، و بلاد ما بين النهرين، و أرمينيا و غيرها. و تكون ذات عناقيد أشبه بالعنب أو التوت أو أشجار التربنتين المعروفة عندنا. فهى بأوراقها الطويلة تشبه تلك الأشجار حيث يمكن تمييزها بيسر عن شجرة الفستق ذات الأوراق المدورة، و هى من النوع الذى قال عنه كل من «الرازى» و «ابن سينا» إنه ينمو فى الهند.

كذلك أشار إليها ثيوفراستوس أيضا فى الفصل الخامس من الجزء الرابع من كتابه.

و لقد أشار «سرابيو» فى الفصل الخامس و العشرين من كتابه إلى ثمر آخر دعاه باسم «العنصل» و قد شاهدته أنا و هو بقدر جوزة الفستق لين القشر، و لم أعثر عليه لدى أصحاب الحوانيت فى هذه الأنحاء لكننى وجدته مؤخرا فى دير «المارونيين» فى القدس لدى واحد من طائفتهم قال لى عنه إنه ينمو هناك.

*** ظللت انتظر كل يوم جماعة أرحل معها إلى حلب بالطريق الذى يمر بعدة مدن و ليس بطريق يصلها رأسا عبر الفيافى الرملية.

و أعود إلى ما حدثنى به ذلك الفارسى فأقول إنه قد أنبأنى بأن ملك

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۳

فارس كان يحتفظ بعدد من الخيول من النوع المعروف باسم «وحيد القرن» فى سمرقند و كذلك فى جزيرتى (أيك) و (تيلوس) اللتين تبعدان عن سمرقند مسيرة تسعة أيام إلى الشرق و على مقربة من (الشبام) و عدد من الزرافات بعث بها إليه «ملك الحبشة» من إفريقيا و هى من نوع ضخم مرتفع ذو رأس أحمر و منقار ملتح و رقبة يعلوها الريش و جسم كثيف و أجنحة سود تشبه أجنحة النسر، و ذنب طويل مثل ذنب الأسد و أقدام مثل أقدام (التنين) و هى تحب أكل اللحوم حين تكون صغيرة.

و كان الملك يأخذ هذه الزرافات معه حين يخرج إلى الصيد و النزهة و لكن حين كبرت و غدت قوية شرع يربطها بسلاسل قوية من أعناقها.

و الذى أعتقده أن هذا النوع من الزرافات قديم و قد كان فى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۴

مستطاع ذلك الفارسى أن يتحدث إلى عن الأشجار و الفواكه التى كانت تنمو هناك و لا سيما تلك التى أشار ثيوفراستوس إليها و نقلها عنه «بلينى».

و ما خلا ذلك أعطانى ذلك الرجل معلومات عن شجرة (الفلّة) التى تنمو فى أماكن عديدة من فارس و قد أشار إليها كل من ثيوفراستوس و بلينى و تتناولها النساء فى البلدان الشرقية، و عن شجرة «الموز» التى تنمو فى الجزيرة العربية و تحمل ثمرا حلوا طيب المذاق يسمونه (واك) و هو مدور الشكل أحمر اللون بحجم البطيخ الهندى. ترى هل كان هذا هو ثمر (المانغا) الذى أشار إليه كلوفيوس فى تاريخه عن النباتات الهندية، و الذى كان ينقل- بسبب جودته- إلى فارس بحرا؟ فقد تركت ذلك لألم به فيما بعد.

أما الموز الذى قيل عنه إنه معروف فى سوريا أيضا، فهو شجر يحمل ثمرا صغير الحجم مقوسا و رقيقا أصفر اللون يشبه البطيخ فى شكله و هو حلو المذاق شهى الطعم، لكنه مضر بالصحة و لهذا السبب منع الإسكندر الكبير جنوده من تناوله!

كذلك ذكر لى ذلك الفارسى وجود ثمر سام فى فارس يعرف لديهم باسم (سيفا) لا يهتمون به كثيرا، إضافة إلى الخوخ الذى يسمونه (هت) و مع أن هذا الثمر غير سام إلا أنهم لا يحبونه لأنهم يعتقدون أن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۵

«نمرود»- و هو ساحر كبير - قد سمم ذلك الثمر بسحره و لذلك فهم لم يقبلوا على تناوله منذ ذلك الوقت.

أرى أن فيما ذكرته الكفاية إلى أن تتوفر لى فرصة السفر إلى تلك البلاد و عندئذ سأقوم بالتحريات التى أستطيع بها أن أتحقق من ذلك.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۷

الفصل الخامس عشر الطريق التى عدت بها من بغداد عبر أور فى أطراف فارس و إقليم الكرد إلى كركوك و أربيل

حين اعترضت رحلتى جملة أسباب قاهرة اضطرتنى إلى العودة، تفحصت أمتعتى و إذ ذاك نصحنى صديقى المسيحى الذى أشرت إليه قبلا بأن من الملائم لى أن أسافر مع ثلاثة من اليهود جاء أحدهم معى فى نهر الفرات، فى حين و فد الآخران من هرمز، فقرر الثلاثة أن يسافروا إلى حلب. و قد قبلت بذلك لأننى لم أجد غيرهم يقصدون تلك الجهة.

بدأنا مسيرتنا فى اليوم السادس عشر من شهر كانون الأول متجهين نحو كركوك التى تبعد مسيرة ستة أيام، و تقع فى حدود «ماذى». و قد بدأنا السفر من الطرف الثانى لنهر دجلة الذى يسمونه «حدقول» .

مررنا فى طريقنا أول الأمر بحقول مزروعة، كما امتدت أمامنا بعض القرى على ضفاف نهر دجلة. و لست أذكر أنى شاهدت بلادا كهذه

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۸

البلاد يكثر فيها القمح و الفواكه و العسل و غيره. و تقارن هذه الأرض التى كانت تعود إلى ملك آشور بأراضى فلسطين غير أننا كلما توغلنا بعيدا فى مسيرتنا تعاظمت الأرض الخلاء و لذلك كنا نضطر إلى أن نقضى الليل فى الحقول.

فى صباح اليوم التالى بان لنا طريق تنتشر عليه قرى قليلة تعود إلى ملك فارس و كنا نسير فى صحارى قال لى رفاقى المسافرون معى عنها إنها تمتد إلى داخل فارس و ماذى. و لقد ضللنا الطريق حتى وصلنا عند المساء إلى مستنقع أعاقنا عن السير. و قد أجبرنا على البقاء فى هذا الموقع بسبب حلول يوم السبت و عدم موافقة اليهود الذين كانوا معى على متابعة السفر تنفيذا لشعائرهم. و هكذا أمضينا الليل و اليوم الذى تلاه تحت وابل من المطر.

و رحت فى أثناء مكوثى فى ذلك المكان أبحث عن النباتات فيه لكننى لم أعثر على شىء منها لأنها فى ذلك الوقت كانت قد بدأت تبرز من باطن الأرض. على أننى عثرت على أنواع من الخلنجان البرى ذى جذور كبيرة و مدورة يسميه السكان «السرو» و يطلق عليه اليونانيون و اللاتينيون اسم «سيبروس» .

و فى التاسع عشر من الشهر و بعد مصاعب برزت لنا بسبب الأوحال التى كانت تغطى الطريق، أخذ طريقنا يمتد وسط أراض مزروعة جعلتنى أتذكر «تراجان» الامبراطور الرومانى و جيشه الذى صمد به أمام الفرس

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۱۹

فى أعداد كبيرة فى نهر دجلة، و على مقربة من طيسفون. و لقد ضل (تراجان)- بسبب أحد الأسرى من الفرس- فى الصحراء فتمزق جيشه و أبيد فى قتال عنيف على أيدى الفرس، و قد جرح الامبراطور نفسه فى ذلك القتال جرحا بليغا و مميتا.

و يذكر المؤرخان «نقفور» و أوسابيوس أن «تراجان» أخذ حفنة من الدم و قذف بها فى الهواء و هو يقول: (و أنت أيها الجليلى- و هو الاسم الذى كان يسمى به المسيح و قد آمن به أول مرة ثم ما لبث أن أنكره و استخف به- قد هزمتنى و حطمتنى!).

*** بعد أن عانينا البؤس عدة أيام وصلنا فى العشرين من الشهر إلى قرية تقع على مرتفع فى أرض مزروعة مثمرة فى حدود فارس و معظم سكانها من الفرس كما خيل إلينا ذلك من لغتهم التى كانوا يتخاطبون بها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۰

و مع أننا كنا الآن نسير فى مناطق خطرة إلا أننا، و الحمد للّه لم نصادف أى خطر، و لذلك لم نتوقف عن المسير إلى أن بلغنا ليلة الحادى و العشرين من كانون الأول قرية (شلب) فأمضينا الليلة فيها و من هناك واصلنا سيرنا فى أودية خصبة لكننا لم نجد فيها نباتا لأنها كانت قد حرثت مؤخرا فلم يظهر الزرع فيها بعد. و لقد مررنا فى طريقنا هذا بجملة من القرى و بذلك تهيأت لنا فرص حسنة للتزود بما نحتاج إليه من هذه القرى.

فى ليلة الثالث و العشرين من الشهر وصلنا إلى إحدى القرى التى استطعنا أن نشترى منها مائة بيضة بمبلغ «بنسين» .

و فى صباح اليوم التالى نهضنا مبكرين فشاهدنا أمامنا جبال (طور) كساها الثلج و هى تمتد إلى الشرق من الشمال حتى الجنوب مسافات شاسعة. ثم واصلنا مسيرتنا حتى وصلنا، فى وقت قصير و مبكر، مدينة «طاووق» قبل أن يحل يوم السبت. و هذه المدينة ليست محصنة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۱

جدّا و تقع فى سهل و قد ذهبنا إلى النزل الذى فيها فاسترحنا فيه و أمضينا يوم السبت كله هناك.

و عند المساء و حين بدأ الظلام يرخى ستائره طلب إلى رفاقى اليهود أن أوقد لهم أحد القناديل، و إذ ذاك تذكرت أن اليهود لا يوقدون النار بأنفسهم فى مثل هذا اليوم لأن شعائرهم تمنعهم عن ذلك، و هذا وارد فى الإصحاح الثالث و العشرين من «سفر الخروج». فهم فى ذلك اليوم لا يوقدون أية نار فى بيوتهم، و يهيئون كل ما يحتاجون إليه قبل يوم سابق كيلا يضطروا إلى مزاولة أى عمل كان فى يوم السبت. و لا حاجة إلى القول بأن اليهود يمارسون فى صلاتهم ذات الشعائر التى يمارسها المسيحيون و الحثيون فى الأقطار الشرقية.

و على مسافة قصيرة من طاووق شاهدنا قلعة محصنة فيها إحدى الحاميات التركية و هذه تقع فى منطقة الأكراد التى تبدأ من هنا و تسير بامتداد نهر دجلة بين ماذى و بين النهرين حتى تصل إلى أرمينيا.

و معظم هؤلاء الأكراد من النسطوريين و هم يتحدثون بلغة خاصة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۲

لم يكن رفاقى المسافرون معى يعرفونها، كما أن الأكراد لا يستطيعون التحدث لا بالفارسية أو التركية الشائعة الاستعمال ما بين بغداد

و آشور.

و ذلك اضطرنا إلى من يعرفون اللغة الكردية أن يكونوا بمثابة مترجمين لنا أثناء مرورنا ببلاد الأكراد.

أما إذا كانت اللغة الكردية منتشرة فى بلاد ماذى أم لا فذلك أمر لم أستطع التأكد منه، إذ إن كلّا من الفرثيين و الماذيين و الفرس، كأمم محددة معروفة، كانت لهم لغاتهم الخاصة بهم، كما يحدثنا التاريخ عن ذلك و كما نطلع عليه أيضا من «أعمال الرسل» حيث تقول الآية الثامنة من الإصحاح الثانى «و كيف نصغى إلى كل رجل يتحدث بلساننا فى الوقت الذى كنا قد خلقنا فيه».

فالفرثيون و الماذيون و الفرس و سكان ما بين النهرين و غيرهم كلهم من الشعوب التى تخضع اليوم لحكم ملك فارس.

و كان الأكراد يعرفون قبلا باسم «كردوخى»Carduchi ثم عرفوا باسم «كردوانى»Cardueni و هذا الاسم قد سماهم به «زينفون» بصفة خاصة .

و كانت للأكراد سياستهم و حكومتهم، و لكن بعد تبدلات و حروب كثيرة أخضعوا فى النهاية لحكم السلطان التركى، و هم لا يزالون يخضعون له حتى هذا اليوم و هو يحتفظ بحامياته العسكرية فى كل مكان لمواجهة ملك فارس.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۳

و مما يجب التحدث به عن هؤلاء الأكراد ما يتعلق بديانتهم، و لسوف أشير إلى ذلك فيما بعد حين أقدم لك قدرا من الحديث عن المسيحيين الذين يسكنون فى معبد يقوم على جبل (الصلب) فى القدس.

بعد أن ولى اليوم الذى سبت فيه رفاقى اليهود استأنفنا مسيرتنا فوصلنا فى السادس و العشرين من كانون الأول إلى «كركوك» و هى مدينة جميلة و كبيرة تقع فى سهل كثير الخصب. و على بعد أربعة أميال منها تقع مدينة أخرى على مرتفع و لما كانت لرفاقى أشغال فى المدينتين فقد أمضينا فيها يومين قبل أن نواصل سفرتنا.

أمضينا اليوم التاسع و العشرين من الشهر فى مسيرة عبر مروج واسعة حتى وصلنا ليلا إلى خيام صنعت من نسيج الشعر أمضينا الليلة فى واحدة من هذه الخيام مع أناس فقراء من العرب بيض الوجوه يشبهون الغجر فى أشكالهم و سحناتهم. و لم أستطع أن أقدر من نوع الملابس التى كانوا يرتدونها ما إذا كانوا يخضعون للسلطان التركى أم لملك فارس، لأنهم كانوا جميعا يرتدون ذات اللباس، كما أننى لم أستطع أن أميز شيئا فى لغتهم.

بعد قليل أقبل علينا مسافرون آخرون حلوا معنا و بذلك أصبح من المتعذر علينا أن نجد مكانا ننام فيه. و كان القوم جد كرماء إذ انهمكوا فى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۴

تقديم اللحوم و الشراب لنا. ذلك لأننا ما إن أقلبنا عليهم حتى أسرع رب البيت بالخروج من خيمته بجمع الأحطاب الجافة لشى اللحم بها.

و لم تكن النسوة خاملات، فقد أسرعن بتقديم اللبن و البيض لنا، بينما شرع غيرهن فى عجن الطحين لتهيئة الخبز و ذلك بصنعه على شكل أقراص سمك الواحد منها سمك الأصبع و من ثم إلقاؤه على أحجار ساخنة و تقليبه فوقها و تغطيته بأحجار ساخنة أخرى إلى أن ينضج.

و هذه الطريقة فى صنع الخبز ليست حديثة العهد فلقد اعتادها القدامى من السكان حيث نجد ذلك مذكورا فى المدونات القديمة.

فنحن نقرأ فى الإصحاح الثامن عشر من «سفر الخليقة» كيف أن «سارة سارعت إلى صنع الخبز حين أقبل ثلاثة رجال على إبراهيم».

*** تحركنا من هذا الموضع ظهيرة يوم الثلاثين من كانون الأول فوصلنا إلى مدينة تدعى «برستا» على مقربة من النهر القائم هناك، و هى محصنة تحصينا جيدا، لكننى لم أعرف الاسم الذى يطلقه السكان على ذلك النهر، و لكن طبقا لموقعه لا بد أن يكون هو النهر الذى أطلق عليه «بطليموس» اسم «غورغوس» و الذى يصب فى دجلة.

و فى هـذه الأماكن تصـنع الأرماث و هى و إن لم تكن كثيرة جـدّا و لا توجـد أخشاب كثيرة فيها، إلا أنها تحوى عددا وافرا من جلود الماعز

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۵

المنفوخة و التى توضع فى القعر لتحمل المزيد من الأثقال فوقها، و لما كان النهر سريع الجريان فلا يخشى عليها من الخطر كثيرا.

و ينقل القوم على هـذه الأرماث أنواع السـلع و لا سـيما الثمار من أمثال التين و اللوز و الزبيب و الجوز و كـذلك الحنطة و الشـراب و الصابون و غيرها من السلع الأخرى التى يجرى نقلها إلى الهند.

واصـلنا مسـيرتنا فى آخر يوم من كـانون الأول عبر الحقول فوصـلنا ليلا إلى مدينـة أربيل، و هى مدينـة كبيرة لكن أبنيتها زريـة المنظر تحيط بها أسوار هزيلة و لذلك يمكن الاستيلاء عليها بيسر و من دون قوة كبيرة أو خسائر.

و لقد استرحنا فى هذه المدينة حتى اليوم التالى و هو يوم السبت و الذى يقع فيه «رأس السنة الجديدة» .

و قد علمت فى ذات الوقت أن آمر لواء تركى كان قد أقدم قبل أيام قلائل على تنفيذ حكم الإعدام بثمانية من المجرمين الكبار الذين اقترفوا أعمال السلب و القتل فى الطريق العام، حيث يوجد عدد كبير من هؤلاء السلابين فى تلك المنطقة، على حدود أرمينيا. و هؤلاء هم من سكان الجبال الذين يجعلون السفر فى تلك الأنحاء محفوفا بالمخاطر.

و لقـد اضـطربت الأحوال و ساءت العلاقات بين أولئك القتلـة و قطاع الطرق. و لـذلك قرر أمير اللواء التركى أن يقدم على إعدامهم قبـل أن يثـأروا منه بـأى من الطرق، لكنهم مـا لبثـوا أن تفـاهموا فيمـا بينهم و اتفقوا على العمـل سويـة، و تهيـأوا للهجوم عليه طبقـا لما خططوه. و لما كانت لأمير اللواء اسـتخبارات حسـنة عن نواياهم فقد اسـتطاع أن يشخص إلى اسطنبول ليعلن أمرهم للسلطان التركى و ذلك أمر لا بد أن يطلعوا عليه بعد وقت قصير.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۶

و حين وجـد أمير اللواء ضـرورة فى نجاته، و حاجة ماسة إلى الأموال التى غدت نادرة لديه، اسـتدان من أحد التجار الأرمن، و هو من الأثرياء و قد وصل إلى أربيل توّا لشـراء العفص منها و الذى يكثر فيها، ثلاثمائة دوقة الأمر الذى وضع ذلك التاجر فى خطر كبير، لأن المتمردين ما إن علموا بذلك حتى اسـتاؤوا منه و هددوه فاضطر إلى أن يمكث مدة أطول كيما تتهيأ جماعة أكثر عددا يستطيع السفر معها بأمان.

و بعـد أن انضم إلينا ذلك التاجر الأرمنى نفسه رحلنا من أربيل فى الخامس من كانون الثانى سـنة ۱۵۷۵ م فى عدد كبير من البضائع، إذ إن ذلك التاجر وحـده كان يملك حوالى خمسـين بعيرا و حمارا محملـة بالعفص الـذى يريـد نقله إلى «قره آمـد» (ديار بكر) التى يسـكن فيها و من هناك يبعث به إلى حلب حيث يقبل التجار هناك على شرائه و إرساله إلى بلادنا الأوروبية. و هكذا أمضينا النهار و نصف الليل الذى أعقبه و نحن نعد السير دون أن نتناول أى طعام أو شراب إلى أن توقفنا للاستراحة بعد منتصف الليل.

*** بعد أن أمضـينا بقية الليل فى التزود بالطعام و الشـراب لنا و لدوابنا اسـتأنفنا مسيرتنا عند انبلاج الصبح. و حين كنا نسير فى سهول مزروعة مثمرة وصلنا إلى نهر آخر سماه «بطليموس» باسم «كابروس» و هو و إن لم يكن عريضا لكنه عميق الغور جدّا، و لذلك وجب علينـا أن نعـد وسـيلة ما لعبوره، مما جعلنى أحرص كل الحرص على وقايـة النباتات التى جمعتها و التى كنت أضـعها أمامى على ظهر الجواد الذى كنت أمتطيه.

واصلنا سفرتنا بعد الظهر فقطعنا مسافة لا بأس بها من الطريق حتى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۷

وصلنا ليلا إلى مدينة ذات سوق واسعة هى مدينة (قره قوش) فأقمنا خيامنا على مقربة منها.

و هذه المدينة يسـكنها (الأرمن) الذين استطعنا فى الحال أن نميزهم من تغير لغتهم و عاداتهم، و قد استقبلونا بترحاب متزايد، و أعدوا

لنا كل ما كنا نحتاج إليه.

و بعد أن استرحنا فى المدينة حتى المساء غادرناها حين حل الظلام.

و كانت حلكة الليل شديدة إلى درجة أننا كنا فيها نسمع أصوات قوافل تمر بنا، دون أن نراها، أو نعرف كثرتها، أو المكان الذى أقبلت منه.

و حين طلع علينا النهار وصلنا إلى نهر كبير يسميه السكان «كلك» ، إن لم أكن قد أخطأت فى ذلك، بينما يدعوه بطليموس باسم «ليكوس» .

كان ذلك النهر يعترض طريقنا، و كان عريضا يبلغ عرضه زهاء الميل ، و لم يكن من اليسير عبوره دون التعرض إلى الخطر، و ذلك أمر

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۸

يعرفه الأكراد جيدا، فى ذات الوقت الذى كنا نحن نشعر فيه بالخوف من أولئك الأكراد أنفسهم، و مع ذلك فقد وجدنا بين جماعتنا ممن سبق لهم عبور ذلك النهر و هكذا غامرنا فى عبوره فاندفعنا إليه و عبرناه و خرجنا منه سالمين بفضل اللّه، خلا حمار واحد جرفه تيار النهر القوى فأغرقه.

فى صباح اليوم السابع من كانون الثانى ۱۵۷۵ م وصلنا إلى نهر دجلة مرة أخرى لندخل مدينة «الموصل» الشهيرة التى تقع على هذا الجانب من النهر فوق جسر مصنوع من الزوارق.

و فى المدينة بعض الشوارع و الأبنية الجميلة الجيدة. و هى واسعة نوعا ما لكن أسوارها و خنادقها ضعيفة، كما لا حظت ذلك من سطح النزل الذى حللنا فيه و الذى يمتد إلى المدينة ذاتها.

كذلك شاهدت فى خارج المدينة تلّا حفر معظمه يسكنه الفقراء من الناس و قد رأيتهم عدة مرات يزحفون إليه و يخرجون منه مثلما يزحف النمل إلى تلاله و يخرج منها و فى هذا المكان كانت تقوم قبلا مدينة «نينوى» ذات القوة و البأس التى بناها «آشور» منذ عهد الملكية الأولى حتى عهد سنحاريب و أبنائه .

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۲۹

كان طول نينوى يبلغ مسيرة ثلاثة أيام. و لقد قرأنا أن النبى «يونس» عند ما جاءه أمر اللّه وراح يدعو سكان المدينة إلى التوبة استطاع أن يدخلها فى يوم واحد، و لذلك أصغى الناس بشوق إلى مواعظه فتحسنت حياتهم، لكنهم لم يستمروا فى التوبة طويلا، و عادوا إلى مفاسدهم السابقة و إذ ذاك حل بهم الدمار و الخراب مما تنبأ لهم به كل من النبى «ناحوم» و النبى صفنيا و كذلك التقى الورع «طوبيا» الذى كان آنذاك فى المدينة و لم يمكث فيها طويلا.

و مع ذلك تم بناء الموصل مجددا فيما بعد، و عانت الكثير بسبب تبدل الحكومات التى استولى عليها «تيمور لنك» فى النهاية بهجوم عاصف فأحرقها و حولها إلى رماد، إلى درجة أن النباتات و الأشجار نمت فوقها بعد مدة قليلة. و لذلك لا ترى فى الوقت الحاضر، أية آثار فيها مثلما هو عليه الأمر فى «بابل» القديمة، و لم يسلم منها سوى حصن يقوم على أحد التلال و بعض القرى القليلة التى كانت تعود إلى الأيام الخوالى

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۰

فيها حسبما ذكر لنا السكان ذلك .

تقع الموصل عند تخوم أرمينيا فى سهل واسع يزرع القسم الأعظم منه بالحنطة على الجانب الآخر من النهر. ذلك لأن هذا الجانب من أرض العراق رملى و قاحل يدعك تحس و كأنك تعيش فى الصحراء العربية.

و مع هذا فالتجارة نشطة فيها، إذ إن فى المدينة مخازن كبيرة للسلع نتيجة وجود النهر، حيث يتم نقل مختلف البضائع و الفواكه من

البلاد المجاورة بطريق النهر و بالبر إلى بغداد.

و لقد شاهدت نوعين من هذه الفواكه من جنس الجوز بأحجام كبيرة و صغيرة يسميه السكان باسم (البندق) كما شاهدت نوعا من «البطيخ» كبير الحجم بقدر قبضتى اليد كثير الانتشار هنا قيل لى عنه إنه يؤتى به من أرمينيا، و هو صلب أسمر اللون حلو المذاق و هو كاليقطين و مع ذلك فهو حسن صالح للأكل و يحتوى على بذور صغيرة

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۱

حمراء لا يشاهد، المرء حين تناوله، و هو يحل الجسم لكن ليس بالكل المعروف عندنا من هذا الثمر. و قد اعتاد السكان أن يتناولوه بكميات كبيرة عند الصباح مثلما يفعل ذلك سكان جبل لبنان بالنسبة إلى الجبنة.

و لكن هل كان هذا هو (المن الحجازى) الذى أشار العرب إليه، أم هو النوع الذى أشار إليه «ابن سينا» فى الجزء الثانى، المقالة الثانية من الفصل الخامس و السبعين، فذلك أمر لم أتحقق منه.

*** و قيل إن أكثرية سكان الموصل من النسطوريين الذين يزعمون بأنهم مسيحيون، لكنهم فى الحقيقة أسوأ من أية ملة أخرى. ذلك أنهم لا يمارسون غالبا أى عمل كان سوى ترصد الطرق و الانقضاض على المسافرين و قتلهم و سلبهم، و بسبب ذلك كانت الطرق المتجهة إلى «نصيبين» - التى بلغناها فى مدى خمسة أيام سيرا فى أرض رملية و عرة- محفوفة بالمخاطر مما اضطرنا إلى أن نمكث عدة أيام انتظارا لجماعة أكثر عددا نستطيع أن نسافر معها فى أمان.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۳

الفصل السادس عشر الطريق الذى سلكناه عبر العراق- طريق نصيبين- أورفه إلى «بير». كيفية عبورنا نهر الفرات العظيم و وصولنا إلى مدينة حلب

بعد أن مكثنا أربعة أيام استأنفنا رحلتنا فى الحادى عشر من كانون الثانى فأمضينا النهار كله فى السير بمنتهى السرعة دون أن نأكل شيئا إلى أن غربت الشمس و حل المساء، حيث خيمنا على مرتفع عند قرية صغيرة لنستريح و نريح دوابنا. و قد بقينا طيلة الليل فى حراسة مستديمة، و نحن ندور حول المخيم ثلاثة فثلاثة.

و فى اليوم الثانى استأنفنا مسيرتنا بسرعة تامة كيما نصل إلى ينبوع أو بئر ماء، مثلما يفعل ذلك سكان هذه البلاد فى مثل هذه الصحارى الشاسعة، أكثر من اهتمامنا بالوصول إلى نزل حسن. و قد وصلنا فى النهاية إلى إحدى هذه الآبار فأقمنا مخيمنا عندها لنستريح و لنمضى الليل كله هناك.

و بعد مضى وقت طويل على تناولنا طعام العشاء أقبل على مخيمنا بعض الأكراد و تحدثوا إلينا برقة، و سألونا عما إذا كنا فى حاجة إلى شىء ما يستطيعون به مساعدتنا.

لكن سرعان ما تأكد لدينا أن أولئك كانوا من الجواسيس بعث بهم رفاقهم ليعرفوا قوتنا، و لما أيقنوا بأننا لم نفرح بمقدمهم لم يمكثوا معنا طويلا- و غادرونا، و إذ ذاك وطدنا العزم على أن نستريح بعد أن أعددنا لنا حراسة جيدة مثلما فعلنا ذلك فى الليلة السابقة.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۴

و عند منتصف الليل، و حين كنا فى الإغفاءة الأولى، لاحظ حراسنا عددا كبيرا من الأكراد يقتربون من مخيمنا. و لذلك أيقظنا حراسنا من النوم بما أطلقوه من عبارات التحذير بأصوات عالية، و أن نكون على أتم استعداد للأمر، و لكى يخيفوا أعداءنا و يبعدوهم عنا بهذه الوسيلة. لكن أولئك الأكراد لم يأبهوا بتلك الصيحات بل اتجهوا إلينا بكل ما لديهم من سرعة فأصبحوا قريبين منا و غدونا نرى رؤوسهم أمام مخيمنا رغم حلكة الظلام.

على أنهم ما إن وجدونا على استعداد كامل و تهيؤ لمقاومتهم، و إذ سمعوا أصوات حملة البنادق و النبال من جماعتنا و قد استعدوا لإطلاقها عليهم، و راحوا ينادونهم بأصوات عالية «تعالوا تعالوا أيها اللصوص!» حتى توقف أولئك الأكراد قليلا ثم خافوا منا فولوا الأدبار هاربين.

و بعد فترة، و لم نعد نخشى هجومهم علينا، أقبلوا نحونا مرة أخرى فى أعداد أكبر من المرة السابقة. فقد كانوا يسوقون أمامهم بعيرا فى المقدمة و خيلا، استطعنا أن نميزها فى الظلام و هى ترفع رؤوسها نحو السماء، و كان غرضهم من هذا أن يحملونا على الاعتقاد بأنهم من المسافرين أو كيلا نعرف مقدار عددهم. على أن غارتهم الأولى علينا ما زالت حية فى الأذهان و لهذا لم ننخدع بهم بل أعدنا استعدادنا ثانية للمجابهة، فكنت أنا أقف فى الميسرة و فى الصف الأول منها و قد سحبت بندقيتى و تدرعت بعدد من صفاح الورق التى جلبتها معى لأحفظ بها النباتات التى أجمعها، ثم رحت أنتظر هجومهم فى كل لحظة. لكنهم توقفوا عن السير مرة أخرى، و خشوا منا كما خشينا نحن منهم و لم يطلقوا صوتا واحدا، أو يتحركوا بأية حركة تجاهنا، و عندئذ عمد أحد

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۵

رجالنا إلى استفزازهم فوجه إطلاقة نحو البعير و أصابه معلنا بذلك لبقية الرجال بأن يستعدوا لإطلاق النار و حينئذ لم يمكث الأكراد إلا قليلا و ولوا الأدبار ثانية، و هكذا بقينا يقظين طيلة الليل و فى حراسة جيدة حيث استأنفنا مسيرتنا فى صبيحة اليوم التالى فبلغنا قفرا قاحلا واسعا لا إنسان فيه و لا حيوان، و مضينا فى رحلتنا حتى الظهر حين أقمنا خيامنا فى مكان واسع محاط بجدران و خنادق أشبه بالحصن، مما يكثر وجوده فى مثل تلك الأنحاء الخطرة.

و ما إن أقمنا هناك حتى أقبل علينا اثنان من الأكراد زعما بأنهما قد أرسلا إلينا لتسلم الإتاوة المفروضة على القافلة لأن المكان يعود إليهما، غير أن تجارنا سرعان ما تأكد لديهم كذب مزاعم ذينك الكرديين، فامتنعوا عن إعطائهما أى شىء مما أثار سخطهما فعمدا إلى امتشاق حساميهما و إشهارهما بوجوهنا. و إذ ذاك لم يقف رفاقنا مكتوفى الأيدى بل أسرعوا فى امتشاق سيوفهم و هجموا عليهما و طردوهما من المخيم.

*** بعد أن انتهت هذه الضجة تناولنا طعام الغداء ثم استرحنا و أطعمنا دوابنا و من بعدها عاودنا السير مرة أخرى حيث بدت أمامنا بعض الجبال التى أخذنا نقترب منها عند حلول الظلام، و قد شاهدنا أحدها و هو أكثر ارتفاعا من البقية يقوم فوق أحد السهول مما حملنا على الاعتقاد بوجود جبال أخرى تقع خلف هذه الجبال فى شكل كمين، و قد تحقق لنا ذلك فعلا لأننا ما كدنا نجتاز أحد تلك الجبال حتى ظهر لنا من ورائها عدد كبير من الجنود يبلغ فوجين كانوا يمتطون ظهور الخيل و يسيرون كل ثلاثة فى صف واحد، و قد أصبحوا فى النهاية على مرمى سهم منا، و كان معظمهم يحملون الرماح.

و إذ بدا لنا، و كأن أولئك الجند يحاولون الهجوم علينا، جمعنا فلول قافلتنا و تهيأنا لصدهم، و قد ربطنا دوابنا بعضها بالبعض الآخر، و عقلناها

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۶

من أرجلها كيلا تتحرك، و وقف خلفها المكاريون و هم يحملون سهامهم بينما وقف خلفهم بقية الرجال الذين لم يتزودوا بالأسلحة و الخيل جيدا، و ذلك استعدادا لإطلاق النار على العدو عند الحاجة إذا ما حاول الهجوم علينا و توجيه إطلاقات بنادقنا إلى خيله.

بعد مضى ساعة على ذلك بعثنا باثنين من جماعتنا إلى الجند كما أرسلوا هم بدورهم اثنين من جانبهم للتفاوض و مع أننى لم أعرف نوع الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين مندوبينا و مبعوثيهم، إلا أن أولئك ما إن تحادثوا كثيرا حتى غادرونا فى الحال و سرنا نحن فى طريقنا، و إذ ذاك شرعنا فى تنظيم قافلتنا، التى كانت تضم أناسا كثيرين و عددا كبيرا من الإبل و الدواب الموسقة بالحمولة، بشكل أحسن من ذى قبل، حيث قطعنا فى ذلك اليوم مسافة جيدة و وصلنا فى النهاية إلى قرية صغيرة خيمنا عندها و أمضينا الليل كله هناك.

لم نجد فى هذا المكان شيئا من الحطب و كنا نعانى نقصا فى الخبز أكثر من بقية المواد الغذائية الأخرى. و قد زاد سرورنا حين حصلنا على الخبز، و فى الوقت ذاته أقبل سكان القرية نحونا ليجمعوا روث الدواب كما اعتادوا أن يفعلوا ذلك فى أماكن عديدة، و لا سيما فى الصحراء، لإشعاله بدلا من الحطب الذى يأتى استعماله فى الدرجة الثانية بعد روث الحيوانات.

و يحفر هؤلاء السكان داخل خيامهم أو بيوتهم حفرات يبلغ عمق الواحدة منها قدما و نصف قدم يضعون فيها أوعيتهم الفخارية التى يحفظون فى القسم العلوى منها ما لديهم من لحوم ثم يملأون ثلاثة أرباع حيز الحفرة بالحصى و يتركون الربع الأخير فارغا يضعون فيه الروث و القش فيشعلون فيه النار و من ثم يضعون الوعاء على النار ليطهوا اللحم بسرعة أكثر مما نفعله نحن عادة.

إن سكان هذه القرى فقراء، و معظمهم يعانى النقص الشديد فى الغذاء، و هم يفعلون نفس ما فعله اليهود عند حصار «القدس» حين

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۷

اضطرتهم الحاجة إلى أن يطهوا طعامهم ببراز الإنسان و الحيوان معا، كما ورد ذلك فى الإصحاح الرابع من «سفر حزقيال».

لقد أمضينا هذه الليلة و الليالى الأخرى التى أعقبتها فى الحراسة أكثر من النوم، و رحنا نتمعن بتأمل فيما تحفل به السماء من فوقنا و التى يشاهدها الكثيرون من أبناء الأمم عادة، و لا سيما العرب الذين يبيتون دوما فى العراء دون سقف يحميهم، و بهذا أصبحوا يعرفون من مشاهدة النجوم ساعات الليل و الوقت الذى ينبغى لهم أن يستيقظوا فيه. فهم لا يهتمون كثيرا بأسرة النوم بل يستعملون بدلا عنها العباءات و الأبسطة التى يلفون أنفسهم بها فيستدفئوا بها و لهذا لا يمكن للمطر أو الجليد أو الندى أن يصيبهم بأى أذى.

غادرنا موقعنا صباح اليوم التالى بعد طلوع الشمس فأمضينا النهار كله فى السير دون أدنى عائق، فاجتزنا جبالا عديدة، كما مررنا فى اليوم الثانى بصحراء رملية عميقة الغور أعاقت سيرنا كثيرا.

و حين بدأ الظلام يرخى سدوله كانت دوابنا قد كلت و أوشكت أن تسقط من وطأة الأثقال التى كانت تحملها و سببت لنا المتاعب، و رغم ذلك، و لأن مدينة نصيبين لم تعد تبعد عنا سوى أربعة أميال، فقد تخلينا عن الطريق الوعر الذى كنا نسير فيه إلى طريق آخر يمر عبر المروج و الينابيع التى كانت تنساب إلى أماكن بعيدة، و لذلك أسرعنا فى السير حتى وصلنا نصيبين فى وقت متأخر من الليل.

و هذه المدينة جميلة الموقع و هى تخضع لحكم السلطان التركى لكنها ليست كبيرة، و تقوم فوق مرتفع، و تحيط بها الأسوار و الخنادق المحصنة إحاطة جيدة.

و المدينة ملأى بالينابيع و القنوات و لا سيما فى المضرب الذى أقمنا فيه خمسة أيام انتظارا لوصول جماعة أخرى من المسافرين.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۸

و يسكن نصيبين عدد كبير من الأرمن لأنها تقع فى أطراف أرمينيا الواسعة و لذلك فلم نعد نشعر هنا بالخوف الذى كنا نشعر به و نحن نجتاز بلاد الأكراد!

خلال إقامتى هناك طلب إلى التاجر الأرمنى الذى أشرت إليه قبلا، و معه أحد السادة الأتراك، ممن كان يعطف علىّ طيلة الطريق- بعد أن سمعا من اليهود الذين معنا بأننى طبيب- أن أذهب معهما إلى «ديار بكر»- و هى مدينة تبعد مسيرة أربعة أيام و تقع على الجانب الآخر من دجلة- كيما أعالج بعض أقاربهما المرضى هناك و أنهما سيقدماننى إلى الباشا الصغير ابن محمد باشا، و الذى يشكو هو الآخر بعض المرض فى الوقت ذاته، مما سيعود على بفائدة كبيرة.

و لقد تقبلت ذلك الطلب من صميم قلبى لأنه ما من شىء يسرنى أكثر من أن أقدم الخدمة لذلك الأرمنى بسبب عطفه و رقته.

و لما كنت قد طلبت بأن أعود إلى حلب و أن علىّ أن أحافظ على كلمتى فى ذلك، و لى فيه مصلحة مهمة، فقد رفضت طلبهما و اعتذرت عن تلبيته بكل رقة.

و الباشا- ما خلا الباشا الوزير - هو من بين الذين يؤلفون حاشية السلطان التركى على الدوام، بينما يكون السلطان هو أعلى رئيس فى تركيا، و هو يحكم أقاليم أكثر سعة و ثمرا من تلك التى يحكمها باشا بغداد من أمثال آشور و العراق و أجزاء واسعة من أرمينيا و

منطقة الأكراد و غيرها مما يتاخم حدود ملك فارس.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۳۹

بعد أن استرحنا و انتعشنا، و انضمت إلينا جماعات أخرى من المسافرين شرعنا ليلة العشرين من شهر كانون الثانى بمسيرتنا فمررنا بعدد من القرى و الحقول المحروثة، و تحدثنا إلى السكان فيها بما تعلمناه من الأرمنية و التركية و العربية، تلك اللغات التى يشيع استعمالها فى تلك البلاد.

استمر سيرنا حثيثا حتى وصلنا فى اليوم الحادى و العشرين إلى مدينة (حران) لنمضى يوم السبت فيها. و فى هذه المدينة و افت الأنباء بوفاة السلطان التركى (سليمان) .

نهضنا فى وقت مبكر من صباح اليوم الثالث و العشرين من الشهر و اتخذنا سبيلا آخر نحو (أورفه) و هى مدينة أخرى قطعنا فى الوصول إليها خمسة أيام. و كلما اقتربنا من جبل «طور» (الذى يفصل أرمينيا عن بلاد الرافدين من ناحية الجنوب) ازداد الطريق و عورة لكن و عورته تعاظمت فى اليوم التالى، و هكذا كلما توغلنا فى الجبال وجدنا الطرق فيها ملأى بالأحجار التى أعاقت سيرنا كثيرا و قد كلل البعض من هذه الجبال بالثلوج نوعا ما (و ذلك أمر لم أشاهده فى هذه البلاد سوى مرتين).

و حدث أن كبا أحد خيول اليهود فتدحرج فوق الطريق، و حين سمع اليهودى تلك الجلبة التفت إلى الوراء فوجدنى واقفا بجانب الحصان و إذ ذاك تعاظم سخطه على، إذ ظن بأننى أنا الذى أسقطته، فحرك قوسه

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۰

و سهامه نحوى. و حين وجدته مهتاجا و تذكرت كيف أضعت شرابى فى السفينة حين سارت بنا فى اليم، لم أتأخر هذه المرة بل سارعت إليه و أمسكت بإحدى ساقيه فأسقطته من فوق حصانه قبل أن يطلق سهمه نحوى، و هكذا أخذ أحدنا يلكم الآخر طويلا إلى أن جعلته يترنح فى النهاية. و إذ رأى المسافران الآخران معنا أننا قد أفسدنا التمتع بمرأى الثلوج، و أننى قد تغلبت عليه و وجهت إليه لكمات عديدة، بادرا فى الحال إلى الفصل بيننا و إعادة الصلح.

و حين وجدت أنهما لم يحملانى تبعة ما حدث، و أن علينا أن نسافر سوية، قررا أن يظهرا صداقتهما لذلك اليهودى ثانية. و على هذه الشاكلة مضينا فى رحلتنا فوصلنا أثناء الليل إلى قرية تقع فى واد ضيق يمتد عند سفح مرتفع عال عثرنا على إصطبل كبير بالقرب منه فتوجهنا إليه و كان هذا الإصطبل منحوتا فى الجبل. و هكذا أمضينا الليلة فيه و لم نستطع أن نرى شيئا منه سوى مدخله. ذلك لأن المألوف فى هذه المناطق الجبلية أن تنحت مثل هذه الإصطبلات فى الجبال، و أن تبيت القوافل فيها بأمان، و تستطيع أن تقى نفسها من البرد أيام الشتاء.

كان هذا الإصطبل (الذى يبلغ طوله خمسا و عشرين خطوة و عرضه عشرين خطوة و على ارتفاع متساو من كل الجهات) قد تمّ نحته فى إحدى الصخور.

و عند منتصف الليل تقريبا، و حين كنا فى أول إغفاءة، طرق علينا أحد سعاة بريد السلطان باب الإصطبل. و كان هذا الساعى قد وصل إلى هنا من بغداد فى مدى ستة أيام، و قد جاء إلى الإصطبل يبحث عن بعض الخيول غير المتعبة (لأن خيله قد تعبت و لم يستطع الحصول على غيرها أثناء الطريق على خلاف ما يحصل فى بلادنا الأوروبية التى ينتظم فيها أمر البريد) و قد دخل الساعى الإصطبل فأخذ من المكارى ثلاثة خيول، كما أخذ حصانين من اليهودى (الذى سبق أن تنازعت معه). ذلك أن هؤلاء

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۱

السعاة التابعين للحكومة يتمتعون بامتيازات كبيرة، إذ يحق لهم، عند الضرورة، أن يضعوا أيديهم على أية خيول يجدونها فى المدينة أو الريف و يحتجزونها لهم. و هم فى هذا لا يقيمون وزنا لأحد من الناس سوى التجار و الأجانب الذين يعتذرون إليهم، و هذا ما أدى إلى تشجيع التجارة.

أما أولئك الذين يقصدهم هؤلاء السعاة فإن عليهم أن يتخلوا عن خيولهم دون أدنى تردد، و من غير أن يفكر أحدهم فى إحداث جلبة (كما فعل ذلك أحد أصدقائنا الذى أبى أن يفتح باب الإصطبل فى الحال) مما يزيد فى تعقيد المشكلة.

و حين خيل لذلك الساعى أنه حصل على خيل جيدة سرعان ما اكتشف غلطته، ذلك لأن الخيل التى أخذها من اليهودى قد كرت راجعة إليه، و إذ ذاك لم يسمح له اليهودى بأخذها ثانية إلا- بعد أن كافأه الساعى على ذلك بصدارى طفل مصنوع من القماش الهندى الفاخر.

و قد أدى هذا الأمر إلى تأخير رحلتنا يوما كاملا إلى أن استطاع المكارى الحصول على خيول أخرى فى تلك المنطقة حيث استيقظنا فى اليوم التالى مبكرين و واصلنا رحلتنا عبر جبال و عرة و وديان ضيقة طيلة ذلك اليوم كله إلى أن وصلنا ليلا إلى إحدى القرى التى يسكنها الأرمن.

و هؤلاء الأرمن من المسيحيين الطيبين الذين يتحمسون كثيرا لرفاقهم المسيحيين، و يودون أن يظهروا الود و الرقة تجاه الغرباء، و هذا ما جربته عنهم غالبا و لا سيما فى هذه القرية، حيث أخذنى أحد الأرمن أنا و اليهود إلى بيته فمكثنا عنده حتى اليوم التالى و إذ تهيأ لى الوقت الكافى هناك دخلت معه فى حديث طويل عن عقيدتنا المسيحية فكان يوافقنى على ما أقول. و مع أن أحدنا لا يفهم الآخر إلا أن اليهود كانوا يقومون بمهمة الترجمة فيما بيننا و لو لا ذلك للاذ كل منا بالصمت وراح أحدنا ينظر إلى الآخر ليس إلا.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۲

كان أهل ذلك البيت آنذاك يمارسون الصوم الكبير و قد عرفت ذلك من قلة الأنواع التى يتألف طعامهم منها (لأنهم لا يتناولون سوى الأطعمة النباتية و الخبز و الماء).

و بعد أن وضع صاحب البيت أمامنا بعض البيض المسلوق فى تلك الليلة أقبلت عليه مندفعا لأننى كنت جائعا جدّا، و لم أكن أتصور أنهم يتمسكون بمثل هذا التزمت و التفريق فى طعامهم. و لقد دهش إذ رآنى لا أمتنع عن تناول البيض فسألنى، عن طريق أحد اليهود، عما إذا كنت لا أدرك أن تناول البيض و غيره من اللحوم محرم فى هذا الصوم، فلم أحر جوابا (ذلك لأن المسيحيين يجب أن يتحلوا بالوقار و الزهد فى هذا الصوم بدلا من التزمت و التفريق بين الأطعمة).

و لما لم أكن أعرف لغته فقد أجبته باختصار موضحا له أن صومنا لم يحل وقته بعد، و لن يحين أوانه قبل مرور ثلاثة أسابيع من الآن. و ذلك أمر لم يرض به قط.

*** استأنفنا مسيرتنا فى اليوم الثانى و العشرين من كانون الثانى فسرنا وسط جبال شامخة و عرة المسالك مليئة بالأدغال و قد اجتزناها قبل أن يحل الظلام حيث نزلنا فى القرية التالية التى كانت تقع على ربوة فى أحد السهول و قد مكثنا فيها اليوم التالى كله لأن كان يوم السبت.

فاتنى أن أذكر أن اليهود خشوا أن تؤخذ منهم خيولهم، كما حدث لهم ذلك قبل بضعة أيام، و لهذا كانوا غالبا ما يسلموننى تلك الخيول لأقودها بنفسى و كأننى أنا صاحبها، و كانوا يأملون الحفاظ عليها بهذه الوسيلة و هكذا ففى الوقت الذى كان فيه أولئك اليهود بمثابة أدلاء لى، كنت أنا فى الوقت ذاته حاميهم.

بعد أن اجتزنا جبالا هائلة و مسالك و عرة وصلنا إلى واد خصب

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۳

يمتد مسيرة عدة أيام إلى «أورفه» و قد بانت على جانبى الطريق عدة قرى و من بعدها ظهرت المدينة قبالتنا بقلعتها القائمة على أحد التلال بشكل بهيج.

دخلنا المدينة ليلة الثلاثين من كانون الثانى، فذهبنا للإقامة فى نزل واسع حسن البناء مكثنا فيه أربعة أيام.

و هذه المدينة لطيفة جدّا و كبيرة نوعا ما، و مزودة بحصون قوية، و قد كانت المدينة و المنطقة كلها تعود قبلا إلى ملك فارس، أما

الآن فإنها من أهم الأنحاء التى تخضع للسلطان التركى.

و تنشط التجارة فى أورفة نشاطا جيدا، و يكثر الاتجار فيها بمختلف أنواع الأقمشة المزركشة، يصنع البعض منها فى المدينة ذاتها، و يصدر إلينا فى أوروبا، بالإضافة إلى التعامل بمختلف أنواع السلع التى يؤتى بها من حلب و دمشق و اسطنبول و غيرها، و التى ترسل من هناك إلى ديار بكر فى مدى خمسة أيام و من ثم تنقل إلى ماذى و فارس و الهند و غيرها.

و لقد ذكر البعض أن هذه المدينة كانت تعرف قديما باسم (حران) أو «كراس» و منها ارتحل الرسول «إبراهيم» مع زوجته (سارة) و ابن أخيه «لوط» - تنفيذا لأمر اللّه الذى أصدره إليه (سفر الخليقة الإصحاح ۱۲)- إلى «أرض كنعان» التى وعده اللّه بها.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۴

و لا تزال فى المدينة بئر فياضة قائمة إلى اليوم تدعى «بئر إبراهيم» و كان الخادم الذى بعث به إبراهيم إلى بلاد الرافدين، أى مدينة «ناهور» (ليبحث فيها عن زوجة لولده «إسحاق» من أقربائه هناك)، كان هذا الخادم قد رأى عند تلك البئر «ربيكا» التى قدمت له و لإبله الماء المستخرج من البئر ذاتها.

و مثل هذا فعله النبى «يعقوب» عند ما هرب من أخيه «عيسو» إذ قدم إلى ذات البئر و عرف نفسه إلى «راشيل» ابنة خاله «لابان» ، و عندئذ أزاح الأحجار عن فوهة البئر و بذلك استطاعت راشيل أن ترد أغنامها من مائها.

و مياه هذه البئر ذات رغوة أكثر بياضا من بقية المياه الأخرى. و لقد شربت عدة مرات من مائها الذى كان يخرج من فوهتها، و يجرى وسط النزل الذى حللنا فيه، فكان عذبا حلو المذاق.

و إلى هذه البئر ذاتها جاء أيضا ابن «طوبيا» البار الذى حمله إليها الملاك «رفائيل» الذى بعث به أبوه إلى «الرها» (التى تدعى الآن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۵

أديسا)- كما سبقت الإشارة إلى ذلك قبلا- كيما يطالب «غابيل» بتسديد دين فى ذمته، مثلما نكون قد قرأنا ذلك فى الإصحاح الحادى عشر من كتابه، و حينئذ عاد عبر طريق «حران» الذى يؤلف نصف الطريق إلى نينوى.

*** بعد أن أكمل اليهود أعمالهم بنجاح تام هناك، استأنفنا رحلتنا فبلغنا جبالا شامخة و عرة المسالك، حيث أمضينا اليوم التالى كله فى مشقة بالغة إلى أن وصلنا إلى نهر الفرات ثانية، و إلى مدينة «بير» ذاتها التى سبق أن أشرت إليها من قبل.

و مع أن المسافة بيننا و بين حلب لا- تزيد عن مسيرة يومين و نصف اليوم فإن رفاقى اليهود كانت لهم بعض الأشغال فى «نصيبين» الشهيرة (التى تقع على هذا الجانب من النهر و عند الحدود السفلى لأرمينيا) و على هذا أصبحنا ملزمين بالذهاب إلى المدينة، و من ثم واصلنا مسيرتنا بعد انقضاء يوم السبت أى السادس من شهر شباط عبر حقول مزروعة بالقمح زراعة جيدة، متجهين نحو «عينتاب» التى بلغناها عند المساء و هى مدينة كبيرة نوعا ما لكنها ليست محصنة، و تقع على تلين صغيرين لطيفين، و لذلك تستطيع أن تراها بوضوح و تمييز حين تخرج من الوادى عبر إحدى البحيرات إلى الحقول.

و على الرغم من ذلك فإن موقعها حسن و منظرها بهيج عن بعد، و إن كانت تبدو من الداخل واهنة البناء.

و قد حاصر ملوك فارس هذه المدينة عدة مرات فى العصور السابقة ثم استولوا عليها أخيرا و احتفظوا بها زمنا طويلا- إلى أن استعادها

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۶

الامبراطور الرومانى جليانوس (أذينة التدمرى) من الملك الفارسى «سابور»، مع مدينة «أورفة» سوية و ضمها إلى الامبراطورية الرومانية مرة أخرى.

و لكن وا أسفاه! إنها فى وقتنا الحاضر هذا تخضع، مع بقية البلاد الأخرى، للاستعباد العثمانى!. و قد غدت التجارة فيها ضئيلة و لذلك يعتاش سكانها على مقاطعاتهم الزراعية إذ يزرعون الأراضى التى يملكونها بالكروم و البساتين التى تكثر فيها أشجار الرمان و التين و

غيرها (و هذه الأشجار مثقلة بالفاكهة) و لكنك إن نظرت إليها عن بعد حسبتها غابات من أشجار برية و ليست أشجارا مثمرة.

و هكذا ترى أهل هذه المدينة يصدرون فى كل سنة أنواعا عديدة، من الفاكهة، و فى مقدمتها الزبيب، إلى البلدان الشرقية بطريق القوافل التى صادفت الكثير منها.

بعد أن مكثنا هناك و أضعت أنا اليوم كله سدى فى سبيل أشغال أولئك اليهود، توجهنا نحو «حلب» رأسا فقطعنا عدة أميال فى طرق جبلية و عرة إلى أن بلغنا فى النهاية سهلا أرضه لطيفة خصبة تكثر فيها الخمور و القمح بشكل لم أشهد مثله قبلا. و يمتد هذا السهل إلى مدينة حلب التى وصلناها مبكرين و فى صحة جيدة بعون اللّه العظيم فى اليوم العاشر من شهر شباط ۱۵۷۵.

و عند وصولى إليها لم يكن رفيقى «هانز أولرخ كرستل» موجودا مع بقية القوم، و إذ ذاك أقبل على بعض التجار الفرنسيين (الذين سبق أن

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۷

عالجتهم مما أصابهم من مرض قبل رحيلى) فحملونى معهم إلى مسكنهم، و رغبوا إلىّ أن أعيش معهم إلى أن تنتهى مهمتى (التى استدعت العودة بسببها) فكانوا فى ذلك مثالا للرقة حقّا.

و لما كانت ملابسى قد تمزقت (لأننى لم أخلعها عن بدنى مدة نصف سنة) فقد توفرت لدىّ فرصة الاستراحة و الحصول على ملابس جديدة.

و إننى أشكر اللّه العظيم على رحمته الواسعة، و على العطف الذى حبانى به، و المساعدة التى أولانى إياها فى هذه السفرات فله منى الشكر و التبجيل.

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۴۹

ملحق بأسماء النباتات التى صادفها الدكتور راوولف فى رحلته إلى الشرق

القيصوم Abotanum

شجر السنط العطر، الطلح (أقاقيا صمغ عربى) Acaciae

الكمأ. الفطر Ageratum

الحاج نبات يشبه الشوك العاقول Alhag

خطمى ورد الخطيمة Alcea

نوع من النباتات السدوية المختثة Androsae mum

شقائق النعمان Anemone

شبث نوع من النباتات الخيمية و التوابل Anetho

السفرجل الهندى Anonis

دفلى: نبات قاتل الكلب أو خانق الكلب Apocynum

أربوطس، قطلب، نبات يدعى (قاتل أبيه) Arbutus

أريصادن أو نبات الرنس Arisarum

أرسطو لوخيا نبات الزراوند Aristolochia

أرون، اللوف، خبز القرود Arum

اصطر نبات ذو زهور مركبة Aster

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۰

استراغالوس نبات من فصيلة البقول Stragalus

المشرف. نبات متعدد الأزهار cypria) Atractylis)

القرطم البرى Antiquarum) Atractylis)

الشوفان، الهرطمان Avellana

اسم فارسى للشجر العتيق Azadirachta

بخارس. بابونج الطيور من جنس الأشجار المركبة Baccaharis

شجر البلسم Balsamum

شجر البان Behmen

نبات المولى، البرنية. زهر الأجراس Bellis

ورد لسان الثور Borago

القصب الذريرى نبات يشبه الذرة له Calamus

رائحة عطرية Camarronum

نبات القطيفة عرف الديك Capparis

شجر اللصف أو الكبر Castrnea

الكستنة. أو قروة الفسطل Catanance

القسطل شاه بلوط Caucalis

أزهار ذوات سيقان Magna) Cedrus)

شجر الأرز من النوع الضخم Lycia) Cedrus)

أرز من النوع الصغير Chomaeleon

شجر الحور الأبيض Charnobi Arab

الخرنوب العربى (ثمر الشوك) Chondrillae

الهندباء البرية Vera) Chrysocome)

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۱

نوع من الأزهار الحلزونية أقحوان Syriaca) Chrysocome)

أقحوان سورى Chrysogonum

نبات ذنب القط Cistus

فستس. لحية التيس Clinopodium

نبات رأس العصفور Cneorum

نوع من أزهار السوس Colehicum

زهر شجرة اللحلاح. سورنجان Convolvulvs Hederae

شجر العليق. اللبلاب Convolvulus Carleus

نبات لفلاف Convolvulus Sagittariae

القطب نوع من شجر البانConvolvulus Marinus

شجر البان البحرىConvolvulus Arabicus

شجر البان العربىConyza Syriae

قونيزة، طباق نبات مركبConchorus Plinii

نبات الملوخية فى مصرCoris Foliis

نبات البطراون (يونانية)Coris Legitima

نبات السمفوطس (يونانية)Corona

الإكليل. التاجCyanus Floridus

قيانوس نبات عطرى متعدد الأوراقCyanus Orientalis

زهر القيانوس الشرفىCyclamine Antioch

نبات عطرى يسمى بخور مريم (الأنطاكى)Cyclamen Autumnal

نبات بخور مريم الخريفىCyclamen Hyemale

نبات بخور أو شجرة مريم المتعددة الأزهارCyclamen Heme

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۲

شجرة مريم المتعددة الأوراقOrien) (Cyperus Rotondus

نبات السعد (الشرقى)Syriocus) (Cyperus

نبات السعد (السورى) الشندىCytisus

قوطيوس من النباتات القرنية الفراشية (جزرايجه)Daucus

نبات من فصيلة البقول. الحسك (سرويا) جزرDictamnus

نبات مشرفى الفوذنجDraba

نبات الغربDraba

نبات العدمEphedra

نبات الجرجير (من الفصيلة الصليبية) حشيشة الغبيرةEruca

نبات شوكى من الفصيلة الخيمية (شوكة إبراهيم) بقليةEryngium

شجرة التين أو الجميزFicus Sypria

الفسطيط شجر ضخمFustick Wood

الغربGarab

الرتم. الزانGenista Spiosa

الرتم شجر له زهر و حب مثل حب العدسGenista Spartium

بلوطGengidum

اللبانGlans

Gnaphalio

نبات الزرام (الجزائر)Habhel

نبات العود (سوريا)Hacub

الحرملHarmala

نبات برى من نوع القيصومHeliochrysum

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۳

أقحوان من فصيلة عباد الشمسHeliochryson

زهرة المساء زهرة من الفصيلة الصليبيةHespris

المرير (حشيشة القعاب) نبات عشبى مركب الزهورHieracium

نبات الجنجل، الشعيرHorminum

العيسلان نبات زنبقىHyacinthus Comosus

الزنبق المتعدد الورودHyacinthus Racemosus

الزنبق الشرقى عباد الشمسHyacinthus Orientalis

الليلاقHyacinthus Stellatus

زهر عيون الغزالHyacinthus Eiriophorus

الزنبق الطرابلسىHyacinthus Tripolitanus

الزنبق المصرىHyacinthus Ae Gyptius

الزنبق الجبلىHyacinthus Montis

الزنبق السدرىHyacinthus Syriacum

الآس البابلىIris Bulbosa

الآس الضخمIris Chalcedonica

ياسمين فارسىIris Asiatica

سوسنIris Damascena

سوسن الخلقدونيةIris Tripolitana

سوسن آسيوىIris Tuberofa

سوسن دمشقىJacea Babylonica

سوسن طرابلسىJacea Maxima

جذر البنفسجJaceam

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۴

Jasminum Persicum

القلى العربى. شنانKali Arabum

القلى العربىKali Arabum Seecundum

زهر القسمسنKismesen

لاميون نبات شفوىLamium

نبات الحماضى Lapathum

الإيراقليون شجر صمغى Laserpitium

نبات بقولى Lathxrus

شجر الغار الكرزى Laurocerasus

نبات الأذريون Leontopetalon

نبات من الفصيلة الصليبية. الخماش Lepirium

الزغل Leucoium

زنبق Lilium

التيل نوع من الأعشاب Linaria

نبات عشبى من الفصيلة الخنازيرية Linariae

نوع من نبات الترمس السام Lupinus

زهر من فصيلة القرنفل Lychnidis

نبات من الفصيلة القرنفلية Lychnis Chalcedonica

القرنفل المتعدد الزهر Lychnis Flore

نبات سراج القطرب Lyshnis Sylvestris رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد ؛ ص۲۵۴

عوسج Lycium

الخولان Lycium Boxi

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۵

نبات أذن الحمار نبات غير مزهر Lycopsis

آذان الفأر عبقر حبق الفيل من الشفويات زهر Majorana

خبازيات Malva

نبات عشبى من الفصيلة الشفوية Marrubium

النفل Medica Trisuls

النفل. القرط Medica Siliquis

الصفصاف. السفراب Medium

القرطم العربى Medac Arabum

شربين. عرعر Melantzani

حندقوق إكليل الملك Melilotus Corvis

حندقوق سورى Melilotus Syriaca

حندقوق أصفر الزهر Melilotus Lutea

حندقوق قطرى Melilotus Minima

ترنجان Melissa Moluca

البطيخ Melochia

مرجانMorgsani

طحلب «كثة العجوز»Mossolini

ثمر المانغاMungo

زهرة سلطان الحبMyagyrum

شجر المر الذى يستخرج منه الصمغ الآس الريحانMyrtus

زهر النرجسNarcissus

زهرة قرة العين بقلة معمرة تؤكل أوراقهاNasturtium

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۶

الحبة السوداءNegill

فوزنج من الفصيلة الشفويةOlea

من الفصيلة الزنبقية يستخرج منهاOriganum

الصمغOrnithogalum

نبات سنة العجوز. جلبان الحيةOnobryhis

النخلPalma) Parma)

الدخن. نبتة ذات جذرينPanax

الخشخاشPapaver

شجر اللبخPersea

شجر الحلاب أو الحلبPeriploca

نبات البقدونسPetromarula

قطنPhaseolus

لسان الحمل نبات عشبى معمرPlanta Lactaria

الفستقPistacea

عشب من الفصيلة النجيلية (الجعدة)Polium

جنجر. عصا الراعىPolygonum Baccirum

Polygonum Mximum

نبتة قرعة الراعىPoterium

شجر الإجاص الشائك. برقوقPrunella

شجر من الفصيلة الصنوبريةPseudo Dictamnum

فطر من الفصيلة الفقعية (فساء الذئب)Pulfatilla

نبات مربع الأوراقQuadrifolium

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۷

نبات ذو فلقتين، جوذان الشونيزRanunculus

شقائق النعمان شونيز جوذانRanunculi

الفجل Raphanistrum

من الأشجار المستوطنة فى إفريقيا و أوروبا Rhamnus

(رافس) Rhaponticum

شجر الراوند من الأشجار المعمرة Ribes

(ترفة) Rosa Hierichontea

الكشمش. عنب الثعلب Rosae Hierichontea

ورد جورى عرشق Ruta

الحرمل السذاب Salix Arabica

الصفصاف العربى Salix Syriaca

الصفصاف السورى Salvia

شجر الأراك Satureia

السحلب Scabiuosa

زهرة الجرب، حشيشة الجرب Scammonia

سقمونية، المحمودة نوع من البقول الصمغية Schaniuth

الشوك Scorzonera

الشوك Scorzonera Radice

ذوات القشر الأسود Scorzonera Orientaliis

نبات المرير Scordiium

الدباة عند عرب الجزيرة Sebestena

الثوم البرى ثوم الحية Secacul

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۸

سبستان ثمرها لزج Secudes

القطانى نوع من الفصيلة النجيلية Seisefen

سبسبان. سيسباء Sephia

زيفا (حمص؟) Sideritis

نبات الفزر (العريشى) Sisarum

نبات الغرا و الغريرا Sisyrhinchium

الخردل البرى Solanum

نبات عشبى من الفصيلة الباذنجانية Sorghi

الذرة Spartium

شجر الرتم. كف الكلب Speculum

ذات السنابل القليلة Stachys

رغل من النباتات الشفوية Sycomorus

الجميز Syringa

نبات للتزيين من الفصيلة القلبية البطم الهندى Terebinthus Indica

Tereniabin

Tharasalis

Thlaspi

أزهار من الفصيلة الصليبية Thlaspi

السعتر (زعتر) Thymus

شجر الزيتون Tithymalus

شجر العضاه الصمغى Tragacantha

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۵۹

شجر الحرقوف. الجمينة Tragium

النغل Trionum

أبو خنجر. طرطور الباشا Trunschibil

شجرة الخزامى Tulipa

شجرة قرن الغزال Tulipam

بوصير. آذان الدب Verbasum

البنفسج Viola

زهرة خماسية. كف مريم Vitex

نبات عرق الكافور Zarneb Zarnabum

Zarneb Melchi

الطرطير Zaroa

رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۶۱

فهرس المحتويات

كلمة الناشر ۵

أهداف الرحلة ۶

بداية الرحلة ۶

التوت أو الفرصاد ۷

و الأشنان أو الأشنان ۸

بداية رحلة الدكتور ليونهارت راوولف ۳۱

الفصل الأول: مدينة طرابلس. ضواحيها الخصبة. عظم التجارة فيها.

فخامة الحمامات و الأبنية المهمة الأخرى التى تشاهد هناك ۳۳

الفصل الثانى: أفراد الطبقة العليا من رجال الأتراك و نسائهم، أعمالهم و دوائرهم، عاداتهم و تقاليدهم و ملابسهم ۴۹

الفصل الثالث: من طرابلس إلى دمشق و حلب ۶۱
الفصل الرابع: مدينة حلب. الأوضاع فى مدينة حلب.
الأبنية القائمة فيها، الفواكه الفاخرة ۶۷
الفصل الخامس: المناصب الرفيعة و السلطات الواسعة التى يتمتع بها الباشوات فى حلب. البلاطات الكبيرة التى يحتفظون بها ۷۱
رحلة الهولندى الدكتور ليونهارت راوولف/ تعريب سليم احمد خالد، ص: ۲۶۲
الفصل السادس: المعاملات التجارية فى مدينة حلب.
جملة أنواع من المأكولات و المشروبات و الولائم ۸۷
الفصل السابع: مغادرة حلب إلى مدينة (بير) الشهيرة و سفرى من هناك فى نهر الفرات إلى بابل القديمة ۱۰۷
الفصل الثامن: الطريق الذى سلكناه بالسفينة. التوجه نهرا إلى الرقة.
مجيء نجل أمير العرب إلى سفينتنا مطالبا بالإتاوة ۱۲۳
الفصل التاسع: مدينة الرقة ۱۴۳
الفصل العاشر: مدينة دير الزور ۱۵۳
الفصل الحادى عشر: مدينة «عنه» ۱۶۵
الفصل الثانى عشر: الطريق الذى سلكناه من عنه إلى بابل القديمة عبر المدن القديمة المسماة حديثة وجبة و هيت ۱۷۷
الفصل الثالث عشر: بابل القديمة. هى عاصمة كلدة و موقعها.
كيفية بقائها حتى اليوم ۱۸۵
الفصل الرابع عشر: مدينة بغداد. تدعى بالداك.
موقعها، نباتاتها الغريبة، مواصلاتها القديمة ۱۹۳
الفصل الخامس عشر: الطريق التى عدت بها من بغداد عبر أور فى أطراف فارس و إقليم الكرد إلى كركوك و أربيل ۲۱۷
الفصل السادس عشر: الطريق الذى سلكناه عبر العراق- طريق نصيبين- أورفه إلى «بير». كيفية عبورنا نهر الفرات العظيم و وصولنا إلى مدينة حلب ۲۳۳
ملحق بأسماء النباتات التى صادفها راوولف فى رحلته إلى الشرق ۲۴۹

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبيّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة)

تحتَ عنايـة سـماحة آيـة الله الحـاجّ السيّد حسن الإمـاميّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمـعٍ من خِرّيجى الحـوزات العلميّـة و طلاـب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّـى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّـباب و عموم النـاس إلى التّحَرّى الأـدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسـيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققين و الطّلّاب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّـُبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّـه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِـهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹